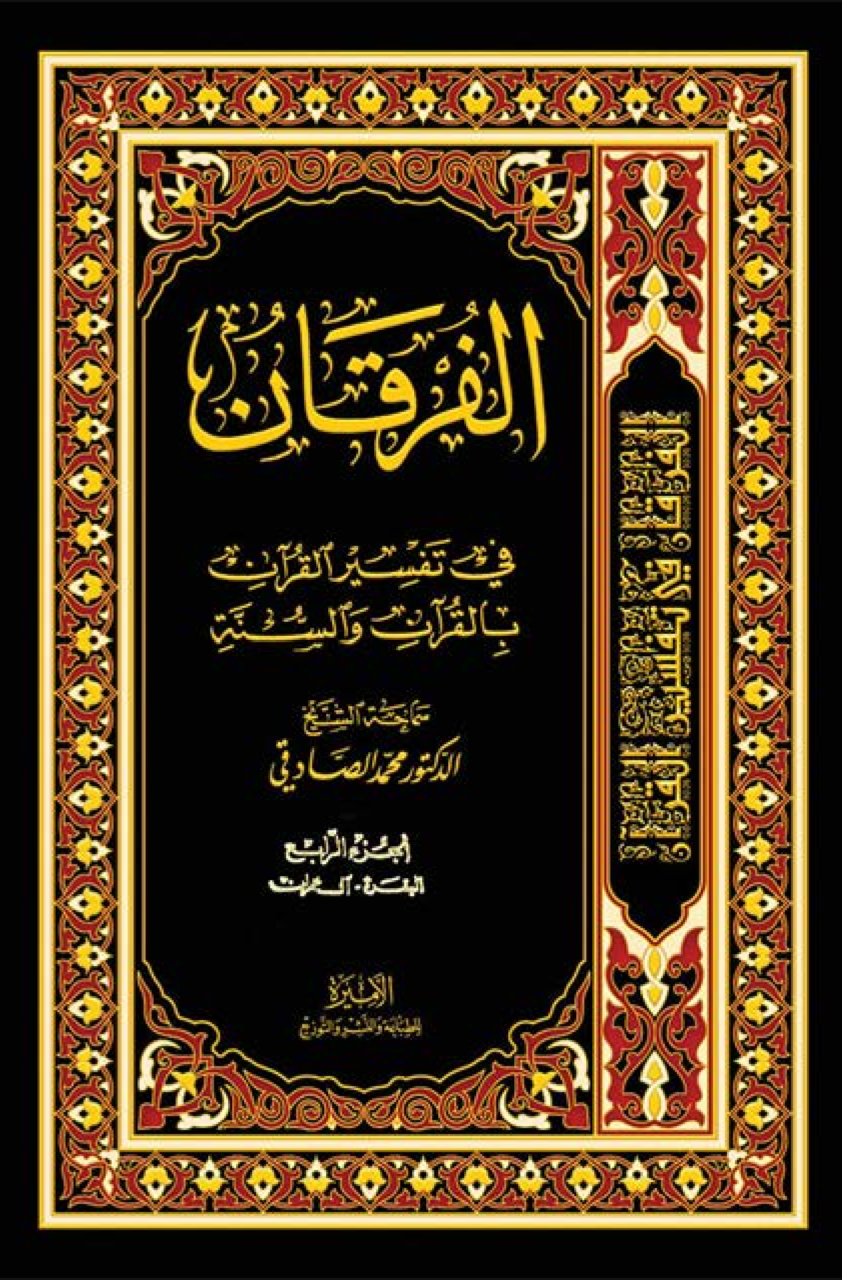


الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الرابع
البقرة - آل عمران
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع



في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة





في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

الجزء الرابع

سورة البقرة - آل عمران

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

٢

تتمة

سُورَةُ البَقَرَة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٥١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢٥٢) تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤)

بما أن القرآن دعوة للحياة الدائمة المتجددة عبر الأجيال، دون حياة محدودة مغلقة في صفحة عابرة غابرة من التاريخ، لذلك نرى آياته البينات

تلتقط لنا من ماضينا لحاضرنا ومستقبلنا فإن تاريخ الإنسان سلسلة موصولة متشابهة، فلندرس من كل غابر لحاضر، ولكي نكون كأنّنا عشنا الدهر كله بكل تجاربه، فنصبح على أهبة واستعداد للمضي في طريق الحياة الملتوية الشائكة الطويلة، عارفين كل هابط وصاعد، وكل قمة وسفوح، فنفلح بما ندرسه من غابر الزمن لحاضره، تحضيراً لتجارب التاريخ، فتحذراً عن مهاويه ومخازيه.

فالقصص القرآنية تعرض لنا بهذه الوفرة والغزارة مهام الأحداث في تاريخ الأمم الغابرة لنكون على خبرة من أشباهها في العصور الحاضرة، وكثير منها هي من أحداث الأمة الإسرائيلية، بما علم الله أن أجيالاً من أمة الإسلام ستمر بالتي مرّ فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف مشابهة بمواقفهم، فعرض علينا مغالق الطريق ومزالقها مصورةً في تاريخهم لتكون لنا عظة وعبرة، قبل الهبوط في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق.

توجيهات وجيهات حية تنبض بكل مظاهر الحياة، مشيرة إلى معالم الطريق وعوالم الحريق.

ومن التجارب المعروضة هنا تجربة الفرار عن الموت، من ألوف خرجوا من ديارهم حذر الموت دون تعريف لهم، في عرض خاطف كخطف الحياة والموت:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾:

أترى ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟...﴾ مثلٌ يمثّل به هنا لموت التأخر عن شؤون الحياة ونشاطاتها، وحياة التقدم في شؤونها، لأن واقع الموت هنا والحياة بعدها مرة أخرى مما تحيله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ

ٱلْأُولَىٰ﴾(١) و﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾(٢)، وقد سميت حياة التقدم في مبتغياتها حياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣) - ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(٤)؟ ثم ولا تناسب الموتَ بالفرار عنه ثم الحياة آيةُ القتال التالية؟.

و﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟...﴾ دون أداة التمثيل كما في سائر الأمثال القرآنية، لا تناسب المثل! وإتيان الحياة بمعنى نضارتها في مجالات أخرى بقرائنها، ليس ليختصها بها في هذا المجال دون قرينة! والآيات المستشهد بها لا تحيل موتين وحياتين في الدنيا، وقد أثبتهما آيات عدة، وإنما هي عرض كضابطة للحياة الدنيا أنها واحدة يموت الأحياء عنها إلى البرزخ، فهي تقبل الاستثناء وكما استثنيت بآياتنا ونظائرها كـ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ... ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ...﴾!.

وما تلك الطنطنة الغوغاء إلا من متفرنجين سموا أنفسهم مفسرين، ينكرون خوارق العادات، مؤولين لها - خلافَ نصوصها القرآنية - بعاديات! خائضين في تيه التأويلات الباردة في آيات الله البينات ليحيدوا عنها خوارق العادات، وهي هي بنفسها في قمة الخوارق، وقد تحمل فيما حملت إنباءات عن خوارق أخرى في تاريخ الرسالات.

وليست الآيات المحيلة الرجوع إلى الحياة الدنيا للأموات كـ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾(٥) إلّا في الذين حظوا حظوهم من حياة التكليف قدر

(١) سورة الدخان، الآية: ٥٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

المقدر لهم، ثم هم يطلبون الرجوع إلى مزيد، دون الذين لم يحظوا حيث أميتوا محنةً وابتلاءً، ثم رجعوا لتكملة العدَّة، أو الذين يرجعون وليس لهم تكملة كالراجعين يوم الرجعة من الذين محضوا الكفر محضاً، فإنهم لا يحظون برجوعهم إلا مزيد الكفر، مهما حظى الذين محضوا الإيمان محضاً مزيد الإيمان!.

ثم وترتيب القرآن خلاف تنزيله مما قد يوهن أمر الرباط بين الآيات كما يطلبه الرابطون بينها كما يحبون، ولكن الرباط في ترتيب التأليف حاصل من العليم الحكيم الذي رتّبها بذلك التأليف الأليف، مهما كان عميقاً عريقاً يحتاج إلى تفكير.

فهنا تنديد بالفرار حذر الموت، لامحاً للتنديد بالفرار عن الجهاد حذر القتل، وكلاهما من الفرار عن الموت.

فليست رباطات الآيات باهرة إلا لمن يذّكر فيها، وليست هي قريبة قرب سائر الرباطات في سائر المؤلفات، وإنما هي رباطات وطيدة عريقة قريبة أو غريبة لا بدّ من إمعان النظر فيها.

ثم إن هذا القرآن قد روعي في تأليفه ما يهتدي به المهتدون في كل طائفة طائفة من آياته الكريمة، دون تفصيلات وتبويبات كما في سائر المؤلفات، ولكي يتعرف المتحري عن الحق المرام حقّه في كل نظرة إلى آيات، مستدلاً بها على مجموعة مختصرة غير مختصرة من معارفه، ثم إذا اهتدى وأراد المزيد يزيد في تلاوته مزيداً ومزيداً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1].

أجل ولكل مقال مجال ولكل مجال مقال، لا بدَّ للمفسر أو المستفسر لآي الذكر الحكيم أن يتعرّف إلى مجال كل مقال، وإلى مقال كل مجال،

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

ليعرف الحال كما هي، دون تحميل على القرآن ما يرتئيه من قالٍ، فإنه تفسير للقرآن عن قاله ومجاله، وليس تفسيراً لقاله بمجاله.

ولقد وردت روايات مستفيضة[١] بحق ذلك الموت الجماعي ثم الإحياء من طريق الفريقين، ما لا مجال لردها تفسيراً لهذه الآية، حيث توافقها في معناها ومغزاها، اللّهم إلا ما تحمل جزئيات لا تحملها الآية أو لا تتحملها.

هنا ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ... حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ يلمح بأن باعث الموت كان في ديارهم مثل الطاعون كما في مستفيض الأحاديث، ورغم أن حذر الموت والفرار منه طبيعةُ الحال لكلِّ حيٍّ، ومأمور به لكل مكلف، ولكن قد يستثنى واجب الفرار من الموت بما هو واجب كالجهاد، ولذلك أصبح الفرار من الزحف حذر الموت من كبائر المعاصي.

أم بما هو واقع لا ينفعه الفرار - مهما كان هناك علاج آخر أو لم يكن - كمثل الطاعون الماكن في بعض البلاد، فالمبتلى بالطاعون لا يفيده الفرار من بلده إذا أمكن منه الطاعون، فليفر - إذا فر - من نفسه.

وهنا ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ قد يلمح بأنهم ابتلوا بسبب الموت ومنه الطاعون، ثم خرجوا من ديارهم حذَر الموت بالطاعون، فماذا يفيدهم - إذاً - الخروج من ديارهم.

هذا إذا كان التنديد هنا بخروجهم ومعهم سبب الموت، وقد يعنيه ما يروى عن النبي ﷺ: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فإن

---

(١) ففي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام أحي الله قوماً خرجوا من أوطانهم هاربين من الطاعون لا يحصى عددهم فأماتهم الله دهراً طويلاً حتى بليت عظامهم وتقطعت أوصالهم وصاروا تراباً فبعث الله في وقت أحب أن يرى خلقه نبياً يقال له حزقيل فدعاهم فاجتمعت أبدانهم ورجعت فيها أرواحهم وقاموا كهيئة يوم ماتوا لا يفتقدون في أعدادهم رجلاً فعاشوا بعد ذلك دهراً طويلاً.

الموت في أعناقكم وإذا كان بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب»[١].

وأما إذا كان التنديد بواقع الخروج حين قُدر الموت بسببه وهم لا يعلمون، وإنما يخرجون خوفة الابتلاء به، فهو - إذاً - بيان أن أجل الله لا يؤخر بالفرار ولا يعجل بالقرار.

ثم الرؤية هنا هي رؤية العلم البصيرة، لا رؤية البصر، حيث القصة سابقة بآلاف من السنين، فإنما هي رؤية بالوحي الصارم، التي هي أثبت من رؤية البصر، فالبصر قد يخطأ ولا يخطأ الوحي، وقد تلمح «إلى» هنا إلى سابق الوقعة دون حاضره وإن بصورته، حيث الرؤية متعدية بنفسها للناظر بالبصر ك «رأيتهم» ولكن «رأيت إلى» لامحة إلى مرئي بعيد عن البصر قريب إلى البصيرة.

وفد تعني «ألم تر» - بجنب الرسول ﷺ وعلى هامش رسالته - كل من يصح خطابه، وليكونوا نابهين به وإن الله يبعث من في القبور، وقد يبعث قبل الأخرى جماعة في الأولى كيوم الرجعة.

(١) الدر المنثور ١: ٣١٢ - أخرج سيف في الفتوح عن شرحبيل بن حسنة قال قال رسول الله ﷺ: . . .

وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ﷺ يقول في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

وفيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون»، قلت يا رسول الله ﷺ: هذا الطعن قد عرفنا فما الطاعون؟

قال: غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد والفار منه كالفار من الزحف.

وفيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «الفار من الطاعون كالفار من الزحف والصابر فيه كالصابر في الزحف».

أقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» في الحديث الأوّل دليل واجب التحرز عن الموت وواجب الفرار عنه ما أمكن، فالتنديد بفرار من فر ليس إلا فيما لا ينفع الفرار إذا أمكن سبب الموت في الإنسان فماذا يفيده الفرار عن بلده إلى سواه.

فواقع الإحياء هنا دليل واقعه فيهما وبأحرى، حيث السبب فيهما أقوى، ولا سيما في الأخرى، ثم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وهي جمع كثرة تلمح أنهم كانوا فوق عشرة آلاف، وقد تكون هي جمع إلف كما هي جمع ألف، فقد كان كلّ إلفاً لحياته، ماسكاً لها بكل حوله وقوته، ثم كلُّ إلفٌ بصاحبه، فقد اجتمعت فيهم قدرات ثلاث هي من أهم أسباب الفرار من الموت: الكثرة، والألفة بمعنييها، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليعلموا أن وعد الله حق، وأنه غير مغلوب على أمره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ وهو قولٌ تكويني إرادة ماضية لإماتتهم، ثم أخرى لإحيائهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وهنا ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ كـ«موتوا» تدلنا أن إحياءهم لم يكن من نبيٍّ كحزقيل أمن شابه، كخارقة ربانية هي من فعل النبي تدليلاً على نبوته، فإنما هو فعل الله مهما كان قرينة قولة أو إشارة من نبي الله، فلتؤول الروايات القائلة إن حزقيال أم سواه أحياهم.

فقد يكون القصد من إحيائهم ثم إماتتهم إظهار حجة رسالية، بجنب ما قصد فيه إلى تصحيح التصور عن الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، وردّ الأمر النهائي فيهما إلى ساحة الربوبية، والمضي في حمل المسؤوليات الحيوية دونما هَلَع لا جزع، فالمقدر كائن لا محالة، والموت والحياة هما بيد الله القادر المتعال.

فلا الحذر من الموت المقدر المحتوم يجدي، ولا الفزع والهلع يزيدان في حياة، أو يردان قضاءً مبرماً.

إنه ليس ليعني حرمة الفرار عن الموت بأسبابه الظاهرية، فإنه واجب كل حيٍّ، وفطري لكل حي، وإنما يعني التنديد بمن يفرون عن الزحف، أو لا

يشاركون في النضال حذر الموت، فحين يفرض التعرض للموت بغية إحياء الكتلة المؤمنة، والحياة الآمنة، فهنا التخلف عنه فراراً عن الموت إدغال وضلال.

كما أن التعرض للموت دونما أمر أهم هو ضلال وإدغال، وحتى المناضل الذي يتهاون في خط النار، ولا يحافظ على نفسه، ولا يناضل بقوة وصلابة هو أيضاً ضال.

وترى أن موتهم الجماعي كان بنفس السبب الذي خرجوا من ديارهم حَذَره، أم بسبب آخر لم يكونوا يحتسبون؟ قد تلمح ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ إنه كان بغير ذلك السبب، كلمحة ثانية من ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ إذ لم يكن هناك سبب ظاهر لحياتهم بعد موتهم، ومهما كان ظاهر السبب الذي فروا منه سبباً، ولكن الموت الجماعي بما ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ يلحّق بسببه الظاهر سبباً ربانياً خفياً يموّتهم ثم يحييهم، مهما كان الله المسبب للثاني هو المسبب للأول.

وقد تلمح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ في إحيائهم فضلاً عليهم أن عاشوا ردحاً منتفعين بعيشتهم نابهين، مهما كانت الأكثرية منهم غافلين ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقد يحتمل إنهم لم يُروا بموتهم ما يراه الأموات من حقائق الأمور، وإلا فقد بطل التكليف بعد الموت لمكان المشاهدة للحقائق المكلف بها، فلا ابتلاءَ - إذاً - في التكليف!.

كما تلمح أن في إماتتهم الملتحقة بإحياهم فضلاً، تدليلاً على الموت والحياة إنما هما بيده مهما كانت لهما أسباب ظاهرة، ودلالة ثانية هي القصوى: إمكانية الحياة بعد الموت بسناد القدرة، وواقعها يوم القيامة وما أشبه بسناد الفضل، بل والعدل.

وحين يكون الموت بأمر الله، لا حِوَل عنه إلا بحول الله، فلماذا التقاعس عن الجهاد في سبيل الله حذر الموت الذي يكتبه الله في بيوتكم كما يكتبه عند النضال!:

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾:

﴿وَقَـٰتِلُواْ . . .﴾ فلا يمنعكم عن القتال في سبيل الله حذر الموت، ولا تقولوا قيلات الجهال جهاراً أو في أنفسكم، كـ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

﴿وَقَـٰتِلُواْ﴾ . . . ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ قيلاتكم «عليم» طوياتكم ونياتكم، «قاتلوا» صارمين دونما تزعزع ولا تلكُّع خوفَ الموت وحذَر الموت، فـ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . .﴾[2].

وقد تتحمل ﴿وَقَـٰتِلُواْ . . .﴾ هنا أن تكون خطاباً لمن أحياهم الله بعد ما أماتهم - بجنب المسلمين - شكراً لما فضّل الله، وإدخالاً لهم في خضم المعارك التي فيها الموت، لكي لا يفروا من الموت حال تحقيقهم لأمر الله.

و﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليست فحسب ظرفاً للقتال، بل وهي حال للمقاتل: قاتلوا حال كونكم في سبيل الله - في سبيل الله، فما لم يكن المؤمن في سبيل الله في كل حلّ وترحال، لم يكن قتاله في سبيل الله!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

ثم تأكيداً لواجب القتال في سبيل الله أخذ يستقرضهم قرضاً حسناً في صيغة السؤال الاستفهام الاستعلام، استفحاماً للمتثاقلين، سؤال التنديد بهم والتأكيد للمؤمنين:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾:

وليس القرض هنا وفيما أشبهه يعني - فقط - قرض المال، فإنه من أدناه، بل هو كل قرض من نفس ومال في سبيل الله على أية حال.

فالقرض لغوياً هو القص والقطع، مقابل الفرض وهو الوصل، وعدم ذكر المقرض هنا دليل العموم في فرض القرض كسائر الفرض، فـ ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ يحلق على كل حسنة[1] فـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾[2] - ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾[3] - ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾[4] - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾[5] - ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) ومما يدل على هذا التحليق ما في نور الثقلين ١: ٢٤٣ عن الكافي متصلاً عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟ فقال: لا - هما يجريان في ذلك مجرى واحد ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقربان به إلى الله عز وجل، قلت: أليس الله عز وجل يقول: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحج مع المؤمن؟ قال: أليس قد قال الله عز وجل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عز وجل حسناتهم لكل حسنة سبعين ضعفاً، فهذا أفضل المؤمن ويزيد الله في حسناته على قدر صحة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٨.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٧.

(٥) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ. . .﴾(١).

وهكذا نرى إقراض الله قرضاً حسناً طليقاً دون تعلق خاص بمتعلق خاص في كافة المحاور، قريناً بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وتعزيزهم والتصديق بما يصدَّق من شرعة الحق، مما يدل على طليق متعلقاته، من إقراض المتعلقات الآفاقية والأنفسية، مالاً وأولاداً وأهلين، أم حالاً من نفسٍ وعلمٍ وعقلية صادقة.

فالقرض متعدٍ بنفسه، فالإقراض متعدٍ إلى مفعولين، وقد ذكر في هذه الآيات مفعول واحد هو الله ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ و﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعول مطلق نوعي يبيّن نوعية القرض أنها «حسناً» كما يليق بساحة الربوبية، ثم المفعول الثاني محذوف يعم كل نفس ونفيس يمكن إقراضه الله قرضاً حسناً.

ففي حقل القتال في سبيل الله - كما هنا - يعني القرض الحسن قرض النفس شخصياً، وأنفس الأولاد والأهلين الذين يؤهلون للقتال.

ثم قرض الأموال والتخطيطات الحربية ممن لا يستطيعون حضور خط النار.

فالقرض بالنسبة للأنفس يعم التضحية في سبيل الله قتلاً وموتاً، والكد في سبيل الله صرفاً لطاقات، ثم لما سوى الأنفس من أموال وبنين استئصالاً لها في هذه السبيل، أم صرفاً منها كإقراض المال المعروف بالقرض الحسن، واستعمال الأولاد والأهلين في المصالح الإسلامية دون مقابل.

إذاً ف ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعم كل تجافٍ وتنازل عما جعلنا الله فيه مستخلفين دون اختصاص بشيء خاص.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.

وهكذا يكون المؤمن مقرضاً ربه قرضاً حسناً في كل حقل كما يتطلبه ويناسبه، دونما ضِنَّةٍ، وإنما بكل سماح وحنان، في أمان وغير أمان.

والنقطة الرئيسة في كل إقراض أن يكون قرضاً حسناً، المعبر عنه بسبيل الله، دون سائر السبل المتسارع إليها، المتصارَعُ فيها، كسبيل التفوق على الزملاء وسواهم، أو سبيل تفتح البلاد والتوسعية الخيانية بين العباد، إنما «حسناً - في سبيل الله» كما يرضاه الله، تحليقاً لشرعة الله على بلاده في عباده، لا فرضاً لرئاسة وقيادة لحظوة نفسانية وعلوّ في الأرض فـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1].

أجل ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ الأنفس والأحوال والأموال «ويبصط» لا سواه، فليكن الإقراض لله ﴿قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ في الأخرى، أم وفي الأولى ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2].

وكما القبض هنا يعني مقابل البصط[3] كذلك القبض الأخذ، إذاً فهو الأخذ قرضاً حسناً وهو الذي يضيق ويوسع.

ولماذا هنا «قرضاً» بعد ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ دون «اقراضاً»؟ علّه لأن «قرضاً» يعني الشيء المقروض واتصافه بـ«حسناً» يميزه عن كل مقروض غير حسن مادة ونية وكيفية.

فالذي يقرض الله مالاً أما شابه وهو غير حسن ولا مستحسن وهو غير محبوب، لم يكن بذلك المحبوب: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.
(٣) تفسير البرهان ١: ٢٣٤ - بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية يعني: يعطي ويمنع.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

كما الذي ينفق رياء الناس أو بمنٍّ وأذى، فهكذا الأمر، والحسن عند الله يحلق على كل أبعاد القرض دون إبقاء.

فترى أن الله هنا كيف يعبر عن ذلك الإقراض بـ ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ كأنه المحتاج وليس به: استجاشة للضمائر المؤمنة المطمئنة بالله، الواثقة بوعد الله، الراجية ثواب الله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فمضاعفة الله مضاعفة ربانية منقطعة النظير، فضلاً عن أن تكون «كثيرة»، فـ«إن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى»[(١)].

وهكذا تستجيب لله النفوس المؤمنة، مختجلة من صيغة التعبير، قائلة: «يا نبي الله ألا أرى ربنا يستقرضنا مما أعطانا لأنفسنا وإن لي أرضين إحداهما بالعالية والأخرى بالسافلة وإني قد جعلت خيرهما صدقة، وكان النبي ﷺ يقول: كم من عذق مدلل لأبي الدحداح في الجنة»[(٢)].

فيا خجلتاه من عطف ربنا ولطفه بنا أن يُعيرنا كل ما لدينا من أنفس وأموال وبنين ثم يستقرضنا ما هبانا، ثم يعدنا أضعافاً كثيرة! فما أعطفه بنا وألطفه! وما ألعننا إن لم نجب داعي الله فيما يصلح لنا أنفسنا حيث يصلحنا في أولانا وأخرانا!.

وكما الله هو الذي يستقرضنا ويعدنا أضعافاً كثيرة، كذلك ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ فليس إقراضه قرضاً حسناً مما هبانا بالذي يَقبض فيما كنا من أنفس

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٣ في كتاب معاني الأخبار متصلاً عن أيوب الخزاز قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النَّمل: ٨٩] قال رسول الله ﷺ: اللهم زدني فأنزل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ. . .﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] فعلم رسول الله ﷺ أن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى.

(٢) الدر المنثور ١: ٣١٢ - أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت هذه الآية جاء أبو الدحداح إلى النبي ﷺ فقال يا نبي الله: . . . وفيه عن أبي هريرة عنه ﷺ في القصة فأعطاه النبي ﷺ اليتامى الذين في حجره.

وأموال، ولا الضنة بها بالتي تبصطها، فكما هو المشرع، كذلك هو المكون، فلا مجال لخوف والفقر والضنك بالإقراض، ولا دور لتركه في البصط، ثم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بكل لديهم، وكل مالهم وعليهم، فأين تفرون، وبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟!.

ذلك! وإلى تجربة أخرى من تاريخ الرسالات نبراساً لهذه الرسالة الأخيرة، ومراساً للقتال في سبيل الله بقيادة عليمة جسيمة، هنا رؤية ثانية إلى الغابرين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾:

الملأ جماعة مجتمعة على رأي، تملأ العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً ومُعبراً، ولأن التعاون والإمداد هما قضية الوحدة في رأيهم فقد يأتي الملاء بمعنى المعاونة وطول المدة، سواء أكان ملأ الحق، أم ملأ الباطل كـ ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[1] وهو إطالة المدة ابتلاء بطول العصيان، وأعلى الملإ هم الملأ الأعلى في كل خير للملإ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾[2].

وهذه الآية نظرة عريقة تستجر حصالاتها كتجربات لهذه الأمة الأخيرة، يؤمر بها رسولها وكأنه ينظر إلى واقع الحادثة وحاضرها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٨.

ولأن القصد هنا - كأصل - هو أصل الحادثة، دون أي فصل له أو وصل، لا يؤتى هنا بذكر لاسم الملاء، اكتفاء بسمته بوصمته، لكي تتحذر فلا تهدر هذه الأمة في فرض القتال.

ذلك! فـ«اسمعوا ما أتلوا عليكم من كتاب الله المنزل على نبيه المرسل لتتعظوا فإنه والله عظة لكم فانتفعوا بمواعظ الله وانزجروا عن معاصي الله، فقد وعظكم بغيركم فقال لنبيه: «ألم تر...» أيها الناس إن لكم في هذه الآيات عبرة لتعلموا أن الله جعل الخلافة والأمر من بعد الأنبياء في أعقابكم، وأنه فضل طالوت وقدمه على الجماعة باصطفائه إياه وزاده بسطة في العلم والجسم فهل يجدون الله اصطفى بني أمية على بني هاشم وزاد معاوية عليّ بسطة في العلم والجسم»؟[١]

هنا - وبعد أن أجملت القصة عن اسم النبي المسؤول هنا وسمة الملإ السائل - ليس علينا ولا لنا أن نفتش عن هذا وذلك، حيث القصد هنا أصل القصة دون أصحابها، مهما كان الرسول ﷺ المخاطب هنا يعرف السائل والمسؤول.

وجبين القصة يشهد أن ذلك الملأ إنما لجأوا إلى التماس ملك يقاتلون بقيادته في سبيل الله بما ألجأهم إحراجهم فإخراجهم من ديارهم وأبنائهم، وأن المُحرِج المخرج هو «طالوت» وقد فعل بهم وافتعل ما ألجأهم إلى أن يستيقظوا من نومتهم، ومن وهدتهم إلى وحدتهم، استتباباً لأمرهم الإمر، فقد اجتمع أهل الرأي فيهم إلى نبي لهم من بعد موسى - أياً كان ذلك النبي - وقد كانت لهم وفرة غزيرة من النبيين والمرسلين قد تقتضي عدم ذكرهم

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: اسمعوا...

بأسمائهم إلّا العظماء منهم كداود وسليمان وأضرابهما، ولأن التسمية لا تزيد إيحاءً لأصل القصة والقصد منها.

وعلى الجملة اجتمعوا إلى نبي لهم متسائلين ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

وتراهم كيف يسألونه أن يبعث لهم ملكاً، دون أن يقودهم هو بنفسه للقتال في سبيل الله؟ والقيادات الروحية الرسالية هي بنفسها قيادات زمنية دون فاصل في شرعة الله بين القيادتين!.

فهل «كانت النبوة في بني إسرائيل في بيت والمُلك والسلطان في بيت آخر لم يجمع الله لهم النبوة والملك في بيت واحد»؟[1] وقد جُمعا في داود وسليمان، بل وموسى عليهم السلام وأضرابهم ممن قادوا القتال في سبيل الله، مهما نجد ملكاً كذي القرنين ليس نبياً!.

أم إنهم استعظموا موقفه الرسالي ومكانته أن يقودهم بنفسه القتال وهو رأس الزاوية في القيادتين، فطلبوا منه أن يبعث لهم مِلكاً ينوب عنه في قيادة القتال، دون سائر الأبعاد في القيادة الزمنية فضلاً عن الروحية؟.

وقد قاد القتال في سبيل الله مَن هم أكبر منه كداود وسليمان من الأولين، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وصنوه علي عليه السلام من الآخرين.

أم إنه كان - كما هو الضابطة - جامع القيادتين إلّا القتال التي تقتضي بسطة في الجسم كبسطة العلم، فلم يكن بتلك القوة الجسيمة التي تناسب قيادة الجيش؟.

أم وكان مبسوط الجسم أيضاً إلى بسط العلم ولكن الظرف آنذاك كانت

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٥ - القمي وروي أنه أرميا النبي فسلط الله عليهم جالوت وهو من القبط فأذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم واستعبد نساءهم ففزعوا إلى نبيهم وقالوا: سل الله أن يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله وكانت النبوة...

قضيتهُ أن يبعث النبي ملكاً من عنده بإذن الله، دون أن يقود هو الحرب بنفسه وكما أشار الإمام علي عليه السلام الخليفة عمر في حرب المسلمين مع الفرس ألا يخرج بنفسه قضية الحفاظ على قاعدة القيادة الزمنية، فإن غَلَب جيشُ الإسلام قيل هذه هي فعلة القيادة الجانبية فضلاً عن الأصيلة، وإن غُلبوا قيل لأن القائد لم يكن هو الأصيل، فمصلحة الحفاظ على سيادة القيادة كانت تقتضي آنذاك ألا يخرج الخليفة بنفسه إلى هذه الحرب الضارية الداهية الخطرة.

وقد يعني «ملكاً» هنا قائداً للجيش «وكان الملك في ذلك هو الذي يسير بالجنود والنبي يقيم له أمره وينبئه الخبر من ربه»[(١)].

فـ«الملك» لا تعني - ككل - رأس الزاوية في أية سلطة مهما كان هو الملك الأصل المعبر عنه بملك الملوك، فقد يملك الملك كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، وأخرى إحداهما دون الأخرى، وثالثة يملك قسماً من روحية أو زمنية، وقائد الحرب هو ملك لقسم الحرب من القيادة الزمنية على ضوء الروحية، وقد يؤيده أو يدل عليه ﴿مَلِكًا نُّقَٰتِلْ﴾ دون «ملكاً» بصورة طليقة تملّكه كل القيادة.

وعلى أية حال فليست الآية لتدل على أن الفصل بين القيادتين شرعة ربانية، بل الأصل هو الجمع بينهما، أو أن تكون القيادة الزمنية على ضوء القيادة الروحية وكما تطلَّب الملأ من بني إسرائيل نبيهم أن يبعث هو ملكاً يقاتلون تحت رايته في سبيل الله، دون أن ينتخبوه بشورى بينهم، ثم ونبيهم هذا لم يبعث قائد الحرب من عند نفسه وإنما سأل الله فأجابه فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٤٩ عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: وكان الملك . . . فلما قالوا ذلك لنبيهم قال لهم: إنه ليس عندكم وفاء ولا صدق ولا رغبة في الجهاد، فقالوا: إن كتب الله الجهاد فإذا أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلا بدّ لنا من الجهاد ونطيع ربنا في جهاد عدونا . . .

قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ . . .﴾ وإذا لا يحق لنبي أن يبعث هو بنفسه وخيرته قائد الحرب، فكيف يحق للشورى - وهي أدنى من النبي - أن تنتخب خليفة الرسول ﷺ الحامل للقيادتين بصورة طليقة، اللهم إلا شورى صالحة زمن الغيبة من النخبة الصالحة، لانتخاب شورى القيادة الروحية والزمنية.

ولا بدّ لهذه الشورى - كما بيّنا في آية الشورى - أن تجمع الرعيل الأعلى من الروحيين والساسة المسلمين في كل جنبات القيادتين، حتى تحلق هذه الشورى على كافة الحاجيات القيادية للمسلمين.

إذاً فلا مَلِك يحق له الملك على ملاءٍ إلّا انتصاباً من نبي الله، ولا يحق له أي انتصاب إلا بوحي من الله، ومن ثم انتخابٌ له كما للقائد الروحي زمن غياب الوحي والعصمة ممن لهم خبرة بالقيم القيادية في شرعة الله، فإن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] تجعل الإمرة - وهي أهم الأمور - مما لا تصح إلا بالشورى الصالحة كما فصّلت على ضوء آية الشورى.

وهنا لما يتقاضى الملأ نبياً لهم، لا يجاوبهم من فورهم في سؤالهم إلّا بعد أن يستوثق من صدق عزيمتهم تصميماً قاطعاً على النهوض بالتبعة الثقيلة، منداً بناقضي العهد منهم:

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا . . .﴾:

فالآن أنتم في سعة من ترك القتال ما لم يبعث لكم ملِك فيُفرض عليكم القتال تحت إمرته، وهذا يلمح بأن فرض القتال أو رجاحتها مربوط بحاضر شروطها ومن أهمها قائد الحرب، حيث يبدل «إن بعث الله لكم ملكاً» بـ «إن فرض عليكم القتال» مما يؤكد أن القتال لزام القيادة الصالحة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

وهذه كلمة لابقة لائقة بنبي، تأكداً لعزم وحزم من ملاءِه حتى تحلّ فريضة الله محلها اللائق، دونما إجابة سؤال فارغ عن تصميم.

هنا - وعند هذه التوبيخة الصارمة، والاستيثاقة الواثقة، ترتفع درجة فورتهم وحماستهم من فورتهم، استئصالاً لهامة أسباب التجافي عن فرض الله:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا . . . ﴾؟!

فقد تكون القتال مجردة عن مصلحة حاضرة ملموسة، فعنده التثاقل عنها، ولكننا ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ ننتظر - بكل عُجالة وانتظار - أمر القتال تحت قيادة صالحة للانتصار، فإن أعداءنا هم أعداء الله، وأعداء الله هم أعداءنا، فلنشمِّر عن كل ذيل لقتالهم في سبيل الله، وسبيل صالحنا المرضي لله.

ذلك! ولكن هذه الحماسة الثائرة الفائرة في ساعة الرخاء - رغم ظاهرها الجاد - لم تدم:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾:

وهنا تبرز السمة الوصمة الإسرائيلية الدنيّة في نقض العهد مهما كان ميثاقه لصالحهم في أنفسهم وأبنائهم! تفلتا عن الطاعة المطاوَعة، ونكوصاً عن التكليف، سمة على القيادة أن تتحذرها، لكيلا تقع في فخها تحسُّباً لواثق الوعد، الصارم لفظياً، العارم عملياً.

فهذه البشرية الشريرة الناقضة للعهود بهذه العجالة، حيث لم تخلص من الأوشاب، ولم تطهر من عقابيل، هذه! يجب أن تتحذر في القيادات الصالحة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. إن نبيهم - حيث تطلّب سؤالهم من الله - بعد أن أخذ موثقهم من الله - قال لهم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾:

وهنا يبرز أول لجاج في حجاج حول الملك طالوت، وقد بعثه الله بما ابتعثه منه ذلك النبي وهم أولاء الذين سألوه أن يبعث لهم ملكاً.

حجاجٌ لهم بقولة فارغة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ تكذيباً للرسول أم تجهيلاً لله في ذلك الابتعاث، مفضلين أنفسهم ككلٍّ عليه: من فقراء وأغنياء، وعقلاء وأغبياء! ومن ثم محتجين بأنه ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ وفيهم من أوتى سعة من المال، فكيف يملك فاقد المال أصحاب الأموال؟.

وعلّهم قدّموا أنفسهم أولاً ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ لأنهم من بني إسرائيل وطالوت من القبط؟ أو «كانت النبوة في ولد لاوي والمُلك في ولد يوسف وكان طالوت من ولد بنيامين أخي يوسف لأمه، لم يكن من بيت النبوة ولا من بيت المملكة»[1]؟ أم أيّاً كان فـ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾.

ومن ثم ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ أوسع منا حتى يبرر التغاضي عن الأحقية الوراثية، وكل ذلك غبش في خاطئة التصوّرات، حصراً للأحقية في ميزان الله فيما هم فيه يحصرون من وراثة أو مال، ولا صِلة لأحدهما بحق القيادة الحربية، وهنا الجواب الحاسم، الذي يحمل أسس الاصطفاء للملك في حقل القتال:

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾:

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٥ من حديث القمي المفصل حول القصة.

فالبسطة في العلم يفسح له مجال القتال الناجحة في كل أبعادها وشؤونها، فكم من وسيع المال وهو يجهل شؤون القتال، لا تفيد قيادته إلا زيادة في السقوط، ولو صرف كثير المال في سلاح الحرب، ولكنه ماذا يفيد السِلاح ما لم يكن للقائد صَلاح لشؤون الحرب.

ثم البسطة في الجسم يفسح له مجال التقدم في الهجوم، وأن يكون في مقدم الجيش، مما يستجيش كامل القوات الحربية للمحاربين، ويستأصل كل حزم وعزم عن المعاندين، فكم من بسيط العلم والمال قد يخسر القتال لِهُزاله فلا يقدم الجيش، أم إذا تقدم فهو بنفسه قد يسبب الانهزام.

فالبسطة في العلم في حقل القتال هو رأس الزاوية حيطة وخبرة بشؤون الحرب وتكتيكاتها الناجحة، والبسطة في الجسم زاوية ثانية هي تطبيق للأولى في نفس القائد، وتشجيع للجيش، وتطويع للأعداء.

فلا دور للمال أصيلاً في قيادة الحرب، فإنه يحصل حسب الحاجة ببسط علم القائد، كيف يحصل على مال، مهما كان تطوعاً من الجيش نفسه أم من سائر الشعب.

وكما لا دور لكون القائد من العائلة الرسالية أو الملكية، فإنما الدور كله كضابطة ثابتة هو لجناحي البسطة في العلم والجسم، فإنهما الناجحان كرأس الزاوية في هندسة الحرب، لا فحسب، بل وصاحب المال كثيراً ما يضِنُّ عن الخوض في المعارك الدموية لتعلقه بالمال، وصاحب الوراثة النسبية في حقل الرسالة أو الملوكية قد يضِنُّ عن أن يفدي بنفسه في المعارك، وأما الرجل الطليق عن ذاك المال وهذه الحال، الحليق على علم الحرب وبسطة الجسم، هذا هو الذي يسمح لنفسه الغوص في خضم المعارك الدموية على أية حال، ومن ثم، وبعد هاتين الزاويتين الهامتين في هندسة الحرب، فالله هو المصطفي من يشاء لما يشاء.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لا ما يشاءُه سواه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في اصطفائه كما في سواه «عليم» حيث يجعل رسالته، كما هو «واسع» في مصلحيات الحرب أن يصطفي من يصلح، وليس مضيقاً للصلوح في وراثة حال أو مال كما هم يضيقون «عليم» بنبود الصلاح في كل الحقول، فتلك - إذاً - قوائم خمس لحق الملك لطالوت، تزيف قالتهم القالة ضده.

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ فهو صفوة بينكم ولا يحق الملك بين شعب إلا للأصفى الذي يصطفيه الله.

٢ - ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

٣ - ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ حكمتان حكيمتان لذلك الاصطفاء، سناداً له.

٤ - ثم ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ فإنه ملكه وليس مُلككم، فهو الذي يصطفي له ويؤتيه لا أنتم حتى تعترضوا، ولا يشاء ذلك الإيتاء إلا لمصلحة مهما لم يكشف عنها النقاب وقد كشف، فـ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(١).

و«ملكه» هنا دون «الملك» مما يدل على اختصاص الملك المستخلف بالله كما الملك الذاتي مختص بالله، فقد يستخلف مَلِكاً رسولاً وغير رسول بالانتصاب كما في زمن الوحي، أو يستخلف ملكاً - في القيادة الروحية الزمنية أو كليهما - يستخلفه نخبة بين الشعوب المسلمة بشورى بينهم، ينتخبون الأليق للقيادة وهو الأشبه بالقادة المعصومين، نخبة للقيادة الصالحة لهم.

٥ - وأخيراً ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يتضيق بما قرر المُلك في بيت والنبوة في آخر، فلا يستطيع أن يحولهما عنهما إلى آخر، فقد حول الملك هنا عن بيت الملك اصطفاء آخر، كما حول النبوة عن بني إسرائيل فاصطفى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

محمداً ﷺ بأصفى نبوة منقطعة النظير بين كل بشير ونذير، ثم ولذلك الملك آية ربانية إضافة إلى مخمس البرهنة:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾:

تلك الخمس السالفة كانت آيات معرفية لمن يعرف الحق بالبرهان، وهذه السادسة خارقة إلهية تعرِّف حق الملك لغير العارفين بصادع البرهان، حيث تجمع ذوي البصائر والأبصار إلى تصديق الحق من الله في مُلك طالوت، فما هو - إذاً - التابوت؟ وما هي السكينة فيه من ربكم؟ وما هي ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾؟.

لقد ذكرت «التابوت» هنا وفي طه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[1] وشرحنا هناك تابوته.

ولأن «التابوت» معرف فكأنه هو التابوت الذي وضع فيه موسى الرضيع حفاظاً عليه من آل فرعون، كما وضع فيه موسى عصا هارون والمن ولوحي العهد كما في الرسالة إلى العبرانيين الإصحاح التاسع: «وأمر اللاويين أن يضعوا فيه التوراة بجانب عهد الرب فيه» كما في تثنية التوراة (٣: ٢٥).

وأصله «تابوه» من «تِباه» العبرانية، وهو صندوق الحفاظ على ما يحافظ عليه من ميت أو حيّ أما ذا من واجب الحفظ عن الضياع، وقد كانوا يضعون فيه الجنائز صيانة لها عن الضياع، فليس يختص بالأموات.

ثم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ مما تلمح أنه كان بعيداً عنهم فقيداً من بينهم إذ ضيعوه ولم يراعوه حق رعايته، فحين يريد الله لهم النصر بذلك الملك

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

المصطفى فحق لهم «أن يأتيهم التابوت» و«فيه ألواح موسى التي تكسرت . . . »[١].

فلقد شردهم أعداءهم من الأرض المقدسة - التي غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى عليه السلام - وسلبوا منهم مقدساتهم الممثلة في التابوت، الذي يحفظون فيه مخلفات أنبياءهم من آل موسى وهارون، فأصبح إتيان التابوت الغائب عنهم في تلك الفترة آية على ملك طالوت.

فهذه آية أولى، ومن ثم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إما لسابق الرحمة به حيث حمل فيه موسى، وجعلت فيه التوراة؟ أم لسابغ الرحمة الجديدة بعد سابقتيها أن جعل الله فيه السكينة الربانية، فالنظر إليه سكينة، وتقدمه في حرب الأعداء سكينة؟ أم فيه ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جامعه لهما، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهي بقية توراتية أماهية من ميراث النبوة السامية، و«العلم والحكمة»[٢] فإن الأنبياء لا يورثون للعلماء والمؤمنين إلّا علماً وحكمة.

وآية ثالثة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فإنه يأتي دونما حامل تبصرون، فكأنه هو الذي يأتيكم بلا حامل، ولكن ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إليكم، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم من مثلث الآية في التابوت ﴿لَأٓيَةً لَّكُمْ﴾ بارعة قارعة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بآيات الله البينات.

ولقد عبّر عن مثلث الآيات بـ«آية» لوحدة الدلالة والاتجاه، كما ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) نور الثقلين عن العباس بن هلال قال: سأل علي بن أسباط أبا الحسن الرضا عليه السلام فقال: أي شيء التابوت الذي كان في بني إسرائيل؟ قال: كان فيه ألواح موسى التي تكسرت والطشت التي تغسل فيها قلوب الأنبياء.

(٢) نور الثقلين ١: ٢٤٦ عن العياشي عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: رضاض الألواح فيها العلم والحكمة العلم الذي جاء من السماء فكتب في الألواح في التابوت.

﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ ولقد جمعت هذه الآيات الثلاث إلى البراهين الأربعة السالفة فاكتملت سبعة علّها تسكّر عليهم أبواب الجحيم السبع من نكراناتهم، ثم زيدت عليها آية ابتلائهم بنهر، وهذه ثمانية عدد أبواب الجنة الثمان، علّهم يدخلونها بكل طمأنة ورضوان، منتصرين في هذه المعركة الضارية الصاخبة كما «وهزموهم بإذن الله».

إن ﴿سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ هنا و«السكينة» في سائر القرآن هي اطمئنان القلب زيادة على طمأنة الإيمان، فهي من خلفيّات ولاية الله على المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(١) كما السكينة لا تنزل إلا على المؤمنين في المخاوف الشديدة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾(٢).

وهذه السكينة الإيمانية هي روح من الله(٣): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾(٤) روح ثان بعد الإيمان طليقاً حيث يشمل إيمان العصمة القمة، فهي فيه من سياجات العصمة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا...﴾(٥) وفي سائر درجات الإيمان سياج عليها كلاً على حده(٦) ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٣) المصدر عن المصدر عن يونس عن أبي الحسن الثالث قال: سألته فقلت جعلت فداك ما كان تابوت موسى وكم كانت سعته؟ قال: ثلاث أذرع في ذراعين، قلت: ما كان فيه؟ قال: عصا موسى والسكينة، قلت: وما السكينة؟ قال: روح الله يتكلم كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمهم وأخبرهم ببيان ما يريدون.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٦) بحار الأنوار ١٣: ٤٤٣ عن أبي جعفر عليه السلام قال: السكينة الإيمان (معاني الأخبار ٨٢).

(٧) سورة الفتح، الآية: ٢٦.

وهي النور الذي تمشون به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[١].

فإنما ظرف السكينةِ النورِ هو الإيمان والتقوى، فلا تنزل على غير المؤمنين المتقين كما لم تنزل على صاحب الرسول ﷺ ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا...﴾[٢] وعلّه كان حينذاك ممن أسلم ولمّا يدخل الإيمان في قلبه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

فقد جعل الله في هذا التابوت سكينة لمن رآه من المؤمنين، واحتف حوله وقدمه في النضال، بما فيه التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وكما النظر إلى الكعبة المباركة سكينة وطمأنينة إيمانية.

وهنا «آل موسى وآل هارون» علّهم موسى وهارون وخاصتهما، فإن في خروجهما هنا عن آلهما انتقاص لسكينة التابوت وبركته، لا سيما وإن التوراة هي بقية النبوة الإسرائيلية التي موسى هو رأس الزاوية فيها، أم هم آلهما[٣] فإن التوراة هي مما تركاه وفيها الكفاية عن سواها.

وقد تعم السكينة هنا - إضافة إلى حالة التابوت الخارقة للعادة، وإلى التوراة الموجودة فيه - البشارات المكتوبة فيه أن الله ينصر طالوت بجنوده.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٣) نور الثقلين ١: ٣٤٦ عن العياشي عن أبي الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] فقال: ذرية الأنبياء.

فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ عن سائر الشعب، وهم بطبيعة الحال من المختارين للجهاد الذي تهمه العدد الروحية وبالأسلحة الكافية، لا - فقط - العَدد أياً كانوا، وقد يروى «أن طالوت قال لقومه: لا ينبغي أن يخرج معي رجل يبني بناءً لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبغي إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممن اختار ثمانون ألفاً»[1] ولكن الكثير منهم - وهم نخبة - سقطوا في ابتلائهم بنهر وبقي القليل المحدد بعدد أصحاب بدر[2]. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ... قَالَ﴾ والقائل بطبيعة الحال هو طالوت قائد الجند، مهما كان قوله من قول نبيهم إذ لم يكن هو بنفسه نبياً.

والابتلاء هنا ذو بعدين مرضيين في تجنيد الجنود، ابتلاءً بتعود الصبر على الشدائد ومن أشدها العطش حالة الحرب، وهي تتطلب استعداداً بدنياً كما هو روحيّاً.

ومن ثم ابتلاءً بمدى اتباعهم لأمر القائد بما أمر الله، فلا خير فيمن لا

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٦: ١٧٩ روي أن طالوت...

(٢) الدر المنثور ١: ٣١٨ - أخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي وكان الصحابة يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: كان عدة أصحاب طالوت يوم جالوت ثلاثمائة وبضعة عشر.

وفيه تفسير الفخر الرازي ٦: ١٨٢ - إن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاز معه إلّا مؤمن».

يتصبر على الشدائد، ولا يُصغي إلى أمر القائد، وانفصاله خير من اتصاله، وفصله قبل العراك خير منه بعده، حيث الفصل الأخير هزيمة للجنود عن بكرتهم.

هنا تتجلى الحكمة الربانية في اختيار طالوت عليهم ملكاً كقائد الجنود، مقدماً على معركة صاخبة ومعه جيش من أمة مغلوبة قد عرفت الهزيمة في تاريخها المرير مرة بعد أخرى، وهي الآن تواجه جيش أمة غالبة سحقته قبل ردح في قتال ضارية.

إذاً فلا بدّ من استعداد وقوة كاملة كامنة في ضمير هذا الجيش، بإرادة تضبط الشهوات والنزوات، وتنضبط بقيادتها الصالحة الربانية لكي تجتاز الابتلاء قاهرة غالبة على من تغلبها، لذلك يبلوهم ذلك القائد الرصين الأمين بالعطاش ليعلم من يتصبُّر معه ممن ينقلب على عقبيه، ولقد اقتسموا في ذلك الابتلاء إلى ثلاثة أقسام: فمن شرب منه فليس مني كيفما كان شربه فإنه مخرج ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ و﴿لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ لا تعني - فقط - من لم يشرب منه، فقد لا يشرب ولكنه يطعم، وهو عوان بين «فليس مني - و- فإنه مني» برزخاً بين الأمرين، لا هو مخرج ولا هو في صميم الجيش.

ثم الاستثناء ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ يسمح الاغتراف لمن لم يطعمه، ولا يعني الشرب بالاغتراف، إنما هو - فقط - اغتراف دون شرب منه ولا طعم، فهم - إذاً - أربعة أقسام:

من شرب منه - من طعم منه - من لم يطعم واغترف - من لم يطعم ولم يغترف.

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إذاً فليسوا من القائد، ولينفصلوا عن الجيش الزاحف فإنهم بذور ضعف وخذلان، وهزيمة في الميدان، إذ ليست

الغلبة بضخامة العدد، فإنها وخامة إن لم يصلح العدد، إنما هي بالقلب الصامد مهما قلّوا وكثر العدو.

فهذه أولى الغربلات في الجيش بعد فصله عن القوم، وغربلة ثانية في الذين طعموا منه دون شرب، وثالثة، الذين لم يطعموا واغترفوا غرفة، وبقيت القلة القليلة بمن سوى الأولين المخرجين، وهم كل من لم يشربوا منه، وهم كلهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ مهما اختلفت درجاتهم الثلاث:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وهم - بطبيعة الحال - الذين طعموا منه دون شرب، ثم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ...﴾ وهم - بالطبع - الذين لم يطعموه، مغترفاً بيده، وبأحرى من لم يغترف حيث لم يقترب النهر لاغتراف فضلاً عن سواه[١].

﴿قَالَ... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أولئك هم الخاشعون المستعينون بالصبر والصلاة، الظانون في قلوبهم، القاطعون بعقولهم أنهم ملاقوا الله: هنا معرفياً وزلفىً، وهناك في الأخرى معرفة وزلفى هي الأخرى والأحرى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[٢].

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٨ في تفسير القمي روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: القليل الذين لم يشربوا ولم يغترفوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلما جاوزوا النهر نظروا إلى جنود جالوت قال الذين شربوا منه ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال الذين لم يشربوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا...﴾ [البقرة: ٢٥٠].
وفيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...﴾ [البقرة: ٢٤٩] فشربوا منه إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً منهم من اغترف ومنهم من لم يشرب فلما برزوا قال الذين اغترفوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا...﴾ قال الذين لم يغترفوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ...﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

فهنا الاستعداد الاستمداد من واقع الإيمان والإيقان، متخطياً كل الموازين والقيم الظاهرية التي يستمد سائر الناس من واقع حالهم العادية، حيث الإيمان ميزان جديد حديد شديد يتغلب على سائر الموازين والقيم المتغلبة في حسابات الناس.

أجل! وانها قاعدة رصينة في حقل الإيمان الأمين، للذين يظنون أنهم ملاقوا الله.

وكما نرى هذه الفئة القليلة العدد، الكثيرة العُدَد، قررت مصير هذه المعركة الصاخبة الضارية، حين ارتبطت برباط الإيمان بالله، والاطمئنان بنصر الله، تصبراً في النضال في سبيل الله وتطلباً - مع ذلك كله - إفراغ الصبر عليها من الله:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟﴾ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ في ميدان النضال بحرب عضال، وأحسوا عِدتهم وعُدتهم الكثيرة الكثيرة، أمام أنفسهم القليلة اليسيرة «قالوا» بكل كيانهم وإمكانهم قول القال والحال والفعال: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يكافح ما أفرغ علينا عدواناً وسِبراً، صبراً باستقامة دون فرار، بكل ثبات وقرار، صبراً تتكسر عنده كافة الصعوبات في ذلك النضال العضال، فيضاً منك يغمرنا ويعمرنا بانسباك سكينة وطمأنينة، احتمالاً لكل الأهوال والمشقات على أية حال.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في كل إقدام، أقدامنا في قلوبنا قبل قوالبنا سياجاً عن الانهزام والتفلّت من الميدان، أو أي تلفّت ومَيدَان، فلا تزل أقدامنا، ولا يضل إقدامنا، فنظل مرتكسين تحت الوطأة الحمأة اللعينة، وبالنتيجة:

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نصرة الإيمان على اللاإيمان، فقد بعثت

لنا ملكاً قائداً، وابتليتنا بنهر فجزنا بلاءَك ناجحين، فجز بنا هذه الحرب منتصرين، فإنا منك وإليك وفي قبضتك يا أرحم الراحمين.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾:

هزيمة عظيمة قليلة النظير لهؤلاء الكفار كما كانت لقريش في بدر من البشير النذير، والعَدد نفس العَدد، والعُدد نفس العُدد، فقد ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[1] ولم يكن يخلد بخلد أحد أن هذا الشاب القصير الصغير يقتل

---

(١) البحار ١٣ : ٤٥١ عن تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان داود وإخوة له أربعة ومعهم أبوهم شيخ كبير وتخلف داود عليه السلام في غنم لأبيه ففصل طالوت بالجنود فدعا أبو داود داود وهو أصغرهم فقال: يا بني اذهب إلى إخوتك بهذا الذي قد صنعناه لهم يتقوون به على عدوهم وكان رجلاً قصيراً أزرق قليل الشعر طاهر القلب فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض.

وفيه عن أبي بصير قال سمعته يقول: فمرّ داود على الحجر فقال الحجر يا داود خذني فأقتل بي جالوت فإني إنما خلقت لقتله فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيه حجارته التي كان يرمي بها عن غنمه بمقذافه، فلما دخل العسكر سمعهم يتعظمون أمر جالوت فقال لهم داود: ما تعظمون من امرأة فوالله لئن عاينته لأقتلنه فتحدثوا بخبره حتى أدخل على طالوت فقال: يا فتى! وما عندك من القوة؟ وما جربت على نفسك؟ قال: كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فأدركه فأخذ برأسه فأفك لحيته عنها فأخذها من فيه، قال فقال: ادع لي بدرع سابغة، قال: فأتي بدرع فقذفها في عنقه فتملأ منها حتى راع طالوت ومن حضره من بني إسرائيل فقال طالوت: والله لعسى الله أن يقتله به، فلما أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس قال داود عليه السلام أروني جالوت فلما رآه أخذ الحجر فجعله في مقذافه فصك بين عينيه فدمغه ونكس عن دابته وقال الناس: قتل داود جالوت، وملكه الناس حتى لم يكن يسمع لطالوت ذكر واجتمعت بنو إسرائيل على داود وأنزل الله عليه الزبور وعلّمه صنعة الحديد فلينه له وأمر الجبال والطير يسبحن معه قال: ولم يعط أحد مثل صوته، فأقام داود في بني إسرائيل مستخفياً وأعطي قوة في عبادته.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠ - أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول =

جالوت الكبير الكبير، وكما قتل الإمام علي عليه السلام عمرواً في الأحزاب، فاعتبروا يا أولي الألباب.

وهنا حكمة حكيمة ثانية في تغلب داود على جالوت هي أن قدر الله أن يتسلم هو الملك بعد طالوت فيكون عهداً ذهبياً لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل الطويل، جزاءَ انتفاضة العقيدة في هذه المرة اليتيمة في نفوسهم بعد ضلال طويل وانتكاس وبيل.

ولقد جمعت فيه القيادتان، الزمنية والدينية، بعد ما كانتا مفترقتين عن بعض، وورثه سليمان فيهما وبصورة أقوى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ يشاءه هو ويشاء الله كما يصلح ويكفي للقيادتين.

وهكذا يدفع ناس بعضهم ببعض بحكم التشريع والتكوين، أن يدفع النسناس بالناس بفضل إلّه الناس على العالمين، دفعاً عن فساد قاحل في أرض الحياة الإنسانية، ولسوف يدفع الله بالمهدي عليه السلام وأصحابه كل فساد في الأرض فتصبح كما الجنة كما وعد الله.

ومن دفع الله الناس بعضهم ببعض الدفع عن المسيء بالمحسن حفاظاً عن عاجل العذاب، فالمؤمن مدفوع به عن سواه بدفاع وبذاتية الإيمان وكلاهما مرتكنان على الإيمان.

وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء»[1] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا عباد ركّع وصبيان

= الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . . ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه أخرج ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»، فيه أخرج ابن جرير عن أبي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم.

(١) في نور الثقلين ١: ٢٥٣ في أصول الكافي متصلاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله ليدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وإن =

رَضَّع وبهائم رتَّع لصب عليكم العذاب صباً»[١] ذلكم المسلم، فبأحرى الأبدال وهم فطاحل المؤمنين الأفضال، وعلى حدّ المروي عن إمام الأبدال[٢].

= الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله عزوجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] فوالله، نزلت إلا فيكم ولا عنى بها غيركم.

أقول «كم» هنا هم كل الصالحين على طول خط الرسالات. المتمثل في تأويل الإمام عليه السلام بالشيعة الصالحة فإنهم أفضل مصاديقهم.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠ - أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . . ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه أخرج ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولده ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»، وفيه أخرج ابن جرير عن أبي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم.

(١) المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن تخلوا الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر».

وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون»، فيه أخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر فهم في الأرض كلها».

(٢) المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن تخلوا الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر».

وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون»، فيه أخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر فهم في الأرض كلها».

وفيه أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال أنهم لن=

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾:

﴿تِلْكَ﴾ العظيمة العزيمة ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تكوينية وتشريعية ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا حامل الرسالة الأخيرة، وحامل الرسالات كلها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ آيات بالحق، نتلوها عليك بالحق، بسبب الهدف الحق، ومصاحبة الحق، ولكي تهدي العالمين إلى صالح الحياة الإيمانية بمكافحة دائبة ضد الظلم والطغيان، جهاداً دائباً في فسيح الزمان ووسيع المكان، حفاظاً على صالح الحياة طرداً لفاسدها ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بهذه الرسالة السامية، التي تحقق كل الرسالات الإلهية.

= يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة»، قالوا يا رسول الله ﷺ فبم أدركوها؟ قال: بالسنحاء والنصيحة للمسلمين، وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: إن الله عزَّ وجلَّ في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرئيل عليه السلام ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء، قيل لعبد الله بن مسعود كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستسقون فيسقون ويسألون فينبت لهم الأرض ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء.

وفيه أخرج أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، فيه عن النبي ﷺ أن الله يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس السنن وينفي عن النبي ﷺ الكذب.

وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي وابن عساكر عن علي عليه السلام سمعت رسول الله ﷺ يقول: الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب - وفي لفظ ابن عساكر - ويصرف عن أهل الأرض البلاء والغرق.

وفيه أخرج الخلال في كتاب كرامات الأولياء عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن الله ليدفع عن القرية بسبعة مؤمنين يكونون فيها.

﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ عبرة لأولي الألباب عَبر الزمان والمكان ما عاش إنس أو جان، لا سيما آية الدفع، ولكي تصغي إليها آذان صاغية من هذه الأمة المرحومة، فتعيش كل حياتها دفاعاً عن الحق، فلا تتأسن الحياة وتتعفن بالتكاسل والتخاذل من هؤلاء الذين حمِّلوا راية الصلاح والإصلاح، ولا يظنوا أن الإصلاح إنما هو بيد صاحب الأمر، وأما الذين قبله فليس لهم أمر إلا السكوت والخنوع أمام السلطات الكافرة.

ومن دفع الله الناس بعضهم ببعض أن يدفع بعض الناس ببعض إلى صالح الحياة الجماعية وكما تعنيه آية السخري: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

فإن في تسخير الفاقد لشيء الواجد له اكتمالاً لنفسه فيما فقده وإكمالاً لغيره فيما يحتاجه، إن في ذلك تجاوباً في الحصول على حاجيات الحياة، إذ لا يتمكن أي أحد مهما بلغ من القوة والعبقرية أن يكون مستغنياً في الحياة عن سواه، مستقلاً فيها، اللّهم إلا مستغِلاً ومستَغلاً تكافئاً في مختلف الحاجيات الحيوية.

هذا - ولكن الدفع هنا معدًّى بـ «إلى» المقدرة، وفي الأولين بـ «عن»: دفعاً عن المحاظير، أو دفعاً إلى المصلح، الجامعان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهما شمل النهي إخفاق أثر المنكر بواقع المعروف من الصالحين كما في ثاني المحتملين الأولين.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾:

الصلة البارزة بين هذه الآية وما قبلها قد تكون بـ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إذ قد تخيّل أن الرسل على سواء في فضائل الرسالة وأنت منهم، ولكنه لا، بل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ في الفضائل الذاتية علمية وروحية معرفية، في الفضائل الدعائية وما حملوه من شرعة الله، فليسوا هم على سواء لأنهم - ككل - رسل الله، بل فيهم تفاضل كما في سائر الناس، وكل ذلك بما فضل الله، تفضيلاً فضيلاً بحكمة بارعة ربانية دونما فوضى جزاف، فـ:

﴿تِلْكَ﴾ البعيدون عن الآفاق البشرية في كل الأبعاد الروحية والعملية بسناد وحي العصمة عصمة الوحي.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ كل الرسل، تحليقاً على كافة رجالات الرسالات، بازغة من آدم عليه السلام وخاتمة إلى خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم - وبينهما متوسطون - ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ضابطة إجمالية في ذلك التفضيل الفضيل دونما ذكر لمادة الفضيلة إلا لمحة إنها في فضائل الرسالة، ولا ذكر لمن حملها، وإنما كل ما هنا ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ليذهب إلى خَلَد السامعين كل مذهب في مفضَّل بفضله.

ثم يذكر أمثلة ثلاثة لذلك التفضيل، منها مثالان في موسى والمسيح عليهما السلام، كلٌّ يحمل فضيلة واحدة على من يفقدها، فموسى ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ -: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1] دونما وسيط ملك الوحي، مهما كان يحمله وسيط نار النور في الشجرة إماهية، والمسيح ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من بيّنة الولادة العجيبة وتكلمه في المهد صبياً، ثم البينات

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

الرسالية الأخرى كما الرسولية، وهو منقطع النظير في هذه المجموعة بين كل بشير ونذير.

ثم المثال الأجل الأمثل والأفضل، الذي لا يُدانى، ولا يساوى أو يُسامى في حقل الرسالة الإلهية، من لا تحمل فضائله هذه القصيرات من الكلمات، من ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ - و - ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ لا درجة واحدة كالموسى والمسيح وأضرابهما عليهما السلام ولا على بعض دون بعض، وكما لإبراهيم فضل عليهما في غير ما ذكر لهما، بل ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على الكل دون إبقاء ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في كل الأبعاد الرسولية والرسالية مادة ومُدة، عِدة وعُدة، فضائل ذاتية ورسالية وكتابية وفي الشرعة القرآنية فـ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تجمع بعض التفضيل - كتفضيل لبعض على بعض، كما في المذكورين وغيرهما إلى كل التفضيل على الكل كما هنا ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ وليس درجة كما فيهما، أو على بعض كما هما، وإنما «رفع» رفعاً شاملاً لم يعبر عنه بتفضيل ﴿بَعْضُهُمْ﴾ الخاص بواحد منهم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ دون «على بعضهم درجات». ألا وذلك البعض هو:

«أول العابدين»: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1]، إذاً فكل المرسلين هم في الرتبة التالية لأول العابدين، و«رحمة للعالمين»: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] ولا نجد هذه الرحمة العالمية في الذكر الحكيم لمن سواه من المرسلين![3] لا فحسب بل هو أفضل الخلق أجمعين

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.
(٣) في إنجيل القديس برنابا الحواري (٤٣ : ١٣ - ٣١) يقول: «(١٣) الحق أقول إن كل نبي متى جاء إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله (١٤) ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه (١٥) ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم بيده (١٦) فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه (١٧) وسيأتي بقوة على الظالمين=

وكما قال ﷺ: «ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني» فقال علي عليه السلام: «أفأنت أفضل أم جبرئيل؟ فقال: يا علي إن الله تعالى فضّل أنبياءه المرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من بعدك وإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا[1]... ورسولاً إلى النبيين أجمعين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قال: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2] وكما يروى عنه ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي» و«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»، وأطهر المطهرين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3]، وإن كتابة خالدٌ مهيمن لما بين يديه فهو كذلك مهيمن على الرسل بين يديه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[4].

وأنه خاتم النبيين، لا يصدَّق نبي إلّا بختمه وتصديقه كما لا يبعث نبي ولا رسول بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[5].

وإن معجزته الخالدة تفوق معجزاتهم في كمها وكيفها، فأما كمها فقرابة ألفين ومائتين في القرآن نفسه إذ تحدى بسورة من مثله وأقصر سورة منه وهي

= (١٨) ويبيد الأصنام بحيث يخزي الشيطان (١٩) لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً هكذا سيفعل نسلك ... (٣١) صدقوني لأني أقول لكم الحق: «إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق».

(١) نور الثقلين ١: ٢٥٤ في عيون الأخبار بإسناده إلى علي بن موسى عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

الكوثر تحمل آيات ثلاث، فكل ثلاث معجزة خارقة، ثم وكيفها إنه دائم دوام شرعته إلى يوم القيامة غير فاشل في حجته ولا منسوخ، بل يزداد بهوراً وظهوراً على تقدّم العقل والعلم.

ولئن كلم الله موسى تكليماً في حجاب النور النار من الشجرة المباركة على الطور، فقد كلم الله محمداً ﷺ بلا أي حجاب عند السدرة المنتهى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[1] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[2].

ولئن لم يستطع موسى أن يرى ربه بقمة المعرفة إذ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فقد رآه محمد ﷺ عند السدرة بنور اليقين: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[3] - ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[4].

قد يروى عنه ﷺ في معترك الآراء فيمن هو أفضل - قوله: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل شافع وأنا أوّل مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل من يحرك حلقة الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[5].

قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، و«لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا، وقال: أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٥.
(٢) سورة النجم، الآية: ١٠.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة النجم، الآية: ٩.
(٥) تفسير الفخر الرازي ٦: ١٩٧ عن ابن عباس قال جلس ناس من الصحابة يتذاكرون فسمع رسول الله ﷺ حديثهم فقال بعضهم عجباً إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة تكليماً، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج رسول الله ﷺ وقال: قد سمعت كلامكم وحجتكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله...

إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»(١).

ولقد تطامن عيسى ابن مريم صاحب البينات والمؤيد بروح القدس أمام محمد ﷺ وكما ينقله عنه القديس برنابا الحواري في إنجيله بكل تبجيله: ومع أني لست مستحقاً أن أحل سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه.

٢ - فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين: لا تزعج نفسك يا يسوع قدوس الله فإنّ هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى.

٣ - لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني المقدس بإصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله.

٤ - فقال حينئذٍ يسوع إن كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور.

٥ - ولكن يعوزني في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فيَّ وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم.

٦ - وإن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحاً.

٧ - أجاب الكاهن: أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله.

٨ - فأجاب يسوع لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله.

٩ - ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزنني.

١٠ - لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى إنجيلي...

١٣ - فقال الكاهن ماذا يسمى مسيّا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٦: ١٩٧.

١٤ - أجاب يسوع إن اسم مسيّا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي.

١٥ - قال الله: اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً، ومن يلعنك يكون ملعوناً.

١٦ - ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى إن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً.

١٧ - إن اسمه المبارك «محمّد».

١٨ - حينئذٍ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: «يا الله أرسل لنا رسولك» (٩٧: ١ - ١٨)(١).

ذلك، وكثير أمثاله، كما يقول موسى الذي كلمه الله تكليماً: «هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته. ١ - وقال: الله من سيناء جاء، تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران وورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية»(٢).

فهذه ظهورات ثلاث ربانية رسالية، من سيناء موسى ومن ساعير عيسى ومن فاران محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وفي الأخيرة ميزة التلعلع تشريفاً له بآلاف المقدسين، وإن شريعته نارية قوية أقوى من كل شرعة إلهية(٣).

أجل فقد ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ على من كلم الله وأوتي البينات وأيد بروح القدس، حيث أوتي ما أوتينا وأتوا وزيادة خالدة تحلق على كافة

---

(١) لاطلاع أكثر راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

(٢) (التثنية ٣٣: ١ - ٢).

(٣) لاطلاع أكثر راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

الدرجات الرسولية والرسالية، بهيمنة عالية متعالية عليها، لحدٍّ يعبر عنه بالرسول دون سائر الرسل، كأنه هو الرسول فقط، ويعبر عن وحيه بـ ﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ حين يعبر عن سائر الوحي بالوصية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾(١)!.

ويعبر عنه بين الشهود الرساليين بشهيد الشهداء وبكتابه تبياناً لكل شيء: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، كما وهو رسول إلى النبيين: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ...﴾(٣)، وحين يقسم الله بعمر لا يقسم بينهم إلا بعمره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٤).

ذلك! وقد ارتسمت للبشرية في هذه الرسالة الطليقة، الحقيقة بالخلود، هندسة البناء لكل ما يتبناه ما طلعت الشمس وغربت، إعلاناً صارحاً صارخاً بذلك المنهج الواسع الذي يسع كل النشاطات البشرية - أماهية - المقبلة، إماماً لها على طول خطها إلى يوم الدين، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ...﴾.

«لو» هنا تحيل مصلحياً تلك المشيئة التكوينية المسيرة لترك الاقتتال من بعد الرسل، فالرسالة الإلهية هي رمز الوحدة الدينية القاضية على كل الخلافات الضارية، المنتهية إلى الاقتتال.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

فلو شعرت البشرية على ضوء البينات الرسالية أن الرسالة واحدة الاتجاه، لم تختلف في شرعة الله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾[1] ولم تترك هذه الشرعة إلى سواها من مختلفات مختلقات، ولكنها اختلفت فيها بعد ما شرعت إيماناً وكفراً، ثم الذين أوتوه اختلفوا فيها بغياً بينهم، فنشبت في هذه الخلافات والاختلافات اقتتالات: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ كفراً بأصل الرسالة، أم كفراً جانبياً بمادة الرسالة تحريفاً لها وتجديفاً، أم صموداً على رسالة منسوخة بأخرى.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ بأن يجعل لهم - ككل - شرعة واحدة، ثم يحملهم عليها إزالة لاختيارهم، ولكن الشرعة الواحدة قليلة الابتلاء: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[2].

وكما والشرعة المسيّر إليها فاقدة الابتلاء، والدنيا هي دار التكليف والابتلاء: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من صالح العباد في أصل الشرعة وعديدها، وفي عدم التسيير على ترك القتال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾:

إن الإنفاق من رزق الله هو قضية الإيمان، و﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ تعم كلّما يمكن إنفاقه ويحل من مال أو حال: إرشاداً عقلياً أو علمياً، أم أي إنفاق صالح دون إفراط ولا تفريط.

﴿أَنفِقُوا۟... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ وهو يوم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

انقطاع حياة التكليف موتاً فردياً إلى البرزخ، أم موتاً جماعياً إلى القيامة الكبرى، ثم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مهما كان كفر العقيدة كمن يكفر بالإيمان، أم كفر العمل كمن لا ينفق من رزق الله.



﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

الآية الأولى - التي تحمل الكرسي - هي فقط آية الكرسي، فاسمها آية الكرسي حيث الكرسي سمتها البارزة المنقطعة النظير في آي الذكر الحكيم.

إنها «أعظم آية في كتاب الله»[1] و«سيد آي القرآن»[2] اللّهم إلا البسملة فإنها جملة للسبع المثاني وهي عِدل القرآن العظيم.

---

(١) الدر المنثور ١ : ٣٢٢ - أخرج جماعة عن ابن أسقع البكري أن النبي ﷺ سأله إنسان أي آية في القرآن أعظم فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] حتى انقضت الآية، فيه أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أتدرون أيّ القرآن أعظم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾، وأخرج مثله الدارمي عن أيفع بن عبد الله الكلاعي عنه ﷺ، وأخرج ابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب قال: . . . وذكر مثله.

(٢) المصدر أخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول =

فآية الكرسي بعد البسملة هي سيدة القرآن وأعظمه وكما يروى عن نبي «القرآن سيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسي إن فيها لخمسين كلمة في كل كلمة خمسون بركة»[١] كما أن «لكل شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسي»[٢].

وهذا وذاك لا يعنيان من المفضل عليه حتى البسملة التي هي صورة مجملة وضاءة عن القرآن العظيم، ثم وهي ربع القرآن[٣] والبسملة كله، وكل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر وأقطع، فآية الكرسي كسائر الآي لا بدّ وأن تبدأ بالبسملة وإلّا فهي أبتر وأقطع.

ولأنها «آية الكرسي» حسب ما تحويه آية وما تسميه الرواية، ولا سيما المحددة لكلماته بخمسين كلمة وهي هيه، فهي - إذاً - آية واحدة دون الآيتين بعدها، لا في اسمها وسمتها، ولا في فضلها وسائر ميزاتها وأحكامها فرضاً أو نفلاً، خلافاً لمتهافت الرواية[٤] والفتوى[٥]، وقد تكفيها

= الله ﷺ قال: سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرء في بيت فيه شيطان إلّا خرج منه: آية الكرسي، وفيه أخرج ابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في الشعب عن علي عليه السلام مثله.

(١) مجمع البيان ١: ٣٦٠ و٣٦١، الأوّل عن علي عليه السلام سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الكلام القرآن...».

(٢) تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٢٣ - أخرج أحمد وابن الضريس والهروي في فضائله عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لمن قال له: «ليس عندي ما أتزوج - أليس معك آية الكرسي؟ قال: بلى قال ﷺ: ربع القرآن فتزوج».

(٤) نور الثقلين ١: ٢٦٢ في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وآخرها وهو العلي العظيم والحمد لله رب العالمين وآيتين بعدها.
أقول: آخرها وهو العلي العظيم، دليل وحدتها، ثم الباقية تخالف وحدتها فهي متهافتة، أو يقال والحمد لله رب العالمين هي دليل ختامها بالعظيم، وآيتين بعدها تعني أنهما ليستا منها.

(٥) في كتاب العروة الوثقى ووسيلة النجاة للسيدين العلمين اليزدي والأصبهاني رحمهما الله تعالى. =

نفس الآية الشاملة للكرسي ومتواترة الرواية المعبرة عنها بـ«آية الكرسي» دون «آيات الكرسي» أنها - فقط - آية واحدة وليست ثلاث، وكما حددت في حديث الرسول بخمسين كلمة وليست إلّا لها وحدها، كما ونصّ أحياناً على آخرها ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[(١)].

وفي مستفيض الحديث إنها تقرأ للأفراح والأتراح، من فرح الزواج وما أشبه[(٢)] وترح المرض والعدو وهجمة الشياطين[(٣)].

ومن شأنها في الأفراح «إن رسول الله ﷺ لما دنا ولاد فاطمة عليها السلام أمر أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتيا فاطمة فتقرءا عندها آية الكرسي وإن ربكم الله وتعوذاها بالمعوذتين»[(٤)].

= والأحوط قراءة آية الكرسي إلى ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ولو أتى بغير الكيفية المذكورة سهواً أعاد ولو كان بترك آية من انا أنزلنا أو آية من آية الكرسي.
أقول: ومن الغريب: «آية من آية الكرسي» وهي واحدة، ثم لا حجة على هذا الاحتياط لزوماً أو ندباً، فالقوي هو الاكتفاء بها وحدها.

(١) في أمالي الشيخ الطوسي رحمه الله بإسناده عن أبي أمامة الكاهلي أنه سمع علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: ما أرى رجلاً أدرك عقله الإسلام أو ولد في الإسلام يبيت ليلة سوادها، قلت وما سوادها؟ قال: جميعها - حتى يقرأ هذه الآية - فقرأها إلى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: فلو تعلمون ما هي - أو قال ما فيها - ما تركتموها على حال أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت...

(٢) نور الثقلين ١: ٢٥٧ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه: وإذا اشتكى أحدكم عينه فليقرأ آية الكرسي وليضمر في نفسه أنها تبرأ فإنه يعافى إن شاء الله فيه ٢٥٦ في الخوائج والجرائح روي عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال قال أبو عبد الله عليه السلام إذا لقيت السبع ماذا تقول؟ قلت: لا أدري، قال: إذا لقيته فاقرأ في وجهه آية الكرسي وقل: عزمت عليك بعزيمة الله ورسوله وعزيمة سليمان بن داود وعزيمة علي أمير المؤمنين والأئمة من بعده عليهم السلام تنحت عن طريقنا ولم تؤذنا فإنا لا نؤذيك.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الدر المنثور ١: ٣٢٥ - أخرج ابن السخا في عمل اليوم والليلة من طريق علي بن الحسين عن أبيه عن أمه فاطمة عليها السلام أن رسول الله ﷺ لما دنا ولادها...

ويروى عن خليفته علي عليه السلام إنه «قال: ما أرى رجلاً أدرك عقله في الإسلام يبيت حتى يقرأ هذه الآية ولو تعلمون ما فيها لما تركتموها على حال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش ولم يؤتَها نبي قبلي، فما بتُّ ليلة منذ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أقرأها»(١).

والكلمات الخمسون من آية الكرسي تشتمل على أربعة عشر من أسماء الله وصفاته، عشراً ثبوتية(٢) وأربعاً سلبية(٣) وبين الأولى الاسم الأعظم الظاهر «الله» والباطن «هو» والصفات الذاتية الثلاث: الحياة والعلم والقدرة، فالأولى من الحي، والأخريان منه والقيوم، كما الوسطى من «يعلم» بعد «القيوم» حيث القيومية تجمع قوام العلم والقدرة، كما العلم لزامه القدرة.

ومن صفات الفعل المَلِكية والمالكية المطلقتان، المستفادتان من ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حيث اللام تجمعهما ككل.

والشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وسعة قضاءه وتدبيره بعلمه وقدرته وحكمته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ثم العلي العظيم.

وقد ذُكِر الله في القرآن كله (٢٦٩٧) مرة، وأقل منها بكثير «هو» ثم «الحي» خمس مرات و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ثلاثاً و«له في السماوات والأرض»

(١) مر تخريجها في الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.
(٢) وهي: الله - هو - الحي - القيوم - له . . . - من ذا الذي . . . - يعلم . . . - وسع . . . - العلي العظيم.
(٣) وهي: لا إله إلا هو - لا تأخذه سنة - ولا نوم - ولا يحيطون.

وانحصار الشفاعة به وبإذنه، وسعة علمه المطلق مرات عدة، وليس كرسيه إلّا هنا و﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ ثمان والعظيم خمس مرات.

وقد يكون «الله» هنا هو المبتدأ لكل الأخبار التالية، كما هو مبتدأ لكل ومبتدأ وخبر واقعياً، فـ«الله»: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ «الله الحي» لا حي إلّا هو «الله القيوم» لا قيوم إلّا هو «الله لا تأخذه سنة ولا نوم» ليس إلّا هو «الله من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» ليس إلّا هو «الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» ليس إلّا هو «الله لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» ليس إلّا هو «الله وسع كرسيه السماوات والأرض» ليس إلّا هو «الله لا يؤده حفظهما» ليس إلّا هو «الله العلي» ليس إلّا هو «الله العظيم» ليس إلّا هو، فإن كل هذه من اختصاصات الربوبية الوحيدة المنحصرة بالله، المنحسرة عما سواه.

وقد يعني ﴿ٱللَّهُ﴾ لأنه الله فـ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولأنه «لا إله إلا هو فهو» ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ليس إلّا هو ولأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فـ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وهكذا حتى ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كل سابقة بسابغة برهان دليل على لاحقتها.

و﴿ٱللَّهُ﴾ - كما فصلناه في فاتحة الكتاب - علم للذات المقدسة كما قرره الله فـ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[١]؟ وليس مشتقاً من شيءٍ كما هو ليس مشتقاً من شيءٍ، وكما أن ذات الله باللامحدودية الحقيقية دليل واقعي على وحدته، كذلك اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ دليل وضعي دلالي على وحدته إذ لا سمي له، فقد أجمع لفظياً ومعنوياً على أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم ﴿هُوَ﴾ اسم مكنى مشار إلى غائب[٢] وهو هنا الهوية الغيبية المطلقة

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٢) في توحيد الصدوق عن الباقر عليه السلام «هو» اسم مكنى ومشار إلى غائب فالهاء تنبيه عن معنى ثابت والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما إن قولك هذا إشارة إلى الشاهد عند الحواس...

أقول: لتفصيل البحث راجع إلى الفرقان ٣٠ سورة التوحيد.

لا كسائر الغيَّب الذين هم في الحق حضور وليس غيابهم إلا عن قصور، إذاً فـ«لا هو إلا هو»(١)، لست أقول إن الاسم الأعظم منحصر في ﴿ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ﴾(٢) فإن هناك أسماءً أخرى هي من الأعظم لفظياً كالرحمن - الرحيم - القيوم - العلي - العظيم أما شابه، وأخرى عينيّة: ذاتية كالصفات الذاتية الثلاث، أم سواها كالرسول الأعظم والمعصومين من آله الطاهرين.

ومن اللطيف الطريف إن لم يأت الاسم بلفظ الصفة في القرآن ولا مرة يتيمة، ولكيلا يخيَّل إلى سقاط الأفكار أنها زائدة على الذات المقدسة، أم هي تختلف مع بعض.

وحين يأتي ذكر الصفة فليس إلا تنديداً مديداً بمن يصفونه إلا عباد الله المخلصين، فإنهم لا يصفونه إلا كما وصف نفسه، اعتباراً بتحبير اللغات عن وحدة الذات.

ذلك، وأما أسماؤه الحسنى - الشاملة للذاتية والفعلية، العينية والخارجية - نجدها في آيات عدة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(٣) ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٤).

ولا يعني اسم الله - كصفته - لفظَه، إلّا تدليلاً على واقع معناه الحق وهو العينية الإلهية كما في أسماء الذات، وأفعاله كما في أسماء الفعل، وكلها حسنى وأفضلها وأجمعها هو «الله - هو» حيث يجمعان الذات المقدسة، وإليها صفات الذات وصفات الفعل.

---

(١) في دعاء الإمام علي عليه السلام: يا هو يا من لا هو إلا هو.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١١.

وليس الخلاف في «هل أن أسماء الله من ذاته أم هي زائدة عليها»؟

حول لفظية الأسماء، كما الخلاف في عبادة الاسم دون المسمى: إلحاداً! أو الاسم مع المسمى: شركاً، وإن حق التوحيد هو عبادة الذات المتصفة بعينية الصفات وفعليتها، دون زيادة لصفات على ذات ولا صفات الذات بعضها على بعض، كما وصفات الفعل مخلوقة له كسائر الخلق[1].

وفصل القول وحقه في آية الكرسي أنها جمعت جملة تفصيل ما في القرآن من توحيد الله في كونه: رحماناً - رحيماً - حياً - قيوماً - حكيماً - خالقاً - عليماً - محيياً - مميتاً - ملكاً - سلاماً - مؤمناً - مهيمناً - عزيزاً - جباراً - متكبراً - له العرش وله الأسماء الحسنى.

ثم ﴿ٱللَّهُ﴾ يكفى كمجمل البرهان على توحيد الذات والأفعال، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيداً للصفات مع الذات، و﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ توحيداً لأفعاله، وهكذا تكون آية الكرسي سيدة القرآن، ورب موحد فاز بتوحيد الذات دون الأفعال والصفات، أم وتوحيد الصفات دون الأفعال، ومثلث التوحيد - عقيدياً - هو ذروته وقمته أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولا مؤثر في الوجود إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، مع الحفاظ على الاختيار - أمراً بين أمرين - في اختيارية الأفعال، حيث اللااختيار في مقدمات لها وتَقدِمات لا ينافي الاختيار[2].

فتعدد صفات الذات واقعياً يعدّد الذات، سواء أكان ذلك بتعدد الذات

---

(١) يقول جم غفير من المتكلمين بزيادة صفات الذات على الذات، وجمهور الفلاسفة بالعينية في الذات وهذه الصفات، وآخرون يوحدون صفات الفعل مع الذات كصفات الذات، وفرقة رابعة تنفي كل الصفات عن الذات خوفاً من قولة الزيادة وجهلاً بموقف الصفات.

(٢) البحار ٤: ١٦١ ح ٦ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث التوحيد للمفضل . . . لم يقدروا على عمل ولا معالجة مما أحدث في أبدانهم المخلوقة إلا بربهم فمن زعم أنه يقوى على عمل لم يرده الله عزوجل فقد زعم أن إرادته تغلب إرادة الله تبارك الله رب العالمين.

أن يحمل كلٌّ واحدةً من الصفات، أم بوحدة الذات بعديد الصفات، حيث العروض تركُّب وإن واحداً فضلاً عن عديد الصفات العارضة على الذات!.

بل قد يكون الموصوف الواحد بعديد الصفات الزائدة على الذات هو أضل سبيلاً من عديد الذات بالصفات، فهنا قد تكون كل ذات بصفتها واحدة دون عروض ولا يمانعه إلّا استحالة تعدد الذات، وهناك الذات الواحدة مركبة مع الصفات وهي في نفسها خلو عن الصفات مفتقرة إليها، فهي أبعد عن الحق وأضل سبيلاً، فلو كانت أسماؤه تعالى وصفاته متعددة الحقائق في حين أنها عين الذات فذلك تناقض بيّن بين الذات والصفات!.

ولو أنها عارضة على الذات فنفس عروضها حدوث وإن كانت في أنفسها واحدة! ولو كانت مركبة مع الذات منذ الأزل فحدوثٌ - أيضاً - قضيةَ التركب مع الأزل وهو تناقض بيّن!.

ولو كانت مركبة مع الذات بعد الأزل فحدوث مكرور!.

ولو كانت كل واحدة منها عارضة على ذات تخصها فتعدد الذات بعديد الصفات!.

ولو كانت هي عين بعضها البعض ولكنها عارضة على الذات منذ الأزل أم بعده فتركب وحدوث على أية حال.

فليست أسماؤه وصفاته الذاتية إلا تحبيرات اللغات تعبيرات عن ذات واحدة من جميع الجهات والحيثيات دونما أي تعدد من عارض ومعروض أما هو من عديد التعددات.

وتوحيد الأفعال هو لزام قيوميته تعالى وهي قمة الاستقلال في القيام بذاته وعلى كل نفس، فلو كان في الكون فاعل سواه باستقلال، أو شركة واقعية، لم يكن هو قيوماً على الإطلاق، ولكنه قيوم لا فاعل - في الحق - إلّا هو، اللهم إلا فاعلاً بحوله وقوته كما يناسب الاختيار في الفعل المختار.

وهكذا نجد الترتيب الرتيب بين توحيد الذات والصفات والأفعال في ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[١] وذلك ترتيب المعرفة التوحيدية، ثم العبودية هي بعكس الترتيب، بادئة من الأفعال إلى الصفات إلى الذات.

ثم ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تستغرق سلب الألوهية لغير الله، وإيجابها لله، فليس المقدر هنا أدبياً «كائناً أو موجوداً» لأنه يحيل وجود إله قبل أو بعد، ومستغرق السلب يحيل أية ألوهية استئصالاً لإمكانيتها أياً كان وأيان.

فلو كان المقدر «كائناً» اختص السلب بالحال، لا والماضي والاستقبال، ولو عمّ مثلث الزمان لم ينف وجود إله قبل الزمان وبعد مضي الزمان، ولكنه يعم إمكانية وجود إله أياً كان وأيان، فإنه واحدٌ لا عن عدد ولا بتأويل عدد كما هو واحد لا بعدد[٢] نفياً لإمكانية أي عدد، دون فعليته أم سابقته ولاحقته.

إنه واحدٌ فوق الوحدة العددية: «واحد لا بعدد» إذ لا يتعدد وكل واحد يتعدد أو بالإمكان أن يتعدد.

وواحد لا عن عدد، لم يكن عدداً ثم تفرد كما في بعض الوحدات الإمكانية.

وواحد لا بتأويل عدد، أولاً إلى عدد سابق ثم تفرد، أم أولاً إلى عدد لاحق وهو الآن موحَّد، فلا تعدد له زمنياً إذ هو خالق كل زمني وزمان، ولا ذاتياً، فواقع العدد وإمكانيته مسلوبان عن ذاته وصفاته وأفعاله، لا يتغير بانغيار المخلوقين، كما لا يتحدد بتحديد المحدودين، فهو سرمدي الواحدية بالأحدية الطليقة الحقيقة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) ذلك مثلث التوحيد المذكور مكرراً في الخطب التوحيدية للمعصومين عليهم السلام.

فـ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[١] كأول تلميذ لرسول الهدى ﷺ علي أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له توحيدية:

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده. . .»[٢].

وليست كلمة التوحيد - فقط - لفظة تقال، فإنما هي القول بها في مقال وحال وفعال في كافة الأحوال، وهكذا تكون حصناً لمن دخلها، حصناً لفطرته عن تفطّرها، ولعقله عن جهله، ولصدره عن ضيقه، ولقلبه عن تقلبه، وللّبه عن تحرفه، ولفؤاده أن يتفاد إلا بنور المعرفة، ولحواسه وأعضائه إلا في خدمة الله وعبادته، وعباده، حيث تبدأ كلمة التوحيد من الفطرة إلى العقل إلى الصدر إلى القلب إلى اللّب إلى الفؤاد، شاملة كل جوانب الروح وأعماقه، ظاهرة في كل الحواس والأعضاء دون إبقاء، فيصبح الموحد بكل كونه وكيانه داخلاً في حظيرة التوحيد لحضرة الواحد الحق المتعال.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

﴿الْحَيُّ﴾ فلا حي - كما لا إله - إلا هو: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٣]

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) من الخطبة الأولى في النهج حسب رواية الشريف الرضي رحمه الله تعالى.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[١] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[٢] وكل حي يموت بل هو ميت حال حياته.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ فلا قيوم إلّا هو، قيوماً بذاته لذاته ولخلقه، قائماً على كل نفس بما كسبت وقائماً بالقسط تكويناً وتشريعاً.

و﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هما يعنيان كل صفات الفعل إلى صفات الذات: العلم والقدرة والحياة، فهما - إذاً - أجمع صفات الله ذاتية وفعلية.

ثم ﴿ٱلْحَىُّ﴾ هي كأصل من صفات الذات مهما كانت مصدراً لصفات الفعل حيث الميت ليس ليفيض الحياة ولكنه حي في ذاته قبل أن يخلق خلقاً وبعد ما يفنون.

وهو من متشابهات الصفات حيث يشترك في التعبير عن الحياة بين الله وخلقه الأحياء ولكن أين حياة من حياة، فإن الله هو الحياة والخلق ليس في ذاته إلّا الممات، وحق المعنيّ من الحي لله يباين كلياً المعنيَّ من حياة الخلق، فقد اشترك فيهما الاسم واختلف المعنى دون أية مشاركة اللهم إلا في عدم الموت فيهما، فلا نفهم من حياته إلا أنه ليس بميت دون جهة من جهات الإثبات في حياته، ونفهم من حياة الخلق كلا جهتي النفي والإثبات، فحياته تعالى تباين حياة خلقه، وحياتُهم تباين حياته فإنه «بائن عن خلقه وخلقه بائن منه»، حيث الحياة الإلهية هي عين الذات وذاته عين الحياة، لا تختلفان عن بعضهما البعض إلا في تحبير اللغات، ولكي يحظوا الخلق معرفة مّا إلى حضرة الحياة، إذ لا يعرفون من الذات المقدسة أمراً بالذات، ولولا الخلق لما كان تحبير اللغات وتعبير العبارات عن صفات وصفات، إذ يعرف هو نفسه بالذات دون وسيط العبارات.

(١) سورة طه، الآية: ١١١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

ذلك! ثم سائر الحياة هي على حدوثها عارضة على الذوات، وهي على عروضها ليست حقيقة الحياة، محدودة زائلة كما الذوات، خليطة بموتات وموتات، بل نفس هذه الحياة هي بجنب حياته من الموتات، فصدق الحياة عليها مجاز بعيد، وصدقها عليه تعالى هو حق الحقيقة ولا تجتمعان إلّا في التعبير وتحبير اللغات.

ولأن الله هو المحيي لكل حي فحياة الخلق - إذاً - من خلق الله، فهي إذا مباينة لحياة الله حق البينونة بين الخالق والمخلوق، حيث الخلق بين إنشاء لا من شيء كما في الخلق الأول، أو من شيءٍ خلقه قبل، وليس من شيء ذاته القدسية حتى يشابه ذاته كوالد وما ولد، فحياته واصبة كل الحياة دون أن تتفرع وتتولد عنها حياة، وحياة الخلق راسبة في موتات، ناشئة عن ميتات وذاهبة إلى موتات وهي بينهما في الحق ممات، لا حظوة لها من حق الحياة ولا مثقال ذرة، وفيما الحياة المجازية في الخلق لا محسوسة ولا معقولة، فبأحرى حياة الله إلا في تأويل أنها غير الممات، فليست لنا حظوة المعرفة الإيجابية لذات الله ولا صفاته بأسرها إلا بمعنى سلب أضدادها كما يناسب ساحة الألوهية.

فأسماء الله وصفاته هي من أغمض المتشابهات، لا بدّ من تجريدها عما يشابهها في الخلق. فربنا «لم يزل حياً بلا حياة، كان حياً بلا حياة حادثة»[١] «حياً بلا كيف ولا أين، حياً بلا حياة حادثة بل حي في نفسه»[٢] فهو «نور لا ظلمة فيه وعلم لا جهل فيه وحياة لا موت فيه»[٣].

والحياة ككل هي لأقل تقدير علم وقدرة، ولأنها درجات فكل دانية هي

---

(١) نور الثقلين ١ : ٢٥٨ ح ١٠٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام حديث يذكر فيه صفة الرب عزّ وجلّ وفيه...

(٢) المصدر عن أبي بصير عنه عليه السلام في حديث طويل.

(٣) المصدر عن جابر الجعفي عنه عليه السلام.

موت نسبة إلى عالية، وكل درجات الحياة هي بأسرها موت بجنب حياة خالق الحياة، وليست وليدة ذاته سبحانه حتى تجانس حياته باختلاف الدرجة، بل هي وليدة مادية بما أراد الله كما المادة الأولية، فإنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فهما صورتان متتابعتان لأصل المادة، وهي بأصلها وفصلها من خلق الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ليست إلا هنا وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[1] وآل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ...﴾[2].

وهذه الثلاث مشتركة في عناية القيومية المطلقة: ذاتية وتكوينية وتشريعية، والأخيرة مصرحة - بعد إطلاقها - بالأخيرة.

و«القيوم» فيعول المبالغة القمة من القيام، قياما في مربعة الجهات رابعتها التقدير ومنه الهداية ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] فهو قيوم في ذاته وقيوم لخلقه تكويناً وتشريعاً وتقديراً، فلا قيوم إلّا هو كما لا حي إلا هو إذ لا إله إلّا هو الحي القيوم.

فمن قيوميته في ذاته سرمديته بأزليته وأبديته وغناه المطلق في ذاته.

ومن قيوميته في صفات ذاته أنها عين بعض كما هي عين ذاته، دون قوام بعضها ببعض ثم قوامها ككل بذاته قضية التركب فالحاجة فالحدوث في ذاته وصفاته.

ومن قيوميته في رحمتيه رحمانية ورحمية قيامه بالقسط ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ... قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[4] قسطاً يحلق على كل أقساط الخلق

---

(١) سورة طه، الآية: ١١١.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

والتقدير والتدبير، ومنه قيامه على كل نفس بما كسبت ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ...﴾[1] وقيامًا على العباد بمصالحهم، وحيطة عليهم بما يكسبون، وحفظه لهم فيما يكسبون: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾[2] حفظة يحفظونهم بأمر الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[3] وكما يحفظون الأعمال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾[4].

لذلك فقد ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ في كل المواجهات والوجوه دون إبقاء في وجه من الوجوه، وهنا «القيوم» وصفاً للحي كما هو وصف لله يجعل كافة عوامل الموت والحياة والفقر والغنى خارجة عن ذاته وصفاته جلت عظمته، فهو «الله: الحي - الله: القيوم - الحي: القيوم».

ولزام قيوميته تعالى عدم تبعضه وتركبه في ذات صفات، وعدم قيامه في موضوع أو مادة أو صورة، ولا في زمان أو مكان أو أيّ كان.

ومنه علمه الذاتي والفعلي وقدرته بكل شيءٍ، فالقومية لزامها الحياة والعلم والقدرة المطلقة، كما الحياة لزامها العلم والقدرة وسائر القيومية، فـ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ عبارة مختصرة محتصرة عن كافة الصفات الربانية، ذاتية كأصل، وفعلية تتبنى الذاتية في الفاعلية الربانية.

فقد استفيد العلم والقدرة من القيوم كما استفيدا من الحي، فقد تصبح - إذاً - ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ من الاسم الأعظم حيث يعمان صفات الذات والفعل إلى الذات، كما و«الله - هو» تعبيران عن الذات و﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ عن كل الصفات.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٤) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

بل وكل من «الحي» و«القيوم» يقتضي الصفات الثلاث، كما كلّ من الثلاث يقتضي قسيميه، ثم الثلاث تقتضي كل صفات الفعل دون إبقاءٍ.

ذلك - مهما كان «الحي» تخص الذات و«العالم القادر» المستفادان منه ومن القيوم يعمان غير الذات.

إذاً فـ«الحي» بعد الاسمين الأعظمين: «الله - هو» هو أول الأسماء، ثم القيوم ومن ثم سائر الأسماء والصفات.

وأحرى بنا أن نعبّر عن صفاته - ولا سيما الذاتية - بالأسماء، وعن صفات فعله بالأفعال فأفعاله حادثة بما أحدثها، وأسماؤه اللفظية حادثة بما سماها، والمعنوية الذاتية هي عين ذاته مهما اختلفت بعضها عن بعض وعن الذات في تحبير اللغات.

فلا مسرب لقيلة الكنيسة اللّاهوتية إن ذلك تثليث لذات الله مهما اختلف عما عندنا من تثليث، فنحن مع المسلمين شرع سواء في توحيد التثليث!.

فإن تثليثنا ليس إلا في حقل التعبير، مع الاعتقاد بوحدة الذات والصفات وحدة حقيقية، ولكنهم يعتبرون الذوات الثلاث واحدة والواحدة ثلاثاً، فهي عندهم ثلاث بوحدتها، منفصلات بوصلتها، جواهر ثلاثة هي واحدة وواحدة هي الثلاث، وكما انفصل أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس عن رأس الزاوية في مثلث الألوهية.

ونحن نوحد الذات ونوحد معها صفات الذات في بُعدي توحيدها، دون اتصالة ولا انفصالة في واقع الألوهبة، فأين ثلاث من ثلاث؟.

هم يمثلون تثليثهم بمثل الشمس أنها نور ونار حال كونها شمساً، فهي واحدة وثلاث، كذلك الله ذاته الشمس ولها أقنوم الابن النور وأقنوم الروح النار.

ولكنها الشمس مركبة من جرم ونور ونار، وهذه قد تتفارق وأخرى

تتوافق، من جرم لا نار له ولا نور، ومن نور دون نار أو نار دون نور، والله تعالى شأنه غير مركبة الذات ولا الصفات مع بعض ولا مع الذات.

وبصيغة أخرى ثالوث الكنيسة اللاهوتية هو وحدة وهيدة لأنها تحكي عن ذوات متصلات كانت أم منفصلات، وصفات الذات عندنا لا تثلث الذات ولا تركبها مع الصفات، لا متصلات ولا منفصلات، فمهما كانت عباراتنا شتى فذاته بصفاته واحدة، وذات الثالوث عندهم شتى في واقع الألوهية متصلة أم منفصلة، فأين ثلاث من ثلاث؟ وإن شئت فقل: ليست له صفات كما عندنا كما ليست له ذات مثل ما عندنا، بل هو «خارج عن الحدين حدّ الإبطال وحدّ التشبيه».

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾:

ذلك لأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ والسنة والنوم هما من شعب الموت وعدم القيام بالنفس، فإنهما من حصائل ارتخاء البنية من كادح الشغل طوعاً أو كرهاً، وما لله من بنية، بائن عن مقسم الارتخاء واللاارتخاء، ولا يكدحه خلق ولا يغلبه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1].

ذلك، فضلاً عن جزئيات الأفعال المستمرة على هامش الخلق فـ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[2] ولا يشغله شأن عن شأن، وكل ذلك للقيومة المطلقة بحياتها.

إن السنة والنوم والموت هي إخوة في حقل العمر والرخوة، فعامل السنة يرخي الأعصاب إلى أشراف النوم فهي - إذاً - بين نوم ويقظة،

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

وعامل النوم يزيدها ارتخاءً بارتقائها فيها لحد يتم فيه انفصال روح اليقظة وهي الإنسانية عن البدن لفترة طالت أم قصرت، ثم عامل الموت يتم فيه انفصال الحياة بتمامها عن البدن، لحوقاً للحياة الحيواني ومعها النباتي إلى الروح الإنساني المستكن في بدنه البرزخي، فيبقى البدن ميتاً ككلٍّ دون أية حياة.

فلأن الله حي بحقيقة الحياة لا كالأحياء، فلا تأخذه العوامل المضعفة أو المزيلة للحياة كالسنة والنوم والموت، كما لا تزيده عوامل الحياة قوة فيها عدّة أو عدة أو مدة، فإنه فوق كل العوامل بآثارها، وهو خالقها بما تحل فيه من زمان أو مكان أو أي كان، كل شيء هو من امره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[1] فلا يغلبه أمره أو يأخذه حتى تأخذه - فيما تأخذ سواه - سنة أو نوم، فليست في ساحة الربوبية عوامل داخلية ولا خارجية لسنة أو نوم أو موت، فلماذا - إذاً - تأخذه سنة أو نوم فضلاً عن موت.

وترى «لا تأخذه» تنفي أن يأخذ هو لنفسه سنةً أو نوماً؟ ولا ملازمة بين السلبين! فقد يأخذ كائن لنفسه أمراً ولا يأخذه ذلك الأمر خارجاً عن خيرته!.

ولكن السنة والنوم حيث لا تأخذانه لأنهما من رخوة الذات ونقصها، فبأحرى ألا يأخذهما - سبحانه - لنفسه، وكيف ينتقص ذاته تعالى وهو الكمال المطلق، بل هو مستحيل في ذاته أخذاً لهما من ذاته أم سواه، كما يستحيل انعدام ذاته أو إعدامه بذاته أم سواه.

فنفس السنة والنوم، وبأحرى الموت وسائر الحوادث مكملة أو منقصة إنها ككل مستحيلة ذاتية في ساحة قدسه، والمحال محال على أية حال،

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

وبالنسبة لأية قدرة حتى المطلقة اللامحدودة منها، فإنها إنما تتعلق بالممكن ذاتياً دون المستحيل الذات، لا لضعف في فاعلية القدرة، وإنما هو في قابلية المحال.

فكما يستحيل الجمع بين المتناقضين - على تناقضهما ذاتياً - أم رفعهما، كذلك عروض عوارض الحدوث على السرمدي الذي لا يتحول من حال إلى حال ولا يتغير بانغيار المخلوقين، حيث الأزلية تناقض الحدوث، فلا يحمل الأزلي صفات الحدوث ولا الحادث يحمل صفات الأزلي، كما لا يحمل كل ذات الآخر.

ثم السنة والنوم وكل تحوّل وتغيّر هي لزام المادة بأسرها، والمجرد المطلق اللامحدود لا يتغير أو يتحول من حال إلى حال فكيف تأخذه سنة أو نوم(١) وهما انقسامة لذات الحي القيوم إلى حالتي الموت والحياة!، ثم

(١) قد أطبق علماء الفيزيولوجيا النباتية أن النباتات كلها بحاجة إلى منامات وعلى غرار مختلف الظروف ضوء وحرارة وبرودة، وكذلك حسب اختلاف النباتات تختلف مواقع مناماتها وطولها وقصرها ونرى البعض منها لها منامات فصلية إضافة إلى اليومية.
كذلك وأقوى وبصورة مرتبة نرى منامات الحيوان، وكلما كان مخ الحيوان أكمل وأقوى نرى الاختلاف بين نومها ويقظتها أكثر والترتيب بينهما أوفر.
وقد أنتجت التحقيقات حول مناماتها أنها في الأكثرية الساحقة بين الحيوان ترتبط باختلاف الليل والنهار، فالطير تشتغل بمساعيها الحيوية منذ بزوغ الشمس، وعند غروبها تفتش عن مأمن للراحة والمنام.
ولقد رؤيت بكرات ومرات أنها في ضوء مصطنع كالنهار تترك النوم وكما نرى في الحيوان الأهلية.
ونرى البعض منها تشتغل حتى في الظلام، وثالثة تعكس أمر المنام فتنام في النهار دون الليل كالخفاش «فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً» (نهج البلاغة في ١٥٤).
ثم نجد في الحشرات مختلف الأقسام من حيث اليقظة والمنام فنرى البعض منها كأنها في=

وهما لو أمكنتا لخالق الكون لاستحالتا في صالح الكون حيث تنفصم بهما عرى الكون بأجمعه، و«لسقطت السماوات والأرض فهلكن»(١).

ثم ولماذا تتقدم «سنة» على «نوم» وهي مقدمة له وذريعة إليه، فإذ لا يأخذه نوم فبأحرى ألا تأخذه سنة، وقد تكفي - إذاً - لا يأخذه نوم؟.

علّه لأن عامل النوم أقوى من عامل السنة، فهنا ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، فلا تأخذه سنة بعاملها الأدنى، ولا نوم بعامله الأعلى، فلذلك تتقدم سنة على نوم.

ثم وبينهما عموم من وجه فقد تأخذ السنة كائناً حياً ولا يأخذه نوم، أو يأخذه نوم دون سنة، أم تأخذه كلا السنة والنوم، فلكي يستأصل عن ساحته كل سنة ونوم كما الموت، فلذلك ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فـ «ما من حي

= حراك ويقظة دائمة وكأنها لا تنام كالذر، فمناماتها فصلية لا تعرفها في فصول السعي وتحصيل المعاش.

ثم الإنسان - من بين الحيوان - يتعوّد النوم في الليل دون النهار وهو أصح وأصلح لاستمرارية الطاقات الجسدية والروحية وكما تدل على ذلك آيات بينات كـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٩-١١].

هذه - مهما كانت الأخرى تعمم المنام بالليل والنهار سماحاً وجاه الرجاحة في الليل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] ولعلها تعني المناطق التي تطول لياليها ونهاراتها عدة أشهر، فالضرورة فيها قاضية بالنوم نهاراً في نهاره والشغل ليلاً في ليله جمعاً بينهما في الليل والنهار.

ثم السنة والنوم قد تفرض على الإنسان من عوامل خارجية طبيعية كأكثر النومات، أم إرادية كالتنويمات المغناطيسية، أم داخلية بلا اختيار كالأتعاب النفسية، أم باختيار كمن ينوّم نفسه لفترة قلت أو كثرت لغايات استثنائية.

(١) في الدر المنثور ١: ٣٢٦ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا يا موسى هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت =

إلا وهو ينام خلا الله وحده عزّوجلّ »[١]، «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم»[٢].

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

«له» مِلكاً و«له» مُلكاً فإنها تعمهما مهما كان مِلكُه مُلكَه ومُلكُه مِلكَه، فكما هو ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[٣] كذلك هو ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾[٤] فله ما في السماوات وما في الأرض ملكاً: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥] وله ما فيهما ملكاً: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦].

مالِك ومَلِك لمثلث الزمان وكل مكان وما فيهما، فإن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هي صيغة أخرى عن كائنات الممكنات ككل، فـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي السماوات بما فيها، كما ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هي كل أرض بما فيها.

فـ«السماوات والأرض» و«ما فيهما» هما كالظرف والمجرور إذا افترقا اجتمعا كما هنا، وإذا اجتمعا افترقا كما في ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[٧] - ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[٨] ثم وهنا من صفات الفعل محضاً، كما الحي هي صفات الذات

= الزجاجتان فانكسرتا فقال يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان وأنزل الله على نبيه آية الكرسي.

(١) سفينة البحار ٣: ٥٤٧ عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٥٩ عن الإمام علي عليه السلام.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الناس، الآية: ٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٧.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٧) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٨) سورة طه، الآية: ٦.

محضاً، والقيوم يجمعهما فإنها قيام بالنفس وإقامة للخلق سواء في العلم أم في القدرة.

وصفات الفعل وهي غير الثلاث: الحياة - العلم - القدرة - لا هي عين الذات ولا عارضة على الذات، ولا صادرة عنها ولادة، وإنما تصدر عن الذات خلقاً على ضوء صفات الذات، فلا صدور في صفات الذات كما لا عروض، كما الذات غير صادرة ولا عارضة، وإنما هي هيه بعينها.

ولا تعني المَلِكية والمالكية الذاتيتين أنهما من صفات الذات، وإنما تعني اختصاصهما بذات الله دون سواه، ولا تزولان عنه إلا بزوال الكون وليس إلا بإذنه، ولكنه مَلِكٌ إذ لا رعية ومالك إذ لا مملوك كما هو خالقٌ إذ لا مخلوق ورازق إذ لا مرزوق وإلى سائر صفات فعله اعتباراً أن مصدرها الذات بصفاتها، دون أن تحصل له المَلكية والمالكية وسواهما كتكملة لذاته وصفاته، وإنما كظهور لفضله على خلقه.

إن اختصاص المُلك والمِلك المطلقين به تعالى ليس مجرد عقيدة جافة طفيفة، بل ويجعل المعتقد به عارية مضمونه في كل كيانه بكافة حالاته ومجالاته حتى يستردها خالقها الذي أعارها له في الأجل المرسوم، فيطامن من حدة الشره والفرح والتكالب المسعَّر، ساكبة في النفس البشرية خنوعاً وقنوعاً بما يحصل عليه من رزق، والجود بالموجود، فلا تذهب النفس على ذهاب مال أو منال حسراتٍ، ولا يتحرق القلب مما هو ذاهب ومما هو آت: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

فالكائنات كلها لها تعلق - كالمعاني الحرفية - بالله، بل لا معنى لها ولا كون ولا كيان إلا تعلقها بالله، لا أنها ذوات لها تعلقات قد تبقى بعد زوال هذه التعلقات، فالفقر - إذاً - ذواتها وإنياتها.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ليس الكون معلولاً لذاته سبحانه حتى يكون معه من الأزل - أزلية زمانية -! ولا عارضاً على ذاته سبحانه عروض الأعراض أو الجواهر، ولا هي متحدة مع ذاته سبحانه اتحاد المعلول مع علته، وإنما هي خلقُه خلقها لا من شيءٍ كأصل، ثم خلق كل شيءٍ من ذلك الأصل، فإنه بائن عن خلقه وخلقه بائن منه.

هذا! ثم ﴿لَّهُۥ﴾ تعم - فيما عمّت - كافة اختصاصات الربوبية مِلكاً ومُلكاً وعلماً وقدرة وخلقاً وتقديراً وتدبيراً وإعداماً وسائر التكوين بحذافيره، وكذلك التشريع بكل متطلباته.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾:

فلأن كامل التوحيد في ثالثة زواياه: الأفعال - قد يخيِّل إلى القاصرين نفي كل وسيط في الأفعال، كما ينفي كل علة مستقلة فيها، لذلك الله - هنا وفيما أشبه من آيات - يثبت شفاعة عنده مهما كانت - ولا بدَّ - مربوطة بإذنه، فالعلل الخلقية لا تشفع عنده في تأثيراتها إلا بإذنه، كما العلل الإرادية لا تصل إلى معاليلها إلا بإذنه.

هذا - كما وإن الشافعين في ذنوب المذنبين لا يشفعون إلا بإذنه، بالمؤهلات المسرودة في القرآن فيهم وفي المشفع لهم ومادة الشفاعة.

فمطلق الشفاعة - فيما يكون ويجوز - ليست منفية، وإنما هي الشفاعة المطلقة دون إذن وفوضاها، وهكذا تلتحم آيات الشفاعة سلباً وإيجاباً كما بيّنت في أول البقرة.

وهنا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ...﴾ استفهاماً إنكارياً واستفحاماً إيحاءً بأنه أمر لن يكون - ومن المستنكر أن يكون - حيث الجلالة والرهبة الإلهية لا يسمحان أي استقلال واستغلال بجنبه في شفاعة وسواها من مختصات الربوبية.

فإذاً لا شفيع عنده إلا بإذنه فكيف تكون له شركاء دون إذنه ثم هم يشفعون عند الله في قيلة عابديهم: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[١].

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾:

هذه نجدها في ثلاث أخرى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[٢] ﴿... وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[٣] ﴿... وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[٤].

و«هم» في ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ منهم الشفعاء المأذونون وكما في الثلاث الأخرى، اللهم إلا في الأخرى فإنهم رسل من ملائكة الله ومن الناس ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[٥] ولكنهم أيضاً شفعاء أُصلاء وكما في الجن: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم إن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً»[٦] وفي مريم ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾[٧].

كل ذلك من حيطته العلمية عليهم تدليلاً على أن كونهم مأذونين في

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٥) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٦) أصول الكافي ١: ١٠٧ من الطبعة الجديدة.
(٧) سورة مريم، الآية: ٦٤.

شفاعتهم لا يجعلهم مستقلين فيها ومستغلين بها، فإن تلك الحيطة الشاملة تمنعهم عن التورط فيما لا تصلح من شفاعة، فهو سبحانه يأذن لهم بقدرته وعلمه المحيط بهم.

ذلك، وقد تشمل «هم» مع الشافعين المشفع لهم، إنه تعالى يأذن في شفاعتهم وهو عالم بهم دون عزوب لشيء منهم عن علمه سبحانه.

وقد تعني «يعلم» - ضمن ما عنت - علم الشافع بما يعرفه الله بما بين أيديهم وما خلفهم حتى يعرفوا صالح الشفاعة عن طالحها.

وأما ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فمنه ما يعلنون فهو ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ لسواهم كما لهم، ومنه ما يسرون عنهم ف ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالله يعلمهما ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٢] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[٣] كما وأعمق من سرهم وهو الأخفى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٤] فله إذاً مثلث علم الجهر والسر وأخفى.

وليس أنه يعلم - فقط - حاضرهم الغائب والظاهر، بل و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مستقبلاً، كـ«ما خلفهم» ماضياً، علماً بمثلث الزمان من مثلث الحالات... وثالث «مما بين أيديهم» أخراهم التي يستقبلونها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أولاهم التي يستدبرونها، ورابع ما هو محسوس لديهم مما بين أيديهم إحساساً وما خلفهم من غير المحسوس، وكذلك كل حاضر وغائب لهم ولمن سواهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣.
(٤) سورة طه، الآية: ٧.

ذلك، وفي نطاقَ أوسع «هم» تعم كل الكائنات بأسرها فإنه بكل شيء عليم.

أجل فـ «لم يزل الله عزّوجلّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور»[1] و«لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء»[2]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3].

وعلم الله هو من صفات ذاته، سواء أكان المعلوم هو ذاته حيث «كان إذ لا كان» أم وخلقه قبل الخلق وبعده، فعلمه بهم لا يختلف عن معلومه قبل ولا بعد.

ذلك ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

«من علمه» هنا هو الفعلي دون الذاتي فإنه لا يستثنى عنه بأسره، ثم وليست حيطتهم به كحيطته، أو أن الاستثناء منقطع ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلمهم وهو خارج عن علمه ذاتياً وفعلياً إذ ليس فعلهم كفعله ولا علمهم كعلمه.

فمن العلم ما يختص به تعالى كعلمه بذاته وبصفاته وأفعاله، وعلمه بملكوت كل شيءٍ فإن لزامه القدرة المطلقة.

---

(١) أصول الكافي ١: ١٠٧ من الطبعة الجديدة.

(٢) المصدر عن أيوب بن نوح أنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزّوجلّ أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها فعلم ما خلق عندما خلق وما كون عندما كون؟ فوقع بخطه: لم يزل...

(٣) سورة الملك، الآية: ١٤.

ومنه ما بالإمكان ان يعلمه غيره كغيب الوحي وأشباهه، فهو داخل في المستثنى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ كما يشاء لمن يشاء ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾﴾[١].

وثالث هو من حصائل التقوى أم أسباب أخرى، فهو يعلمه حسب درجات التقوى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾[٢] ودرجات المساعي: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣].

ولا يعني ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ إلّا الأخير وأوساطاً ضرورية أو إكرامية من وسط الوحي والإلهام، إذ ليس كل ما بالإمكان أن يُعلم يعلّمه رسله وأصفياءه إلّا ما هو قضية ضرورة الدعوة ورجاحتها، فـ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

فالحيطة بشيءٍ من علمه على أية حال هي حيطة محدودة حادثة بمشيئته، فليست هي من حيطته الأزلية الذاتية ولا الفعلية.

وانقطاع الاستثناء هو أحرى بذلك التعليم حيث الحيطة هي على أية حال منفية، فإن ما يشاء تعليمه هو غير ما عنده، وفي اتصال الاستثناء قد يعني «علْمُه» معلومَه بحيطة حادثة كما تناسب الخلق، فلا حيطة كاملة شاملة لأي مخلوق بمخلوق، لأنها علمياً تلازم القدرة المطلقة على خلقه كما هي في القدرة تلازم العلم المحيط ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[٥] تنفي كل حيطة

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٠.

علمية به وبما هو محيط به: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾[(١)] حيطة العلم والقدرة والإرادة، فلا شيء يحيط بشيء - فضلاً عن كل شيء - إلا هو، فـ «ما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم، فمن فرغ قلبه وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرأت خلقك وكيف علقت في الهواء سماواتك وكيف مددت على مور الماء أرضك رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً وسمعه والهاً وفكره حائراً[(٢)].

ذلك! ولأنه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ في حين يذكر العرش في (٣١) موضعاً يعني من (٢١) منها عرش الله، لا تحمل الكرسي إلا آية الكرسي، مما يدل على أن عرشه تعالى أعظم من كرسيه وعلى حدِّ المروي عن النبي ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملأة بأرض فلاة وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[(٣)].

فالعرش في آياته - كما فصلت فيها - كناية عن المُلك على مثلث الخلق، منذ المادة الأولية إلى حاضر السماوات والأرض وإلى فنائهما، والكرسي كناية عن الحكم والقضاء، يقال عرش الملك وكرسي القاضي، فكرسيه تعالى - مع عطف النظر إلى سابقة الصفات - هو قيوميته تعالى في العلم والقدرة، وإذنه في الشفاعات المرضية بما يملك السماوات والأرض،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٥٩ للإمام علي عليه السلام.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٢٨ - أخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال يا أبا ذر: . . .

وقد ذكرت الثلاث قبله: القيوم: قدرةً وعلماً، و«له» مِلكاً ومُلكاً، و«يعلم» علماً، ثم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ يوسع الثلاث لحاضر الكون باطنه وظاهره كما العرش يوسعهما لماضيه ومستقبله.

ف «كرسيه علمه»[1] وقضائه لحاضر الكون المصطنع، وهو في أصل اللغة أصل يعتمد عليه، وكل شيءٍ تراكب فقد تكارس من الكرسي وهو تراكب الشيء بعضه على بعض، أم تراكب شيء على آخر، ومنه الكراسة وجمعها الكراريس لتراكب أوراقها، ومنه الكرسي الموضوع لهذه الهيئة المخصوصة.

فالعرش هو السلطة المطلقة الشاملة لكرسي الحكم والعلم والقدرة الخاصة بحاضر الكون كما تدل عليه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دون ما قبلهما إذ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[2] ولا بعدهما حين ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[3] والسماوات والأرض الحاضرة هما بينهما.

وإن لكرسيه تعالى قوائم أربع:

١ - قائمة القيومية والقدرة الطليقة.

٢ - قائمة الملكية والمالكية الطليقة.

٣ - قائمة العلم المحيط.

٤ - وقائمة القضاء للكون أجمع، وكل هذه خاصة بالسماوات والأرض، فلولا القيومية لم يكن علم وقدرة، ولولاهما لم يكن مِلك ومُلك، ولولا هذه ما تمَّ القضاء.

---

(١) في معاني الأخبار عن حفص بن غياث قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]؟ قال: علمه، أقول: يعني العلم الفعلي دون الذاتي، وفيه أيضاً عنه عليه السلام السماوات والأرض وما بينهما في الكرسي، والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحد قدره.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

ولقد كان عرشه على الماء ولا كرسي وقد يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام مدة ما كان عرشه على الماء وهو الضلع الأول من مثلث العرش أن «لو أن الأرض من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى السماء حب خردل ثم كُلِّفت على ضعفك أن تحمله حبة حبة من المشرق إلى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين ألف جزء من بقاء عرش ربنا على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء ثم قال: إنما مثلت لك مثالاً»[١].

فالعرش يسع الكرسي كما الكرسي يسع السماوات والأرض وهما حاضر الكون عن بكرته، وإليكم مواصفات لهما في المروي عن الصادق عليه السلام: «إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وصنع في القرآن صفة على حدّه، فقوله: رب العرش العظيم - يقول: رب المُلك العظيم - وقوله: الرحمن على العرش استوى - يقول: على الملك احتوى - وهذا علم الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والمشيئة وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والتركب وعلم العود والبدء فهما في العلم بابان مقرونان لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رب العرش العظيم - أي صفته أعظم من صفة الكرسي وهما في ذلك مقرونان، قلت جعلت فداك فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال: إنه صار جارها لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وإنيتها وحدرتفها وفتقها فهذان جاران

(١) تفسير البرهان ١: ٤٧٢ عن أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء فقال: تحسن أن تحسب؟ فقال: نعم فقال: لو أن الأرض...

أحدهما حمل صاحبه في الظرف وبمثل صرف العلماء وليستدلوا على صدق دعواهما لأنه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز»[١].

أجل «وبمَثَل صُرِّف العلماء» حيث العرش والكرسي إنما هما مثَلان على سعة ملكه وقدرته وعلمه فـ: «بذلك وصف نفسه، وكذلك هو مستولٍ على العرش بائن من خلقه من غير أن يكون العرش حاوياً له ولا أن يكون العرش محتازاً له ولكنا نقول هو حامل العرش وممسك العرش ونقول من ذلك ما قال: و﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فثبّتنا من العرش والكرسي ما ثبّته ونفينا أن يكون العرش والكرسي حاوياً له وأن يكون عزّوجلّ محتاجاً إلى مكان أو إلى شيءٍ مما خلق بل خلقه محتاجون إليه»[٢].

لقد أجاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الجاثليق في سؤاله: أخبرني عن الله عزّوجلّ يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال: الله عزّوجلّ حامل العرش والسماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده أنه كان حليماً غفوراً، قال: فأخبرني عن قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[٣] فكيف ذاك؟ وقلت أنه يحمل العرش والسماوات والأرض؟ فقال عليه السلام: إن العرش خلقه الله من أنوار أربعة: نور أحمر احمرّت منه الحمرة ونور أخضر اخضرت منه الخضرة ونور أصفر اصفرت منه الصفرة

(١) في كتاب التوحيد للصدوق بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام وفيه بإسناده إلى عاصم بن حميد عنه عليه السلام أنه قال: الكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، أقول: فالرواية القائلة إن العرش وكل شيء في الكرسي - مختلقة كما في التوحيد عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام، كما القائلة إن العرش هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً كما رواه الصدوق عن المفضل عن الصادق عليه السلام مطروحة كسابقتها ولعلّها من خلط الراوي في معاكسة التعبير بين العرش والكرسي.

(٢) التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: فقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ قال أبو عبد الله عليه السلام بذلك وصف نفسه...

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

ونور أبيض ابيض منه البياض وهو العلم الذي حمّله الله الحملة وذلك نور من نور عظمته، فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشتتة، فكل شيءٍ محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكل شيءٍ محمول والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا والمحيط بهما من شيء، وهو حياة كل شيء ونور كل شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - قال له: فأخبرني أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو هاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] وذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حملهم الله علمه وليس يخرج عن هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم وبنوره اهتدوا إلى معرفته[2].

ذلك! وفي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ دون «أحاط» إشارة إلى أن كرسيه مرتكن في ذوات الكائنات ومستكن في إنياتها وملكوتها، فليس يخلو عنه كائن منذ كوّن حتى فناءه، فليس - إذاً - كرسياً مادياً كسائر الكراسي، حيث المادة

---

(١) سورة طه، الآية: ٧.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٠٥ عن أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: . . .

هي السماوات والأرض، ولا يسع الشيء نفسه وإنما يسعه غيرُه أو يسع غيرَه، فـ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دليل أن كرسيه غيرها، فهو يسعها في أعماقها وملكوتها علماً وقدرة وحكماً وقضاء.

ذلك! وكما يسع عرشه الماء قبل خلق الأرض والسماء، وقبل الثلاث وبعدها، حيث العرش كناية عن ملكه ككل.

ثم ولا صلة لكرسي مادي بما سبقه من علم وقدرة وقضاء، فإنها لا تمتُّ بصلة لهكذا كرسي، بل هي هي الكرسي لواسع السماوات والأرض ولا يؤده علماً وقدرة أو قضاء حفظهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ ثقلاً في قدرة، وجهداً في علم، وتدبيراً في حكمة، فلا ثقل عليه حفظاً لهما كما لم يغلبه خلقهما: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[(١)].

فإنما الأوْد هو للمحدود، المتحرك بالتحريك، المتحرر بالتحرير، والمتغير بالتغيير، وأما القيوم اللامحدود الذي لا يتغير بانغيار المخلوقين ولا يتحد بتحديد المحدودين فلا يؤده خلق ولا حفظه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ولئن صح التعبير فخلقه وحفظه له كتصوراتنا التي لا تكلفنا حولاً ولا قوة إلا مجرد الإرادة المبدَعة، والخلق كلهم يؤدهم كل فعل وحتى التصوّر وهو تعالى لا يؤده أي فعل ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أجل إنه سبحانه «لم يتكأده صنع شيءٍ منهما إذ صنعه ولم يؤده منهما خلق خلق ما برأه وخلقه»[(٢)] فإنه «لا يتغير بحال ولا يتبدل في الأحوال ولا تبليه الليالي والأيام ولا يغيره الغيام والظلام ولا يوصف بشيء من الأجزاء

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

(٢) النهج الخطبة ٢٢٨ و(٣٨) الخطبة ٦٤ و(٣٩) الخطبة ٢٢٨.

ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض»[(١)] فـ«كل قوي غيره ضعيف وكل مالك غيره مملوك وكل عالم غيره متعلم وكل قادر غيره يقدر ويعجز».

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾: علي على كل شيء، وعليٌّ من أن تناله طائرات العقول في منتهيات صعودها، عظيم في علوه غاية العظمة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[(٢)] ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[(٣)].

وهو علي عن قياسه إلى المخلوقين، وعن أن تعني أسماؤه اختلافاً في ذاته وصفاته كما في خلقه، فهو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة فليس يحتاج إلى أن يسمي نفسه ولكنه اختار لنفسه أسماءً لغيره يدعوه بها، لأنه لم ينعت باسمه لم يُعرف، فأوّل ما اختار لنفسه «العلي العظم» لأنه على الأسماء كلها. فمعناه أنه واسمه «العلي العلي العظيم» لأنه على الأسماء كلها فمعناه الله واسمه ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هو أوّل أسمائه لأنه علي على كل شيء.

ذلك! فلا يعني علوه علو المكان أو الزمان أو الدرجة المدرَّج هو إليها أو أياً كان من علو طارىء، بل هو علو الذات والصفات ذاتياً وعلو الأفعال إرادياً، فلا يقال: إنه أعلى إذ لا عليّ بجنبه حتى يكون أعلى منه، و«ربي الأعلى» في سجود الصلاة تعني الأعلى من أن يُدرك أو يُنال أو يُعطى حقه من العبودية اللائقة بجنابه كما ﴿ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[(٤)] من أن يوصف.

---

(١) بحار الأنوار ٢: ١٣٠ من الطبعة الجديدة عن عيون الأخبار بإسناده إلى محمد بن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام هل كان الله عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم، قلت: يراها ويسمعها؟ قال: ما كان محتاجاً إلى ذلك لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه . . . وفي أصول الكافي مثله.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

هذا - وكذلك العظيم، فكل شيء صغير في جناب عظمته، والعظمة هي رداءه الخاصة به.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾:

الدين هو الطاعة، وهو هنا وفي أضرابه طاعة الله، واقعياً في الأولى إقراراً باللسان واعتقاداً بالجنان وعملاً بالأركان، وظهوراً للطاعة والعصيان جزاءً وفاقاً في الأخرى.

وهنا «لا إكراه» تخص الأولى، فإن تبيُّن الرشد من الغي هنا يخص الأولى، فالأخرى - إذاً - خارجة عن ضابطة السلب المستغرِق المستأصل لكل مصاديق الإكراه في الدين.

فالإكراه في ظهور العصيان وملكوت الجزاء في الأخرى ليس استثناء عن هذه الضابطة. وأما الأولى فقد يكون فيها الإكراه على تطبيق الدين بالنسبة لمن يعتقده ويتركه، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر عملياً بعد تبيُّن الحق فيهما، ولكنه ليس في الحق إكراهاً، بل هو حمل على ما يعتقده، وتوافقه فطرته وعقليته، فقد لا يصدق عليه الإكراه.

وكذلك الحمل على الإقرار باللسان فيما يعتقده عقلياً ولا يقرُّ به فإنه - في الحق - ليس إكراهاً، وأما عقيدة القلب فليست لتقبل الإكراه على أية حال، فلا إكراه في الدين في أية حال، ثم الدين كما يعم مثلثه ولا إكراه إطلاقاً في عقيدة الدين، كذلك يعم دين الفطرة والعقلية فـ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فطرياً - كما فطر الله - وعقلياً.

فلا إكراه فيما توافقه الفطرة والعقلية حيث المطاوعة حاصلة بطبيعة الحال، كما لا إكراه فيما يخالفهما حيث المطاوعة - إذاً - غير حاصلة على أية حال.

فالرشد المتبين لا إكراه على اتباعه كما لا إكراه على تركه، وكذلك الغي المتبين، فلا واقع للإكراه في حقل التبين، فلا إكراهَ - إذاً - شرعياً ولا واقعياً بسند تبين الرشد من الغي، فمن تبين له الرشد من الغي يعتقده دون إكراه، ومن لم يتبين له لا يعتقده بأي إكراه، فـ«لا إكراه» في الأوّل سلب لتحصيل الحاصل، اللهم إلا في عمل الإيمان في حقل الأمر والنهي، وفي الثاني سلب لاستحالة حصوله بالإكراه.

ومهما انضبط «لا إكراه» في أصل الإيمان، فهنالك إكراه وحملٌ على مقدمات الإيمان وهي رؤية الآيات الربانية آفاقية وأنفسية حتى يتبين لهم الحق: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وليس هذا من الإكراه في الدين، بل هو حمل على سلوك سبيل الحق حتى يتبين لهم الحق، ثم لا إكراه بعد ما تبين لهم الحق.

فالحمل على الإقرار باللسان بالنسبة لمن بُيِّن له الحق وليس ليقبله أو يُقبل إليه، ذلك حملٌ على قضية الفطرة والعقلية الصالحة، وحتى يتبين الحق بكامله، كما الحمل على فعل المعروف وترك المنكر بالنسبة لمن تبين له الحق فيهما، حمل على قضية الإيمان الحاصل، غير الكامل.

وقد يعم ﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾ التكوين والتشريع، سلباً للحمل على الإيمان شرعياً وواقعياً، فهو يعم الإخبار والإنشاء: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

فالله - وهو قادر على أن يحملهم على الإيمان تقليباً لقلوبهم إليه - لا يشاءه تكويناً، فضلاً عمن سواه مهما كان رسول الله فضلاً عن سواه.

ذلك وإنما يتحقق الإكراه مكروهاً أو ممنوحاً في مظاهر الإيمان دون أصله، أن يُكره المؤمن على ترك عمل الإيمان أو فعل ما ينافي الإيمان فإنه محرم ويشمله «لا إكراه»: ف ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[1].

أو يكره الفاسق على عمل الإيمان وترك ما ينافي الإيمان كالخطوة الأخيرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سداً لثغور الفساد ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فـ «لا إكراه» تشمل ما لا يمكن فيه الإكراه وما لا يصح، والسلب في الثاني تحريم وسلب للآثار التكليفية في المكره عليه كمن يكره على زواج أو طلاق أو بيع.

فجو الدين لا يقبل أي إكراه، اللهم إلا إكراهاً على ما يعتقده المؤمن إن صدق عليه الإكراه، فإن حمل المؤمن على ما يعتقده حمل له على قضية الفطرة والعقلية الإسلامية.

فالإكراه في الدين بين مستحيل كالإكراه على الإيمان أو اللاإيمان، وممكن مفروض كموارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإكراه على الانتظام في سلك النظام الإسلامي حفاظاً على مظاهر الإسلام بين الكتلة المؤمنة، وحملاً على ما يعتقده التارك لمظاهر الإيمان.

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

وآخر مرفوض كالإكراه على ترك واجب أو فعل محرم، أو على ترك مباح أو راجح أم فعل مرجوح، وقضية اللاإكراه في كلٍّ كما يناسبه إلا فيما يتوجب فيه الإكراه، وليس «لا إكراه» مختصاً بنا، بل ولا يكرهنا ربنا على الدين فيما لا يجوز أو لا يصلح، فهي - إذاً - ضابطة ثابتة في حقل الدين ككل، والموارد المستثناة قد لا يصدق عليها الإكراه كما مرّت لمرات.

ولماذا ليس هنا «لا إكراه في الإيمان»؟ لأنه واضح البطلان!.

أم «لا إكراه على الدين» لأنها تختص جانب الإثبات.

وأما ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ فهي تجتث كل ألوان الإكراه موضوعاً أو حكماً، تكويناً أو تشريعاً، سلباً أو إيجاباً في حقل الدين لساناً وجناناً وأركاناً، من الله أو من خلق الله، فلا أجمل ولا أشمل من هذه الصيغة الجامعة، ضابطة سارية المفعول في «اللاإكراه».

ثم لماذا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾؟ لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فلا إكراه - إذاً - لا على الرشد ولا على الغي.

ذلك، وبأحرى «لا إكراه» فيما لم يتبين الرشد من الغي سواء الرشد في أصل الإيمان أم عمل الإيمان.

فكما لا يحمل على لفظ الإيمان أو عمله من لم يتبين له الرشد من الغي، كذلك لا يحمل على عمله من لم يتبين له بعدُ الإيمان، حيث الإيمان درجات قد يقنع المؤمن لعمل الإيمان وهو مؤمن.

لذلك فـ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾(١).

فما لم تحمل الدعوة إلى الربّ حكمة وموعظة حسنة ثم وجدالاً بالتي

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

هي أحسن، لم تكن الدعوة صالحة، ولم تتبين بها الرشد من الغي، فلا إكراه - إذاً - على لفظ الإيمان أو عمله فضلاً عن أصله، فإنما يكره على لفظ الإيمان وعمله من تبين له الرشد من الغي، إن صح التعبير عنه بالإكراه، ثم تبين الرشد من الغي درجات ثلاث، فطرياً وعقلياً وشرعياً، فإذا اكتمل الثلاث فقد حق الحمل على لفظ الإيمان وعمله، وإلا فلا حمل عليهما فضلاً عن أصل الإيمان.

ولأنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إذ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ - ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ على تبين لسلبه ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ على تبين لإيجابه ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ حيث لا أوثق منها ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ مهما أكره ذلك المؤمن على ترك لفظ الإيمان أو عمله حيث ﴿أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[1] فمهما أنفصم ظاهر الإيمان بإكراه فليس لينفصم أصله بذلك الإكراه، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مقال اللاإيمان من المؤمن المكرَه «عليم» بحاله ومقاله، فلا يأخذه على ما أكره عليه من خلاف الإيمان.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هي عبارة أخرى عن كلمة التوحيد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وكما يقابل الطاغوتُ المستضعفَ في كل الحقول، كذلك نجده يأتي في آيات ثمان كما المستضعف[2] وليس قِران

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) فالطاغوت هنا وفي التي بعدها مرتان، ثم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦] ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة: ٦٠] ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ . . .﴾ [الزمر: ١٧].

ثم المستضعف يأتي في (٤: ٧٥ و١٠٠ و١٢٧ و١٣٧ و٧: ١٣٧ و٨: ٢٦ و٢٨: ٧ و٣٤: ٣١ - ٤٣).

هذا العدد في القرآن صدفة عمياء، بل هو عدد قاصد ككل ما في القرآن صراحة وإشارة.

الطاغوت تأتي بصيغتها في القرآن كله (٨) مرات وبمختلف الصيغ (٣٩) مرة، وهي تأتي جنساً كما هنا، ومفرداً ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾[١] وجمعاً كما ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ ومذكراً كما هنا ومؤنثاً كـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾[٢].

ثم الطاغوت هي مبالغة الطغيان، على الله إلحاداً أو إشراكاً بالله أم محادة ومشاقة بجنب الله، أم على خلق الله في أي من الأبواب السبع الجهنمية الطاغوتية: استضعافاً واستخفافاً واستبداداً واستكباراً واستعماراً واستثماراً واستحماراً، والدرك الأسفل منها هو الأخير الذي يضمن سائر الدركات.

ثم الطاغوت منه نفسي ومنه خارجي، وأقواه وأغواه هو الأول حيث الثاني لا يؤثر إلا باستجابة الأول، فقد تطغو النفس على العقل ثم على عباد الله ثم على الله، فهي في ثالوث الطغيان.

ولكن الطاغوت الخارجي ليس له مجال إلا في الأخيرين، وبعد أن طغت النفس على العقل، وأسفل دركات الطغيان هو النفسي والخارجي مع بعض في كل الأبواب السبع المذكورة، والكفر بالطاغوت كما الإيمان بالله يعم مثلث القال والحال والأعمال، كفراً كاملاً كافلاً لمفاصلة تامة بينك وبين كل طاغوت، كما الإيمان يعم كل المواصلات بالله، وهذا الإيجاب بعد ذلك السلب هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٧.

وقد يعبّر عن ذلك السلب والإيجاب بإسلام الوجه لله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

فبداية العروة الوثقى هي الإيمان بالله، ونهايتها هي إسلام الوجه بكل وجه إلى الله، ثم بينهما درجات، ورأس الزوايا الثلاث في كلا الإيمان والإسلام هو إيمان القلب، ثم اللسان بيان ظاهر لذلك الإيمان، وعمل الأركان هو تجسد الإيمان.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾:

«الولي» هو الذي يلي أمر غيرِه أو يلي أمرَه غيرُه أم هما المتواليان، و﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حيث يلي أمر إخراجهم من الظلمات إلى النور كما يلي سائر أمرهم، وهم يلون أمر شرعة الله وطاعته قدر ما يعرفونه ويحبونه، كما ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٢).

وولاية الله هي الأعم من التكوينية والتشريعية فضلاً عن الشرعية، ثم لا ولاية لغير الله إلّا شرعية بانتصاب خاص كما في رسل الله وأئمة الهدى، أم بانتخاب خاص كما في الفقهاء، أم في نخبة عامة ككل مؤمن بالنسبة لمن دونه في الإيمان.

وولاية الله الخاصة بالذين آمنوا هي ولاية التوفيق تكويناً، إخراجاً من

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

الظلمات إلى النور حين هم يخرجون، فـ ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[1].

فلأن الإيمان درجات تشوبها ظلمات وإن الإيمان بمفرده لا يكفل الخروج عن كل الظلمات إلى كامل النور، لذلك فـ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بسند الايمان وقدره ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، إذ ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[2] رياء أما فوقه أو تحته من إشراك يعم كل خروج عن خالص التوحيد.

ثم الولاية - ككل - منها خيرة كما لله ورسله والهداة إليه، وأخرى شريرة كما للطاغوت ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عن قضية الفطرة والعقلية والشرعة ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ فإن لهم أرباباً متشاكسين، مهما اختلفت طاغوت عن طاغوت فإن الكفر ملة واحدة.

﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ نور الفطرة والعقل والشرعة ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾.

فترى الذين كفروا هم في نور حتى يخرجهم الطاغوت منها إلى الظلمات؟

أجل! ولا أقل من نور الفطرة والعقل، ثم نور الشرعة لمن آمن ثم كفر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قدر خلودهم في الكفر مادة ومدة وأثراً دونما فوضى جزاف لا في أصل الخلود ولا في قدره، والقدر المعلوم من عدم الخلود هو اللانهائي فإنه ليس جزاءً وفاقاً، بل هو من أظلم الظلم وكما فصلنا في طيات آيات حول الخلود.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

آيات ثلاث تحمل هامة العقيدة، لا سيما سر الموت والحياة، والتعريف بالله الذي يملكهما دون سواه، تعريفاً في حجاج قامع، وبيان للواقع، فلها صلة بآية الكرسي المقررة لصفات ربانية هي الأصل في الإماتة والإحياء، كسائر الأفعال الربانية الخاصة بالله لا سواه.

فالآية الأولى تعرض حواراً بين إبراهيم والذي حاجه في ربه، طياً عن ذكر اسمه إدراج الرياح، تصغيراً لكيانه، ولأن اسمه لا يزيد في شكلية الحوار وحصيلتها والعبرة بها، فلندرس ذلك الحجاج اللجاج من الذي حاج بكل نبراتها، تذرعاً إلى قوة الحجاج الإبراهيمية لحدّ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾!.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ...﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الهدى! أم ويأكل من رأى تلك الحجاج في تاريخ الرسالات! استنكاراً بتشنيع وتفظيع على الذي حاج، وتعجيباً عجيباً لمن يرى أو يسمع ذلك الحجاج، وحمق اللجاج من ناحية، وعمق الحجاج من أخرى.

﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: رب إبراهيم كما هو الحق المعترف هو به، ورب الذي حاجه كما هو الواقع المنكور لديه، فإنه رب العالمين، مصدقين له أو ناكرين، إذاً فضمير الغائب راجع إليهما على البدل، وما أجمله جمعاً كما هو دأب القرآن الفني الخاص في تأدية المعاني الواسعة، ولماذا ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾؟: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾! وتراه هو مُلك إبراهيم الذي آتاه الله روحياً وكما آتى بعض ولده وآله زمنياً، أم روحياً وزمنياً وكما يقول: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(١) تأويلاً لآل إبراهيم بإبراهيم وآله و﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ يجمع كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، مهما انفرد البعض منهم بإحداهما، حيث جُمعتا لآخرين كداود وسليمان ويوسف ومحمد ﷺ وأخيراً القائم المهدى من آله عليهم السلام.

ولقد سبقت آيةَ الملك هذه آيةُ الملك الروحي الرسالي المحمدي: ﴿أَمْ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.

لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ . . .﴾[1].

مما يمحور الملك الروحي، فليس الملك الزمني إلا على هامشه وتحت إشرافه، وليس الملك المتخلف عن القيادة الروحية إلا سلطة مغتصَبة إبليسية.

ومما يرجح هنا ملك إبراهيم أدبياً هو أقربيته مرجعاً من الذي حاجه.

ذلك! ولكن لـ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ لا تمت بصلة كسبب لمحاجته إبراهيم، إذ كان ناكراً لله، فضلاً عن ملك آتاه الله إبراهيم كقيادة روحية، ولم تكن زمنية ملموسة مصدقة!.

وقد يوجه ذلك الملك هنا بما نجاه الله من نار نمرود: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2] وكما يروى أن الحجاج كان بعد إلقائه في النار[3].

فتلك النجاة، الخارقة لكل العادات، الحارقة لنمرود وزمرته، إنها طرف طريف من ذلك الملك الروحي، الذي لا يوجد في أي ملك زمني منفصل عن الوحي، ولا سيما منعزل عن حق الملك كنمرود.

فقد تميّز نمرود غيضاً، فتحيز فرصة أخرى بحجاجة اللجاج، تعمية لتلك الخارقة الكبرى، وتدجيلاً عليه مرة أخرى فحاجة في ربه، وفي النهاية ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ مرة أخرى بعد الأولى، فلا السلطة الزمنية النمرودية قدرت على إحراقه، ولا حجاجه اللجاج سيطرت على دمغه وإحراجه،

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥٣، ٥٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٩ - ٧٣.

(٣) عن المجمع واختلف في وقت هذه المحاجة قيل: بعد إلقائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً عن الصادق عليه السلام.

فنجاه الله سليماً في كلتا المرحلتين، ثم هم أولاء الأنكاد الأوغاد ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾! وقد تعني ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ وقد يقربه أدبياً أنه هنا محور الكلام، فـ«أن أتاه» تعلل حجاجه بما آتاه الله، مهما كان أبعد مرجعاً.

ثم القيادة الروحية لا تسمى ملكاً مهما كانت هي حق المُلك وحقيقته، حيث المُلك ظاهر في واقع السلطة الملموسة، والسلطة الروحية على واقعها ليست ملموسة، بل وهي دوماً تعيش تحت ضغوط السلطات الظالمة الزمنية.

ولكن كيف ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ولا يؤتى مُلك الله إلا من يحق له ويستحقه؟.

إن إيتاء الملك هنا تكويني وليس تشريعياً وبينهما عموم من وجه: تكويني لا تشريعي كما هنا، بمعنى إنه لا يمنعه الله عن الملك مهما منعه تشريعاً حيث الدار دار الاختيار.

ثم تشريعي لا يوافقه التكوين كالقيادات الروحية في المعصومين، أئمة ونبيين، الذين صَدّ بينهم وبين سلطاتهم الزمنية، الشيطنات المدروسة من أصحاب السلطات الزمنية.

ثم الجمع بينهما كالذين ذكرناهم من ذي قبل، فداود عليه السلام ومن أشبهه جُمع له القيادتان.

ثم تكويني يوافق التشريع ولكنه ليست قيادة رسالية، كمثل طالوت الذي آتاه الله الملك دون نبوة، فإن قضية توحيد الإفعال إن لله تعالى دخلاً في كل خير أو شر دون إجبار، ومنها المُلك: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

فإتيان الملك لمن يحق له نبياً وسواه اعتلاءٌ، وإتيانه لمن لا يستحقه ابتلاء، وكل من الاعتلاء والابتلاء بملكٍ وسواه إنما هو من الله لا سواه، دون استقلال لأحد في ملكٍ وسواه.

ثم هنا ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ تعليل بما يناحر ذلك الحجاج اللجاج، فبديلاً عن أن يشكر ربه إن آتاه الله الملك، أخذته زهوة الملك وعزته فأخذ يجادل في الله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[1].

والجمع بين المحتملين أجمل وأجمع، حيث القرآن حمال ذو وجوه فاحملوا إلى أحسن الوجوه، وهو هنا وسواه مما أشبه، الجمع بين المعاني التي يحتملها أدب اللفظ وحدب المعنى!.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾:

أترى - وذلك بازغة الحجاج من إبراهيم - فأين البداية من الذي حاجه؟

إنها - لسخافتها كاسمه - أدرج درج الرياح، وقد يلوح من ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ . . .﴾ إن نمرود ادعى الربوبية لنفسه ثم قال له: ومن ربك أنت لأرى أينا أقوى وأحرى بالربوبية، فعرَّف إبراهيم ربه بأهم اختصاصات الربوبية: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: إحياء لكل الميتات التي تحق الحياة، وإماتة للأحياء التي تحق الممات، نباتية وحيوانية وإنسانية وملائكية أماهية.

فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان أمامنا على طول الخط، المعروضتان للإحساس والعقل دونما وقفة، وهما في الوقت نفسه من

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٥، ٢٠٦.

الأسرار المحيرة للعقول في كل الحقول، لا يتمكن العاقل ومن دونه أن يسندهما إلّا إلى الخالق المتعالي عن عجز المخلوقين.

إننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة والموت على الإطلاق حتى الآن، اللهم إلا مظاهر لهما، فنُلزم - إذاً - أن ننهي مصدرهما إلى قوة ليست من جنس القوى المحكومة بالموت والحياة وهو الله الحي الذي لا يموت.

ولماذا هنا «يحيي» قبل «ويميت» وفي كثير سواها «يميت ويحيى»؟ لأن هذه في مقام إثبات الحياة بعد الموت، ونمرود ناكر أصل المحيي والمميت فضلاً عن اليوم الآخر، إذاً فلا يناسبه إلا ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ الذي هو ملموس لكل أحدٍ.

ثم ومن هؤلاء الذين أحياهم الله هو نمرود نفسه، وتراه يرى نفسه أحياها بنفسه؟ وكذلك سائر الأحياء، فلا مجال له أن يدعي لنفسه الإحياء، ولكنه أخذ يلوي قصة الإحياء والإماتة بتوسعة تسعه وسواه من النماردة وسواهم:

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾:

وبكأنه هو المحيي والمميت ككل، إذ لم يعطف قوله بقول إبراهيم إشراكاً لنفسه بالله في الإحياء والإماتة، بل «أنا...» دون «وأنا...».

فحتى وإن عطف نفسه بالله في ذلك لم يكن إحياءه وإماتته فعلة ربانية، فإن كل أحد له سلطة مّا على آحاد بإمكانه ذلك الإحياء والإماتة، أن يقتل غير المحكوم عليه بالقتل، ثم يبقي المحكوم عليه به كما فعله نمرود، وقد يروى أنه قال له إبراهيم: أحي من قتلته إن كنت صادقاً[١].

ذلك! فضلاً عن أن يكون له - فقط - كل إحياء وإماتة بكل صورهما،

(١) عن المجمع وقد روي عن الصادق عليه السلام...

فمن هو المحيي له نفسه - إذاً - إلا الله، ثم ومن هو المحيي والمميت حقاً - ككل - إلا الله، وما مثاله إلا تقديماً لما يقدر عليه كثير أمثاله ودونه بكثير.

وهنا لم يكن من الصالح الرسالي في ذلك الظرف الهرج والمرج من السلطة النمرودية، الحاجبة للعقول والحلوم، أن يسترسل في جدل حول المعني من الحياة والموت، والقصد من الإحياء والإماتة، مع غبي قوي يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة.

ولكيلا يأخذ نقضه الناقص الجاهل القاحل مأخذَ من أوهام هاوية من شعبه، ممن تبهره سلطته الزمنية فيحسب باطله حقاً، ينتقل من هذه الحجة المحتاجة إلى تفهم، إلى حجة أخرى لا تحتاج إلى تفهم، وإنما يكفيها الحس مهما كان حيوانياً فـ:

حقيقة ملموسة كونية هي بمرأى ومعلمَ ذوي الأبصار، دون أن تتخلف ولا مرة يتيمة، يكفي لإدراتها حيونة الإبصار مهما كانت من إنسان أو حيوان، فلا مجال - إذاً - للحيونة النمرودية أن تحول بينها وبين دلالتها على الله، ولا مجال في أية مماراة.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾:

وحيث كانت الشمس الشارقة الغاربة قبل أن يُخلق هو وآباءه، لم يكن له أن يدعي إتيانه بالشمس من المشرق بنفسه فيعارض بالعكس: فليأت بها ربك من المغرب.

لذلك تراه هناك قال ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهنا «فإن الله» دون «ربي» ارتقاء من ربوبيته الخاصة - تنازلاً من إبراهيم في بداية الحجاج - إلى الربوبية العامة «فإن الله» فهنا لم يرد عليه بالنقض «فإني آتي بالشمس من المشرق». . . بل:

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

فهذه بهتة بحتة، لم يسطع عنها فراراً إلا إقراراً برب العالمين، حيث التحدي قائم على سوقه، ولا مدخل ولا مسرب لأي دخيل من تضليل وتدجيل، اللهم إلا بُهتاً بَحتاً مهما ثبت على كفره عناداً واستكباراً.

فتلك آية في الأنفس ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهذه حقيقة في الآفاق: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ...﴾ حقيقتان متجاوبتان في ذلك الميدان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]: - ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

وهنا تتجاوب حيوية الإنسان في حاجياته البدنية والروحية، فكما يبحث عن الهواء والماء وما أشبه، ويجده بغية الحيوانية ببساطة، كذلك حين يبحث عن عقيدة صالحة فهي على الأبواب التي يقرعها فطرية وعقلية وحسية، فإن الله أرحم بعباده أن يكلهم في قصة الإيمان الساذج إلى طائل العلم وغائلة الذي قد يتأخر أو يتعثر ويتبعثر، وإنما يكلهم إلى ما هو بمرآهم في الأنفس والآفاق، مهما كان لمن فكر مزيد الأثر في بالغ الإيمان ونابغه

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾:

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

هناك في نمرود «الذي» وهنا «أو كالذي» أفليس هو المقصود بنفسه في هذا التوجيه فجاء مشبهاً به، ومن هو الذي أشبهه حتى يكون هو المقصود؟

والذي مرّ على قرية هو أحرى أن يقصد لحاضر قصته!؟.

قد تعني «كالذي» هنا تعميماً للممثل به إلى أضرابه، كيلا يُظن أنه الفريد في نوعه، فيذهب السامع إلى أي مذهب من هذا المثال البارع، وقد تُذكر أمثاله في القرآن بصور أخرى في سور أخرى وهذه كـ ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾[1] ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

فهنا حجج ثلاث تُعرض كأمثال مترتبة، حجة عقلية وحسية هي في الحجاج الأوّل، وهي تعم كافة المكلفين، سواء الذين يؤمنون أو لا يؤمنون.

ثم حجة واقعية ملموسة هي أعلى من الأولى، كالذي مرّ على قرية، حيث لمس في نفسه وفي حماره إحياء الموتى، بعد علمه به كما يجب، وهي للمؤمنين ومن أرسل إليهم.

ثم حجة هي أوقع في القلب، آراءة لملكوت الإماتة والأحياء، دون ظاهر منهما، أو حجة لهما، كما حصلت لخليل الرحمن ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولقد حلّقت حجج محمد ﷺ - المخاطب بهذه الثلاث - هذه وزيادة، هي قضية إمامته على المرسلين ككلٍّ، و«ألم تر» ترفع من حججه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

على هؤلاء إذ أراه الله إياها بعد مضي زمنها وكأنها حاضرة لديه، بحق اليقين، والذي مرّ على قرية رآها بعين اليقين، وإبراهيم رآها بحقه عيناً حاضراً، ولكن محمداً ﷺ أريها - تشريفاً له - بحق اليقين كأعلى قممه دون أن يساوى أو يسامى.

وترى الذي مرّ على قرية هو عزير؟ أو أرمياء وهما نبيان؟ وهكذا تشكّك في البعث لا يناسب الإيمان فضلاً عن النبوة ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾! ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ...﴾ تبيناً بعد البعث واستعجاباً قبله!.

ولكنه ليس تشككاً، بل هو سؤال عن الزمن الذي يحييهم الله، استعظاماً لذلك الإحياء ثم «اعلم» دون علمت دليل استمرارية علمه دون حدوثه بإحيائه، والتبين ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ هو حاضره المشهود، بعد حاضر العلم المعهود.

ذلك، ثم الله ليس ليوحي إلى غير نبي مهما كان من أخلص المؤمنين وقد أوحى إلى الذي مرّ على قرية: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ...﴾ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ...﴾ ﴿فَٱنظُرْ...﴾ ﴿وَٱنظُرْ...﴾ ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً...﴾ ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ خطابات ست ضمن تشريفه بإحيائه بعد إماتته مائة عام ليريه بأم عينيه إحياءه بعد موته.

وقد تظافر الأثر إنه عزيز النبي الذي قالوا عنه ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[١] لإخراجه التوراة بعد فقده أو حرقه، بعد ما أحياه الله بعد أن أماته مائة عام مهما ورد شاذاً أنه أرمياء، ولا يهمنا هنا معرفة الاسم كما أجمل عنه القرآن، فإنما القصد إلى أصل البعث بعد الموت أياً كان المبعوث وأيان.

و«قرية» تراها هي بيت القدس؟ ولم تأت منكرة في سائر القرآن فإنها

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[(١)] و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[(٢)] وما أشبه!.

أم هي القرية التي خرج إليها ألوف حذر الموت؟ وهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟ لا أنهم دخلوا قرية! ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وليس لخارج الديار عروش! ثم الله أحيى الألوف، فلو كانت هي تلك القرية لم يمته ثم يحييه، إذ كان في إحيائهم كفاية عن سؤاله بسؤاله، إنها «قرية» دون زيادة أو نقصان، حيث القصد هو البعث بعد الموت أياً كان الكائن والمكان.

وقد تعني «قرية» القدس، حيث كانت خربة بما هاجمها بخت النصر بما ظلم أهلوها، فهُتكوا كما هُتكت، هتكاً للمكان، والمكان اعتباراً بظلمهم دون المكان، فعبر عنه بـ«قرية» وكما عبّر عن مكة المكرمة بـ«قرية» حيث أخرجت الرسول ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[(٣)].

وجامع الأمر في تنكير ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ﴾ و﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هو استصغار الأمر لكسر سورة الاستبعاد، أن ذلك وما فوقه على الله هين دون سغب ولا صعب، وكما نكر ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ توهيناً له ولحجاجه، وذكر إبراهيم هناك وفي ﴿رَبِّ أَرِنِى﴾ تشريفاً له وتكريماً، وتبييناً أنه في ذلك الموقف منقطع النظير، اللهم إلا ما كان من هذا البشير النذير.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: محطمة على قواعدها وسقفها - شجرية أم حجرية أماهية - عن بكرتها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٣.

وطبيعة الحال في المار فجأة على هكذا قرية أن تسبق بلسانه قولة العجاب، قضية مشهد البلى والخواء دون أيّ بواء، وقعاً عنيفاً في حسه وعقله لحدّ القول: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

فـ ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ...﴾ سؤال عن زمن الإحياء دون أصله: هل يحيي، أم وصله: كيف يحيي، وإنما سؤالاً عن فصله، أيان ذلك الإحياء.

أم أنه تطلّب لذلك الإحياء كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(١) مهما اختلف كيف عن زمان.

فقد التمس لزمن مّا - كما يراه الله - أن يحيي هذه الله بعد موتها، ليزداد عين اليقين إلى علم اليقين، كما تطلّب إبراهيم كيفية الإحياء مزيداً لحق اليقين إلى علمه وعينه.

و«هذه» هنا ليست هي نفس القرية الخاوية، فإن صيغتها الصالحة: أنى يعمر الله هذه القرية بعد خرابها! ثم وليس من المرجو عادياً ولا سواه تعمير القرى الخربة إلا ممن قد يعمرها من أهليها، ثم ولا صلة لـ ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ...﴾ بإظهاره القدرة لتعمير خراب القرية، فإنه أمر متعوّد لمعمري البلاد الخربة دون حاجة لتصديقه إلى خارقة الإماتة والإحياء بعدها!.

كما ليست هي الميتات المقبورة، إذ ليست هي مما تحير وتعجب المار بها، بل هي بالية الأجساد، ونخرة العظام المكشوفة على أرض القرية الخاوية على عروشها، وهنا ترتبط ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ...﴾ بعجاب القرية الخاوية، ولكي يرى الإحياء بعد الإماتة بأم عينيه.

وقد استجاب له ربه ومزيداً حيث أماته وحماره مثالاً ذاتياً له يريه به عين ما سأل في ذاته ومتعلقاته: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

وقيلة القائل أن الإماتة هنا هي الإسبات، أن ظلوا في سُبات كأصحاب الكهف، إنه سُبات من التفسير، حيث الصيغة الصالحة له هي صيغته، أم كما في أصحاب الكهف ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[١].

ثم إذا جاز السبات مائة سنة في قدرة الله - كخارقة - فلم لا يجوز الموت، وهما من مصدر واحد، فلماذا ذلك الاستيحاش من الموت المؤقت في الحياة الدنيا، وهو واقع البرهان على الحياة بعد الموت المطلق؟!.

أجل ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ ثم ماذا؟ ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ دون أحياه، حيث البعث هو الإحياء كما كان دون أن يتسنّه بفترة الموت بمضي المائة، أو تُحسب من عمره، ففي إماتته إراءةُ فجأتها كما رآه في القرية الخاوية، وفي مكوثه طيلة المائة إراءة ثانية هي أن طول أمد الموت ليس ليؤثر بُعداً أم صعوبة في الإحياء، وفي إنشاء العظام ثم كسوها لحماً بمنظره ومرآه إراءة ثالثة لهوان أمره على الله كما أنشأها أوّل مرة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٢].

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وإنه سؤال عضال، إذ ليس ليعرف الميت زمن لبثه، فقد يرى الزمن الطويل قصيراً لملابسة طارئة، كما يرى اللحظة القصيرة طويلة لملابسة أخرى، فإنما سئل ليتبين عجزه عن العلم بزمن لبثه، وليعرف أن طائل اللبث في الموت لا طائل تحته كعرقلة للحياة بعده، إجابةً ما عن «أنى» في احتمالتها الأولى، فليس قرب زمن الموت وبعده، وتمزُّق الأجزاء وبقاءها وما أشبه، مما يقرب الإحياء أو يبعده، فإن الله هو العلي القدير.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

ولماذا التردد بين ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ علّه لأنه مات بداية النهار ثم فوجئ بالإحياء بعد الزوال فقال «يوماً» تحسباً لأوله وغفلة عن آخره، فلما انتبه ببقاء النهار قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ومما يدلك على ذلك الطائل وتلك القدرة الخارقة إنك ترى بوناً بعيداً بين حمارك البالي وشرابك وطعامك وفي كل دليل على كلٍّ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم تأخذهما سنون ولا سنة، بل ولا ساعة، حيث لم يتغير لا طعامك «التين» ولا شرابك «العصير» وهما يتغيران بقصير الزمن، وقد مضت مائة ولم يتسنه، وهذا إذا كانت «يتسنه» من السَنة، ولكنها من «السنّ»: التغيير، والهاء - إذاً - للسكت - كما في: مالِيَه - سلطانيه - اقتده - ماهية، أماهية وهذا أصلح في أدب اللفظ حيث الهاء - ولا التاء - قد تشير إلى غير السنة، وفي شمول المعنى ومناسبة الحال، حيث التين والعصير ليسا مما تأخذهما السنة، بل ويوم بما دونه يغيرهما.

إذاً فقد تعني عدم التغير بتاً مهما كان قليلاً، كأن لم يمض عليهما حتى يوم أو بعض يوم فضلاً عن سنة أو مائة!.

ولماذا ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ مفردة وهناك «شرابك وطعامك»؟ الوجه أدبياً أنه راجع إلى المعطوف عليه، ثم المعطوف مشمول له بعطفه عليه، وعلّه معنوياً، حيث كان تسارع الفساد إلى شرابه أكثر من طعامه، فتسنُّه طعامه أولى من شرابه، وقد تظافر الخبر على أن شرابه عصير أو لبن، وأن طعامه تين طازج، وما أسرع إليهما تسنهاً وتغيراً ولا سيما في فضاء فارغ مكشوف، ومهب الأرياح وإشراقة الشمس والغبار!.

ولماذا النظر الأول إلى شرابه وطعامه لم يتسنه، ولا يمت بصلة لتصديق إنه لبث مائة عام؟ علّه لأنه قد يخيّل إليه - بطبيعة الحال - إنه في نفسه لم يتسنه فكيف لبث مائة عام، فأمر بالنظر الأول.

ثم ليظهر له بعين اليقين ذلك اللبث أمر بالنظر الثاني: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ . . .﴾ وقد تسنّه، دليلاً على لبثه بحماره ردحاً بعيداً من الزمن.

ولقد أجمل عن إماتة حماره مع إماتته، تحاشياً عن ذلك القرن المزري، وأدباً بارعاً لموقف ذلك النبي، وقد علم موته ثم إحياءه من مطاوي الآيات ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ . . .﴾ ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ . . .﴾!

وإذا قدرنا تغير التين الطازج والعصير في فضاء فارغ لحدّ يوم، فقد تضاعف أمد التسنّه لهما إلى/ ٣٥٥٠٠ ضِعفاً.

وهنا الحجة البالغة لنا على ناكري طائل العمر لصاحب العصر والزمان إمام الإنس والجان محمد بن الحسن المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، أن أقل المرجو من طائل عمره قياساً إلى ذلك الطعام والشراب/ ٣٥٥٠٠٠٠ سنة إن كان العمر الممكن في العادة مائة سنة، وأين هي من عمره الآن ١١٥١ سنة، وتلك المقدَّرة له عليه السلام قرابة ثلاثة آلاف أضعاف هذه الواقعة له حتى الآن.

ومن ثم إذا قايسنا لبث يونس في بطن الحوت: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[1] ولا يلبث الحي في بطن الحوت - وهو له خناق مضاعف - إلا قرابة خمس دقائق، وكل يوم/ ٢٨٨ ضعفاً لها، فكل سنة تصبح/ ١٠٤٢٤٠ ضعفاً، فهي حتى الآن - وقبل يوم يبعثون ببضعة الآفات من السنين - إذا قدرنا الفاصل بيننا وبين يونس ثلاثة آلاف - تصبح ٤١٢،٧٢٠،٠٠٠ ضعفاً، فإذا قدرنا عمره المتعوّد مائة سنة أصبح المرجو تقديراً لعمره الممكن حسب القرآن ٤١،٢٧٢،٠٠٠،٠٠٠٠، وأين قرابة أربعين ملياراً بذلك التقدير و١١٥١ سنة تمضي حتى الآن من عمره الشريف.

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.

ثم ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وهو أقوى وأقوم من شرابك وطعامك بمئات الأضعاف وقد بليت عظامه ورمدت، فقد أصيب حماره بما أصيب، ولكن شرابه وطعامه لم يتسنه، تبايناً ظاهراً في المصير، والجو نفس الجو والمسير نفس المسير، تعرضاً لمؤثرات جوية، هي على شرابه وطعامه أكثر من الحمار بمئات المضاعفات.

ولماذا عرض ذلك التغاير المغير المثير؟ لكي يرى مختلف التقدير من العزيز القدير والزمن واحد، والجو فارد، وباعث التسنة فيهما على حدّ سواء وارد.

ثم ولكي يتبين له عياناً بعد بيان إنه كان ميتاً مائة سنة، فإنه لم يتبين له طول أمد اللبث بحياته بعد موته إلا ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ وقد بيّن له حماره، وأمامه شرابه وطعامه لم يتسنه.

ذلك! ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ رسولية ورسالية أماهية؟ والواو هنا عطف على محذوف معروف بالسياق كالذي سبق، فهو آية لنفسه أولاً وآية للناس ثانياً، ولكن الأصل هنا هو كونه آية للناس، لا آية لنفسه إذ كان على يقين بما أصبح له آية!.

ولقد كانت آية للناس قوية لدرجة اعتبروه ابن الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[1] حيث أحياه الله بعد موته مائة عام، وأحيا التوراة المفتقدة بيده، فبهر اليهود لحدّ قالوا قولتهم الجاهلة القاحلة ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾! كما وردت في روايات عدة.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾ عظام حمارك في القدر المتيقن لمكان ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ﴾ دون «لنجعلكم» وقيلة القائل أنها عظامه مردودة بـ ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ الدالة على كامل البعث، فكيف بقيت - إذاً - عظامه غير منشرة ولا

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

مكسوة لحماً حتى ينظر إليها؟ وما هي الحاجة إلى ذلك وفي النظر إلى حماره كفاية! ثم ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لا تساعد على ذلك النشز والكسو!.

ذلك! رغم ما وردت به الرواية دون أية رعاية أو دراية(١).

﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ رفعاً لها عن خفضها في رمادها البالية «ثم» بعد نشزها ﴿نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وكما نخلقكم في بطون أمهاتكم: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا...﴾(٢) فقد كان نشزاً عن خفض الأرض، وخفض الرماد، إلى عالية العظام بعد ما كانت نخزه!.

فقد أري الذي مرّ على قرية كيفية نشز العظام وكسو اللحوم، كظاهرة مرئية ببصر العين، لتزيده عين اليقين إلى علم اليقين.

وفي مثلث الأمر بالنظر هنا عِبَر: فبادىء النظر إلى شرابه وطعامه يحيره كيف لبث مائة عام وكل منهما لم يتغير، وثاني النظر إلى حماره النَخِر يحيِّره كيف هكذا تغير إن لم تمض مائة سنة، ثم وكيف لم يتغير شرابه وطعامه في ذلك الغِير! وثالث النظر يوقفه على «كيف يحيي هذه الله بعد موتها» بعين البصر بعدما كان واقفاً عليه بالبصيرة النافذة.

نظرات ثلاث تحوي نظرات ثلاث من تلك الإماتة والإحياء ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾!.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ما لم يكن يتبين لولا ما أراه الله، مهما كان يعلم تلك الحقيقة الكبرى، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٦٩ في الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: وأمات الله أرميا النبي الذي نظر إلى خراب بيت المقدس وما حوله حين غزاهم بخت نصر وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي...﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩] ثم أحياه ونظر إلى أعضائه كيف تلتئم وكيف تلبس اللحم وإلى مفاصله وعروقه كيف توصل فلما استوى قاعداً قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩].

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

فهنا ﴿أَعْلَمُ﴾ تأشيراً لاستمرارية علمه، مهما انتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، وليس «الآن أعلم» أو «علمت».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾:

هذه مرحلة ثالثة هي القمة في الإبقاء بالإحياء بعد الموت، حيث تحمل سؤالاً عن كيفية الإحياء وإجابة عنها، حيث النص ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ عناية إلى كيفية فعله تعالى: «. . .والكيفية من فعل الله عز وجل متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب ولا عرض في توحيده نقص»(١) دون ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ سؤالاً عن الكيفية الظاهرة لكل ناظر كما كان لعزير، وليس الاستدراك في ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إلا إعلاناً صارخاً للسامعين أن ليس سؤاله هذا نتيجة عدم الإيمان فإنه «بلى» إيماناً صارماً بعلم اليقين وعين اليقين، فإنما يقصد إلى حق اليقين: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ اطمئناناً يتم فيه الإيمان ويطم قلب صاحب الإيمان(٢)، وكأنه هو الذي أحيى الموتى عارفاً حقيقة إحيائه، اللهم إلّا ما يختص بالله سبحانه من علم الإحياء - التام - الذي قضيته القدرة التامة على الإحياء، حيث العلم المحيط بشيء يساوق القدرة عليه.

---

(١) في معاني الأخبار عن الصادق عليه السلام في الآية في حديث قال: وهذه آية متشابهة ومعناها أنه سأل عن الكيفية!. . .

(٢) نور الثقلين ١: ٢٧٥ في محاسن البرقي عنه عن محمد بن عبد الحميد عن صفوان بن يحيى قال سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] أكان في قلبه شك؟ قال: لا - كان على يقين ولكنه أراد من الله الزيادة في يقينه، فيه ٢٨١ عن الكافي عن القمي عن محمد بن عيسى عن يونس عن الحسين بن الحكم قال: كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام أخبره إني شاك وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وأنا أحب أن تريني شيئاً، فكتب عليه السلام أن إبراهيم كان مؤمناً وأحب أن يزداد إيماناً وأنت شاك والشاك لا خير فيه.

وقد تعني «بلى» - فيما عنت - إيمانهَ بخلَّته لله، المرجوة له من قبل الله، وقد كان استجابته في إحياء الموتى آية له بيّنة[١] ولكنه لا تلائم الآية مهما لا تعارضها، حيث إن آية الخلة حسب الرواية هي إحياء الموتى بطلبه ومرآه، لا والكيفية المتطلبة هنا ﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾.

هذا - وهو على أية حال لم يكن شكاً من إبراهيم في أصل الإحياء، فإنما تطلب حق اليقين برؤية كيفية الإحياء، فإن واقع العلم بأفعال الله محجوب عن خلقه إلا بعض من اصطفاه لهذه المنزلة الرفيعة، إظهاراً له من غيبه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾﴾[٢] فقد ارتضى إبراهيم لإراءه غيبة في إحياء الموتى كما ارتضى سائر المصطفين لغيب الوحي، ولكن ذلك الغيب ميزة لإبراهيم فيه عن سائر درجات الوحي، فإن ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ لا يفي إلا الناحية الرسالية المتطلبة وحي الرسالة كأصل، دون سائر الغيب، اللهم إلا المرتضى الأعلم والأعلى رتبة في كل غيب بالإمكان إراءته لمرتضى.

فإذا أرى إبراهيمه الخليل كيف يحيي الموتى بما سأل، فقد كان يري محمده الحبيب ذلك الكيف قبل أن يسأل، وكما رفعه في معراجه إلى القمة

---

(١) المصدر في عيون الأخبار متصلاً عن علي بن محمد بن الجمح قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون بائن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] - إلى أن قال -: فأخبرني عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]؟ قال الرضا عليه السلام إن الله تعالى كان أوحى إلى إبراهيم أني متخذ من عبادي خليلاً إن سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في نفس إبراهيم عليه السلام أنه ذلك الخليل فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ... قَالَ فَخُذْ...﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

المعرفية المنقطعة النظير حيث ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[(١)].

فلنضرب الرواية المختلقة - الناسبة إليه الشك في إحياء الموتى - عرض الحائط، ذوداً عن ساحة الرسالة القدسية، وتنزيهاً للخليل على هامش الحبيب[(٢)].

ولقد ضمنت كيفية إحياء الموتى عُجاب جمع الأجزاء المتفرقة كما كانت أول مرة، فكما أن بُعد الزمان هناك لم يكن بمبعدٍ لإعادة الميت كما كان، كذلك أبعاد المكان أم أية أبعاد ليست لها أي إبعاد لإحياء الموتى.

فحين تضل أجزاء في أجزاء - عنا - ليست لتضل عن مميت الأحياء ومحييها: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ. . .﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)] فقد زوّد إبراهيم في إحياء الموتى إلى رؤية الكيفية لأصل الإحياء، رؤية جمع الأجزاء التي ضلت بعضها إلى بعض[(٤)].

وتراه كان مشتبهاً بشبهة الآكل والمأكول كما تلمح الرواية؟ كلا! حيث

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٣٥ - عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن. . .﴾ ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»!.

(٣) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) نور الثقلين ١: ٢٨٠ في روضة الكافي متصلاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما رأى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض التفت فرأى جيفة على ساحل البحر نصفها في الماء ونصفها في البر تجيء سباع البحر فتأكل منها فتشد بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً وتجيء سباع البر فتأكل منها فيشد بعضها على بعض ويأكل بعضها بعضاً فعند ذلك تعجب إبراهيم عليه السلام مما رأى وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠]؟ قال: كيف تخرج ما تناسل التي أكل بعضها بعضاً، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] يعني حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً. . .﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

الجواب ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ. . .﴾ ليس فيه خلطهن بعد تقطيعهن، مهما تستفاد من ذلك الإحياء - ضمنياً - الإجابة الوافية عن الشبهة.

وقد يقرب أن تطلُّبه هذا كان بمرأى نمرود بعد تدجيله في حجاجه، لكي يريه إبراهيم أن القصد من إحياء الموتى هو ما يريد ربه لا ما افتعله نمرود وكثير مثله يفعلون مثلُه.

فقد تطلّبه في ذلك الموقف الحرج المرج بالنسبة لأهل الموقف، لكي يريهم عدم وهن حجاجه، وإن انتقاله إلى أخرى لم يكن إلا لغباوة نمرود وتجاهله عن حقيقة الأمر.

وقد يبعده أن ذلك المجال العجال ما كان يسع فسحة ذلك الإحياء، إمالة للطير إليه، ثم جعل أجزائهن المتفرقة على كل جبل، ثم دعوتهن ليأتينه سعياً، اللّهم إلّا لمن واجه واقع القصة على طَولها وطُولها! ولكن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ. . .﴾ يبعده ثانية فإن بابل ليست تحمل جبالاً، فقد كانت القصة بعد انتقاله إلى سوريا الأردن.

أو إنه سأله تعالى تساءلاً عنه من قومه، ليروا بأم أعينهم كيف تحيى الموتى، ولكن «تحيي» تمنع أن يكون هو السبب، فإنما ذلك من هوامش السبب والأصل هو رؤية الملكوت.

وقد يجمع إلى كل هذه أن إحياء الموتى بدعائه ثم دعوته كان من آيات رسالته، تقوية للمؤمنين، وحجة بالغة على الناكرين.

وعلى أية حال لم يكن هنا أو هناك شك في إحياء الموتى حتى يطلب بعيانه بيانه وانتقال إلى اليقين، فهناك «أنى» سؤالاً عن زمانه دون أصله، وزمان الإحياء مجهول لدى الكل، وهنا «كيف» سؤالاً عن كيفية وليس إلا بعد العلم بأصله، والعلم بالكيفية محجوب عن الكل.

فقد زوّد سائل «أنى» برؤية العين لأصله بعد العلم به، ثم سائل «كيف»

برؤية الكيف فوق أنّاه وأصله، وسائر النتائج إيجابية وسلبية إنما هي طوارئ على إجابة الكيف، وفي ﴿وَإِذْ قَالَ...﴾ تلميحة لطيفة أن المخاطب بـ «آلم تر... أو كالذي» عرف كل الثلاث كأنه حاضر لديها «آلم تر... إذ قال إبراهيم» سمعاً لقاله، ورؤية لحاله، ومشاهدة للكيف الذي تطلبه، دون سؤاله، فقد حلق على ذلك المثلث البارع من مراتب العلم وزيادة هي من ميزات أوّل العابدين وآخر النبيين.

وترى ما هو موقف العاطف في ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾؟ إنها تبرأة لساحة الخليل ألّا يؤمن بوعد الجليل، فإن ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ تشعر بإمكانية عدم إيمانه، ولكن الواو تعطف إلى محذوف معروف، أنك بعدما آمنت بالبينات ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ كما ترجوه وبه تطمئن؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمنت ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بحق اليقين، حظوة من حيطة علمية بـ ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ كما يمكن لغيرك يا رب، فما ذلك السؤال إلا لسؤال التشوف إلى ملابسة سرّ الصنعة الإلهية، وملامسة الملكوت: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(١) إنه أمر وراء الإيمان بالبرهان والبرهان للإيمان، إنه تطلُّب لرؤية السر الرباني في كلمة التكوين كما يُسمح لمثل الخليل من عطف الجليل، فلا تحيله استحالة الحيطة على الملكوت، فإن لها مراحل تختص قمتها بالله تعالى ولا يحيطون به علماً.

صحيح إنه هو - فقط - عالم الغيب ولا يظهر على غيبه أحداً، ولكن قد يستثنى مَن ارتضى ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ قد يظهره على غيب له دونما يختص بساحته تعالى.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ...﴾ هنا نتعرّف إلى أبعاد ﴿تُحْيِي

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنه لم يكن - فقط - لغرض رؤية أصل الإحياء، بل وكذلك رؤية جمع مختلف الأجزاء من مختلف الأموات، فلو أن كان القصد هو أصل الإحياء لكان يكفي من الطير واحد ثم الزائد زائد بائد، إذ لا يتعلق بالزائد فائد ولا عائد، وفصيح الإجابة وبليغها إنما هما في إجابة وفق السؤال.

فقد زودّ الخليل عليه السلام - إذاً - بمزيد إراءة الملكوت لإحياء الموتى أصلاً وفصلاً، وهو القول الفصل هنا في الإجابة عن ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

كما وإن في «الطير» ميّزة عن غيرها في تلك الإراءة البارعة، فكما الطير تطير أحياءً، كذلك نجعلها تطير أمواتاً حيث ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وذلك أبدع من تطاير أجزاء أية دابة.

ومما لا بدّ منه في «أربعة» أن تكون من صنوف أربعة، ولكي تصبح في ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ متخالطة بعضها ببعض، فيصبح إحياءهن ورَجعهن إلى ما كُنَّ أول مرة، دليلاً ناصعاً على أن الخلط في خلط ليس ليخلّط على الله تمييز الأجزاء في الإحياء.

فقد تضل عنا أجزاء حيوان في مثله، ثم يضلان في ثان ثم ثالث ثم رابع، ولكنها ليست لتضل عن الله تعالى شأنه، كيف وهي لا تضل عن ملك الموت فإنه يتوفى الأرواح والأجساد دونما زلة ولا ضلة، بإذن الله، ثم ترجع كما كانت بإذن الله!.

﴿فَخُذْ... فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ...﴾ «صرهن» من صار يصور صوراً[1]،

---

(١) في لسان العرب: رجل أصور: مائل مشتاق، صُرت إلى الشيء: أملته، في رأسه صور أي ميل، وفي صفة مشيه صلى الله عليه وآله وسلم كان فيه شيء من صور أي ميل - أي إذا جد به السير لا خلقة، وفي حديث عمر: نتعطف عليهم بالعلم قلوب لا تصورها الأرحام أي لا تميلها، وفي حديث ابن عمر: إني لأدني الحائض مني وما بي إليها صورة أي ميل وشهوة تصورني إليها، وفي حديث عكرمة: حملة العرش كلهم صور، وهو جمع أصور وهو المائل العنق لثقل حمله.

مال، وحيث تعديت بـ «إلى» فهي الإمالة، وقد تأتي بمعنى القطع والفصل[1].

وقد يجوز أن تعني «صرهن» كلا الإمالة والقطع، فهي في الأولى لازم وفي الثانية متعدٍ، وقد عني هنا منها الجمع، فـ «إليك» نصٌّ في الإمالة، وبضمها القطع بمعناه الآخر، فقد جمع فيها بين إمالة الطير الأربعة إليه ثم تقطيعها ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾.

فقد يستفاد تقطيع الطير هنا من «صرهن» ثم من ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ حيث الجزء لا يطلق على كل واحدة من الطير، وإنما أجزاؤها المجزأة بالتقطيع.

ولماذا الإمالة قبل التقطيع؟ انها لمعرفة شاملة بها حتى يعرفها بعد الدعوة أنها هيه بأعيانها دون غيار، كما وإن في تلك الإمالة أنساً لها به عليه السلام لا يُنسى بالإماتة، ولولا ذلك الأنس لما أجابت دعاءه أن ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ فإنما الناتج عن إحيائها - وهو فعل الله - أن تحيى فتطير حيثما شاءت، دون جهة خاصة يعنيها إبراهيم الخليل عليه السلام.

فقد تلمح ﴿فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ إن إحياءهن لم يكن من فعل إبراهيم، وكما أنه تطلب من ربه ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ لا «أحيي الموتى».

وكما تؤيده ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ حيث الدعاء الموجه إليهن - كطير - لا الموجه إلى أجزائهن، دليل أمره بدعائهن بعد إحيائهن، فهن «يأتينك» دعاء «سعياً» حيث أنسن بك من ذي قبل، وترى «كل جبل» تعني كل جبل الدنيا؟ وهو تكليف بالعسير العسير، دون أن يحوي يسيراً من الحكمة في هكذا عسير!.

---

(١) لسان العرب: وصرت الشيء أيضاً قطعته وفصلته، قال العجاج: صرنا به الحكم وأعيا الحكما وفي حديث مجاهد: كره أن يصور شجرة مثمرة، والصوّار القطيع من البقر.

إنها بطبيعة الحال هي الجبال المحيطة به في الأفق الذي كان يعيش فيه، أربعة أو عشرة أماهية، والاستدلال بـ«جزءً» هنا أن الجزء عُشرٌ في عرف القرآن، مبني على تأكد العشرة من «كل جبل» وألا يأتي الجزء في سائر القرآن لغير العشر، وقد أتى للسُبع: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1] فهم - إذاً - سبعة أصناف، لكي تختص كل باب من السبعة بصنف منهم، وكما أتى لجزء طليق يعم كل جزء من الكل: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[2].

إذاً فلا مجال للاستدلال بالجزء الأول على كونه العُشْر مهما ثبت أن الجبال هناك كانت عشرة، فالروايات المنسوبة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام أن «جزءً» هي العشر بصورة مطلقة[3]، إنها مختلقة لا يُعنى منها إلا التجديل

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٣) نور الثقلين ١: ٢٨١ في الكافي متصلاً عن عبد الرحمن بن سبابة قال: إن امرأة أوصت إليّ وقالت: ثلثي يقضى به ديني وجزء منه لفلان فسألت عن ذلك ابن أبي ليلى فقال: ما أرى لها شيئاً ما أدري ما الجزء فسألت عنه أبا عبد الله عليه السلام بعد ذلك وخبرته كيف قالت المرأة وبما قال ابن أبي ليلى فقال: كذب ابن ابن ليلى لها عشر الثلث أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] وكانت الجبال يومئذ عشرة فالجزء هو العشر من الشيء.

ورواه عنه عليه السلام مثله معاوية بن عمار استدلالاً بالآية، عن أبان بن تغلب قال قال أبو جعفر عليه السلام الجزء واحد من عشرة لأن الجبال عشرة والطيور أربعة.

وفيه ٢٧٨ عن العياشي عن عبد الصمد قال: جمع لأبي جعفر المنصور القضاة فقال لهم: رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء؟ فلم يعلموا كم الجزء وشكوا فيه فأبرد بريداً إلى صاحب المدينة أن يسأل جعفر بن محمد عليه السلام رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء فقد أشكل ذلك على القضاة فلم يعلموا كم الجزء فإن هو أخبرك به وإلا فاحمله على البريد ووجهه إلي فأتى صاحب المدينة أبا عبد الله عليه السلام فقال له: إن أبا جعفر بعث إلي أن أسألك عن رجل أوصى بجزء من ماله وسأل من قبله من القضاة فلم يخبروه ما هو وقد كتب إلي إن فسرت ذلك له وإلا حملتك على البريد إليه فقال أبو عبد الله عليه السلام هذا في كتاب الله بين إن الله يقول - لما =

عليهم وتجهيلهم بأمثال هذه السنادات المدخولة اللهم إلا بتأويل[(١)] ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ : «عزيز» فيما يريد، غالباً على أمره أياً كان «حكيم» في تحقيق مراده، دونما فوضى جزاف، ثم «اعلم» هنا ليس علماً عن جهل، بل هو مزيد علم وكما أمر الرسول ﷺ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[(٢)] وهناك الله علّم إبراهيم علماً بما أراه كيف يحيي الموتى.

وإذا يستجاب إبراهيم الخليل عليه السلام في ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فبأحرى أن يستجاب الأئمة من أهل بيت الرسول عليهم السلام ، أن يحيي لهم بعض الموتى في مقام المقارعة[(٣)] وهم مجتازون علم الكيفية، لأنهم يسأمون محمداً ﷺ

= قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ - إلى قوله -: ﴿كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، وكانت الطير أربعة والجبال عشرة يخرج الرجل لكل عشرة أجزاء جزء واحداً...

(١) بأن يقال إن الجزء مهما كان طليقاً لأي جزء حين لا يحدد، ولكنه حدد في القرآن بالسبع والعشر فحين لا نجد سبيلاً لتحديد الجزء في وصية وسواها فالمرجع هو القرآن وقضية الاحتياط في الوصية أن نأخذ بأقل الجزأين.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣) نور الثقلين ١ : ٢٧٦ عن العيون في باب استسقاء المأمون بالرضا عليه السلام بعد جري كلام بين الرضا عليه السلام وبعض أهل النصب من حجّاب المأمون فغضب الحاجب عند ذلك فقال يا بن موسى لقد عدوك طورك وتجاوزت قدرك أن بعث الله تعالى بمطر مقدّر وقته لا يتقدم ولا يتأخر جعلته آية تستطيل بها وصولة تصول بها، كأنك جئت بمثل آية الخليل إبراهيم عليه السلام لما أخذ رؤوس الطير ودعا أعضاءها التي كان فرقها على الجبال تأتينه سعياً وتركبن على الرؤوس وخفقن وطرن بإذن الله عزّ وجلّ فإن كنت صادقاً فيما توهم فأحيي هذين وسلطهما عليّ فإن ذلك يكون حينئذ آية معجزة فأما المطر المعتاد خلت أنت أحق بأن يكون جاء بدعائك من غيرك الذي دعا كما دعوت وكان الحاجب أشار إلى أسدين مصورين على مسند المأمون الذي كان مستنداً إليه وكانا متقابلين على المسند فغضب علي بن موسى الرضا عليه السلام وصاح بالصورتين: دونكما الفاجر، فافترساه ولا تبقيا له عيناً ولا أثراً فوثبت الصورتان وقد عادتا أسدين فتناولا الحاجب ورضاه وهشماه وأكلاه ولحسا دمه والقوم ينظرون متحيرين مما يبصرون، فلما فرغا أقبلا على الرضا عليه السلام وقالا: يا ولي الله في أرضه ماذا تأمرنا أن نفعل بهذا أنفعل به فعلنا هذا - يشيران إلى المأمون - فغشي على المأمون مما سمع منهما فقال =

وقد خصتهم آية التطهير بخاصة الطهارة المطلقة المتميزة عن كل طهارة لأي طاهر من العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين.



= الرضا عليه السلام قفا فوقفا ثم قال الرضا عليه السلام صبوا عليه ماء ورد وطيبوه ففعل ذلك به وعاد الأسدان يقولان: أتأذن لنا أن نلحقه بصاحبه الذي أفنيناه؟ قال: لا - فإن لله عز وجل فيه تدبيراً هو ممضيه، فقالا: ماذا تأمرنا؟ فقال: عودا إلى مقركما كما كنتما، فعادا إلى المسند وصارا صورتين كما كانتا فقال المأمون: الحمد لله الذي كفاني شر حميد بن مهران يعني الرجل المفترس، ثم قال للرضا عليه السلام يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأمر لجدكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لكم ولو شئت لنزلت عنه لك، فقال الرضا عليه السلام لو شئت لما ناظرتك ولم أسألك فإن الله عز وجل قد أعطاني من طاعة سائر خلقه مثل ما رأيت من طاعة هاتين الصورتين، إلا جهال بني آدم فإنهم وإن خسروا حظوظهم فللّه عز وجل فيه تدبير وقد أمرني بترك الإعراض عليك وإظهار ما أظهرته من العمل من تحت يدك كما أمر يوسف بالعمل من تحت يد فرعون مصر، قال: «فما زال المأمون ضئيلاً إلى أن قضى علي بن موسى الرضا عليه السلام ما قضى».

وفيه ٢٨١ في الخرائج والجرائح وروي عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند الصادق عليه السلام مع جماعة فقلت: «قول الله لإبراهيم عليه السلام: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ...﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] أكانت أربعة من أجناس مختلفة أو من جنس واحد؟ قال: تحبون أن أريكم مثله؟ قلنا: بلى، قال: يا طاووس فإذا طاووس طار إلى حضرته ثم قال يا غراب فإذا غراب بين يديه ثم قال يا بازي فإذا بازي بين يديه ثم قال يا حمامة فإذا حمامة بين يديه ثم أمر بذبحها كلها وتقطيعها ونتف ريشها وأن يخلط ذلك كله بعضه ببعض ثم أخذ برأس الطاووس فقال يا طاووس فرأيت لحمه وعظامه وريشه تتميز من غيرها حتى التصق ذلك كله برأسه وقام الطاووس بين يديه حياً ثم صاح بالغراب كذلك وبالبازي والحمامة كذلك فقامت كلها حياً بين يديه.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ

وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ
﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا
كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ
نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا
تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا
تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ
ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى
ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

لقد دارت دروس ثلاثة مضت حول إنشاء تصورات إيمانية رصينة هي محطات أصيلة في خط هذه السورة الطويلة، والدرس الآن - وقد حان حين اختتام السورة - يقيم قواعد صارمة للنظام الاقتصادي الإسلامي، تتكفل التعاون والتكافل المتمثل في إنفاقات مفروضة وسواها، زكوات وسواها، رفضاً كل الأنظمة الإفراطية والتفريطية بحق الفقراء البائسين، رفعاً لكيانهم

في كل إنفاق إلى مستقر عز، جاعلاً أيديهم مَثلاً ليد الله، وكأن الله هو الذي يأخذ الصدقات.

فقد يراعي الله تعالى في الإنفاق على المعدمين رفعهم إلى مكانة أعلى من الواجدين، وكأنهم هم الفقراء إليهم حيث يكسبون مرضات ربهم بما ينفقون، دون منٍّ أو أذىً، بل هو إنفاق بكل تبجيل واحترام، بعيداً كل البعد عن أي تخجيل واخترام.

فقد كان هناك الإنفاق قريناً بتخيل الفقر من ورائه، أم قريناً بالنفاق، فكان من يضن بالمال إلّا بربأ، أو ينفقه كارهاً مرائياً، أم يُتْبع ما ينفقه بمنٍّ أو أذى، أو يقدم الرديءَ من ماله احتجازاً للجيد منه، وهذه الآيات تعالج كل بأس وبؤس وعرقلة مادية أو معنوية في سبيل الإنفاق، ولكي يجد البائس الفقير نفسه عزيزاً غنياً حين ينفق عليه ويده هي العليا حين يأخذ الصدقات.

فقد يعالج القرآن نكبة الفقر مادياً ومعنوياً بأسلوبه الفريد في واجب الإنفاق وراجحه بصورة أديبة وسيرة أدبية فريدة، كسراً لسورة الترف وثورته، وجبراً لفورة الفقر وستراً لعورته، تنديداً شديداً مديداً بالأغنياء المترفين البخلاء، وكما نسمعه من إمام المتقين على أمير المؤمنين عليه السلام: «وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً والشر فيه إلا إقبالاً والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا أو أن قويت عدته وعمت مكيدته وأمكنت فريسته اضرب بطرفك حيث شئت هل تبصر إلا فقيراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً».

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾:

الإنفاق لغوياً هو الإفناء، أن يؤتي ما يؤتيه دون أي مقابل من الموتى،

لا مادياً ولا معنوياً، فإنما ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دون مقابل إلا مرضات الله.

فهو إفناء للمال في ظاهر الحال، وهو تجارة مربحة بمئات الإضعاف في باطن الحال متمثلة هنا بـ ﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فهي - إذاً - بالنتيجة سبعمائة حبة، بل لا وقفة عندها ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ على هذه السبعمائة، حسب درجات الإنفاق عِدة وعُدة ومادة وكيفية آفاقية وأنفسية.

وهنا البدء بالحض والتأليف، قبل صراح الفرض والتكليف، مجتثاً كل كلفة وتثاقل عن واقع الإنفاق عند التكليف، حيث يمثل الإنفاق بمثل حبة تبذر وتنفق تحت التراب، ثم تطلع سبعمائة ضعفاً أم تزيد.

فمن ذا الذي يؤمن بالله ووعده، ثم لا يأمن تلك التجارة التي طرفها الثاني هو الله، الذي لا يجهل ولا يبخل أو يضن عما وعده من نتاج الإنفاق ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وتراه مثلاً واقعاً تمثل به ربوة الإنفاق في سبيل الله؟ إنه واقع - وإن نذراً - بطبيعة الحال، حيث المثل الذي شأنه التقريب لا بدّ وأن يكون واقعاً معروفاً وإلا انعكس شأنه إلى التغريب[1].

أم وحتى إذا لم يكن واقعاً، فقد يكفي واقع الأقل منه، المعروف عند كل أحد.

فقد يربو الإنفاق في سبيل الله - بشروطه الصالحة المسرودة هنا - على مطلق الحسنة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾[2] بسبعين ضعفاً وللأصلح مزيد، مهما كان لحسنة مثله ضعفه، فإن «له عشر أمثالها» في

---

(١) وقد شوهد ذلك في سنبلة الجاورس.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

الحسنة، تعني أقل الأضعاف ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يعم من المحسنين غير المنفقين، في سائر سبل الإحسان[١].

وإذا كان في إنفاق المال ذلك الضعف العظيم فكيف يكون ضعف إنفاق الحال جهاداً في سبيل الله وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية[٢]...»، إذاً فالمجاهد بنفسه في سبيل الله هو ممن يشاء الله أن يضاعف له.

فليست الحسنات عند الله على حدّ سواء، بل قد تكون «سبعة»[٣] أم تزيد، كلٌ حسب قابلية وفاعلية، تقرباً إلى الله، وتقريباً لعباد الله إلى ما يرضاه الله.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا طليقة تعم كل سبل الله المحتاجة إلى إنفاق «أو ليس في سبيل الله إلا من قتل...»؟![٤]

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٨٣ في كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أحسن العبد المؤمن ضاعف الله له عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف وذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ٢٦١] أقول: وما أحسنه استفادة من إطلاق «من يشاء» الشامل للمنفق في سبيل الله وسواه.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٣٦ - أخرج ابن ماجة عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي أمامة الباهلي وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ قال:...

(٣) المصدر أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ الأعمال عند الله سبعة عملان موجبان وعملان أمثالهما وعمل بعشرة أمثاله وعمل بسبعمائة وعمل لا يعلم ثوابه ألا الله، فأما الموجبان فمن لقي الله مخلصاً لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة، ومن لقي الله قد أشرك به وجبت له النار ومن عمل سيئة جزي بمثلها ومن هم بحسنة جزي بمثلها ومن عمل حسنة جزي عشراً ومن أنفق ماله في سبيل الله ضعفت له نفقته الدرهم بسبعمائة والدينار بسبعمائة والصيام لله لا يعلم ثواب عامله إلا الله عزّ وجلّ.

(٤) المصدر أخرج عبد الرزاق في المصنف عن أيوب قال: أشرف على النبي ﷺ رجل من =

حتى تحصر سبيل الله في القتال، بل و«ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة»[١] وهو سبيل من سبل الله، فلأنها درجات حسب الحاجات والحاجيات، وكما المنفقون درجات، ومادة الإنفاق نفساً ومالاً وعواناً بينهما درجات، لذلك فـ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ تختص بالدرجات التي تربو أدنى الإنفاق الصالح في سبيل الله كما وتعم سائر الإحسان، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في رحمته ﴿عَلِيمٌ﴾ بدرجات المنفقين في سبيله[٢].

ثم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ...﴾ هي مثل لمادة الإنفاق الصالح لا للمنفق فإنه لا يزداد إلا ما أنفق، أم هو يعنيه كما يعني مادة الإنفاق، حيث المنفق يزداد بإنفاقه كمالاً نفسياً في الأولى، وجزاء هو نفسه بإنفاقه في الأخرى، حيث الجزاء هو العمل، والعمل هو لزام العامل.

وهذا هو الإنفاق في سبيل الله، تقرباً إلى الله، الذي يصلح المنفق ومجتمعه من عزل المال وعضله، دون الإنفاقات المصلحية، التي تزيد

= رأس تل فقالوا ما أجلد هذا الرجل لو كان جلده في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: أوليس في سبيل الله إلا من قتل، ثم قال: من خرج في الأرض يطلب حلالاً يكف به عن والديه فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب حلالاً يكف به أهله فهو في سبيل الله ومن خرج يطلب حلالاً يكف به نفسه فهو في سبيل الله ومن خرج يطلب التكاثر فهو في سبيل الشيطان.

(١) المصدر أخرج أحمد عن المقدام بن معدي كرب قال قال رسول الله ﷺ: ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة.

(٢) المصدر ٣٣٧ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقتم على أهليكم في غير إسراف ولا إقتار فهو في سبيل الله»، فيه أخرج الطبراني عن كعب ابن عجرة قال: مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا يا رسول الله ﷺ لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان».

الأثرياء ثراء في مختلف الشهوات والمبتغيات، والفقراء المعدمين الذين لا ينفعونهم خواء وبواء.

فالذي ينفق ماله بديلاً عما يرجوه من الفقير، أو ينفقه رياء الناس، أو مناً أو أذى أما ذا من مصلحيات فاسدة كاسدة، كان ما يفسده أكثر مما يصلح، مزيداً على الترف للأغنياء، والتلف للفقراء، والله منه براء.

و﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ هنا لا تعني كل أموالهم، بل هي مبينة في سائر القرآن بالقصد، دون إسراف ولا تقتير، وأكثره العفو وهو الزائد عن الحاجة المتعودة، خالية عن الإسراف والتبذير، وأقله الإنفاقات الواجبة المستمرة، كالضرائب المستقيمة، وبينهما عوان من واجبات ومندوبات.

وقد تعني ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كل صنوف الأموال، دون تحليق على كل مال عن بكرته، تدليلاً على أن واجب الزكاة غير محصورة في التسعة المعروفة، بل هو شامل كل الأموال قصداً في إنفاقها أو عفواً هو قمة القصد.

وذلك الإنفاق الأديب الأريب هو الذي يرفع مشاعر الإنسانية ولا يشوبها، حيث لا يمس كرامة الفقراء ولا يخدش شعورهم، حيث ينبعث عن أريحية ونقاء، ابتغاءَ مرضات الله.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾:

هؤلاء الممثل لهم بذلك المثال البارع الأمثل ليسوا هم كل المنفقين أموالهم في سبيل الله، مهما كانت نياتهم خالصة لله، بل هم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ﴾ فإن المنفَق لهم في سبيل الله هم من سبل الله، فليُسلك لهم في الإنفاق أسمى المسالك وأصلحها، وليس سبيل الله إلا سبيل صالح السالك، فإن الله لا يوصَل إليه

بسلوك سبيله، ولا تصل إليه عائدة من إنفاق وسواه من الصالحات، إذاً فلا منَّ في سبيله أثقالاً بمال على أية حال، ولا أي أذى آخر غير المن، وأي تحميل أو تدجيل أو تذليل، اللهم إلا إنفاقاً بكل تبجيل وتجليل وكأن المنفَق عليه هو المنفِق، وهو في الحق هكذا حيث الآخذ في الأصل هو الله بسبعمائة ضعف لأقل تقدير، فـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[١] - ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[٢] ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٣].

المن والأذى القرينان للإنفاق هما محظوران حاضران حاذران قد يخرجانه عن سبيل الله، وهما المُتبعَان بعد الإنفاق يخرجانه عن السبيل بعد ما كان في السبيل، مما يدل على أن من الحالات والأعمال التالية لأعمال حسنة أو حالات، ما يفسدها، كما الرياء بعد العمل، وذلك هو من الإحباط بعد الإثبات كالحبوط ولمّا يثبت، فإنهما في مسلك واحد مهما اختلفا في زمن الحبوط، بل والحابط عمله بعد ثبوت علّه أضلُ سبيلاً حيث أفسد ما أصلح، وزميله لمّا يُصلح حتى يفسد.

فـ «المن بعد الصدقة»[٤] كما «المن في الصدقة»[٥] مما يحبط الصدقة، وكذلك كل أذى فيها أو بعدها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٤) نور الثقلين ١ : ٢٨٣ عن الخصال عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى كره لي ست خصال وكرههن للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي، العبث في الصلاة والرفث في الصوم والمن بعد بعد الصدقة».

(٥) المصدر عن الخصال عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله كره لكم أيتها الأمة أربعاً وعشرين خصلة ونهاكم عنها - إلى قوله -: وكره المن في الصدقة».

=

والمن في معنى شامل هو الإثقال بالنعمة منةً على المنعَم حسنة كما يمن الله أو سيئة كما المنُّ في الإنفاق.

وهو النقص ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾(١) أي غير منقوص، كأن تنقص من كرامة المنفق عليه، أو من طاقة له في صالحك بديلاً عما أنفقت عليه.

ثم المنّان من كل منّان يعمان القال والحال والفعال، مهما اختلفت الأحوال في مثلث المن.

فمن الناس مَن يمن في إنفاق في قلبه دون إظهار بمقال أو فعال فهو أخف منا إذ ليست فيه أذى، ومنهم من يظهر منه بقاله وفعاله كما في حاله، فهو بثالوث المن أثقل مَنّاً، وبينهما عوان، حيث يظهر مَنّاً بقِالٍ أو فعالٍ، والكل مشمولة لـ«مناً» مهما شمل المن الظاهر «أذى» فإنها أعم من ظاهر المن وسواه من أذى.

فكل منٍّ أو أذىً حين الإنفاق أم تباعاً له مرفوض في شرعة الإنفاق مهما لم يكن رياء الناس إن أمكن كما في باطن المن دون إظهار، فلا منَّ في الإنفاق إسراراً ولا إعلاناً، وكما لا أذىً على أية حال في إنفاق وسواه.

فالفقير هو بطبيعة الحال يحس المنَّ حين يُنفق عليه، متأذياً من الفقر نفسه، فكيف تمن عليه أو تؤذيه في إنفاقك منا على مَنٍّ وأذىً على أذىً؟

= وفيه عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله: المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا بمنه...».

وفي الدر المنثور ١: ٣٣٧ - أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس أن رسول الله ﷺ سأل البراء بن عازب فقال يا براء كيف نفقتك على أمك وكان موسعاً على أهله؟ فقال: يا رسول الله ﷺ: ما أحسنها، قال: «فإن نفقتك على أهلك وولدك وخادمك صدقة فلا تتبع ذلك مناً ولا أذى».

(١) سورة القلم، الآية: ٣.

فإن ذلك يثقل عليه مَنُّه وأذاه من فقره والإنفاق عليه، فهما ليسا - فقط - ليحبطان إنفاقك، بل هو ظلم به وإزراءٌ.

فلتجبر أنت الغني بإنفاقك كَسره واختجاله بكل احترام وتبجيل، دون أي اخترام وتخجيل، ولكي يصبح إنفاقك له مزيد مقام واحترام، لحد يصبح سده فقره مالياً على ضوء سده نفسياً وحالياً.

فالمن والأذى كما يسقطان الإنفاق - قرينين له - عن كونه في سبيل الله، كذلك يحبطانه حين يُتبعانه وإنْ بعد زمن بعيد، فيصبح الإنفاق في سبيل الله نفاقاً وفي سبيل الشيطان، مهما كان المن - فقط - في الطوية دون ظهور، أقل إحباطاً وأكثر إثباتاً قد يسقط فرض الإنفاق واقعياً وإن لم يسقطه نفسياً[١].

والمن والأذى يبطلان الصدقة على أية حال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ...﴾.

ثم المن والأذى المتبَعان قد يدلان على أن حالة الإنفاق قبلهما لم تكن صافية لوجه الله، ضافية في سبيل الله، مهما لم يصاحباه حينه، فـ«ما أضمر رجلٌ أمراً إلا وقد يظهر في صفحات وجهه أو فلتات لسانه» فالمضمَر في الضمير لا بدّ وأن يظهر يوماً ما حيث لا يتمالك الضامر ضميره عن بروزه.

إذاً فذلك الإنفاق المُتَبع بالمن والأذى، لم يكن بذلك السليم حينه، مهما برزت علته بعد حينه، ثم المنُّ - بعد ذلك كله - عنصر كريه ذميم لئيم، وشعور واطٍ خسيس دميم، فالنفس الإنسانية السليمة لا تمن بما أعطت من نعم الله - الموهوبة له - إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو

(١) نور الثقلين ١: ٢٨٣ عن المجمع روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو من عليه فقد أبطل الله صدقته».

رغبة في إذلال الآخذ، أم لفتاً لأنظار الناس، وذلك ثالوث منحوس من الاستعلاء البلاء الخواء والكبرياء البواء.

فالمن - إذاً - هو أذى للواهب والموهوب له، استكثاراً للواهب، واستكساراً للموهوب له، ولم يكن الله ليريد من أمر الإنفاق مجرد سد الخلة المالية، مهما كان بأمر الجانبين بالمن والأذى، بل وتزكية لنفوس المنفقين، وترفيعاً لأنفس المنفق عليهم وكأنهم هم المنفقون، رفعةً كبديلة عن فقرهم، والمن يحيط هذا كله، ويحول الإنفاق سماً لاذعاً وناراً محرقة، وهو أنحس دركات الأذى، محقاً للإنفاق وتمزيقاً للمجتمع وإثارة للضغائن والأحقاد، بديلاً عن التؤودة والأمجاد!.

وهنا يظهر السر في: احذر شر من أحسنت إليه، بوجه ما، فإن ردّ الفعل للإحسان بطبيعة الحال في النفوس الإنسانية، ولا سيما الأبيّة، هو العداء العارم يوماً ما.

فإن الآخذ - أياً كان - يحس في نفسه بالضعف والنقص والانكسار أمام المعطي، مناً ودون منّ، إلّا أن يحبر نقصه بكل تبجيل واحترام، إنفاقاً محبباً ومما تحبون فـ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

ففي مثلث الإنفاق لا يأمن المنفق من بأس الإنفاق وبؤسه إلا أن يقرنه بما يزيل وصمة الإنفاق، ويرفع سمته إلى مرتفع قد يكون أرفع من المنفق، ولذلك قد تعتبر يد الآخذ يد الله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾[2] تأديباً أديباً لكيفية الإنفاق، أن تكون أربى وأولى مما ينفق على نفسه وأهليه، دون إفراط ولا تفريط.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

وإن أحسن الحسن في الإنفاق - الذي ينفي اتباعه بالمن والأذى - هو اتباعه بقول معروف وحسنة مثلها أم تربوها، فـ«ما من شيءٍ أحب إلي من رجل سلفت مني إليه يد اتبعتها أختها وأحسنت ربها لأني رأيت منع الأواخر يقطع لسان شكر الأوائل»[١].

ثم وهؤلاء الأكارم الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى، هم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ السبعمائة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ دون سواهم، سواءٌ أجروا قليلاً أم لم يؤجروا أم عذبوا بما أثموا، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فقر هنا، أم تساءل أو عذاب في الأخرى أم عدم الوفاء فيها، أم عداء من المنفق عليه إذ كثّره وما كسره، رفعه وما وضعه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أنفقوا، إذ هم حصلوا على مئات أضعافه وأفضلها ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢].

إن الصدقة التي ترافقها أم تتبعها أذى من منٍّ وسواه، لا شك أن تركها أولى منها وأحجى، وحين لا تجد ما تنفق، أو تجد وتبخل إلا بمن أو أذى فـ:

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ لدى السائل والمحروم، بديلاً عن صدقة منكرة أو نحرٍ على المحاويج.

﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وهذا تنازل ومسايرة في التفضيل، حيث يرى المنفِق الذي يمن ويؤذي أن عمله فضيل، فحتى لو كان فضيلاً فـ﴿قَوْلٌ

(١) نور الثقلين ١ : ٢٨٤ عن تفسير القمي ثم ضرب الله فيه مثلاً فقال: . . . ما من شيء. . .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥.

مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ ثم ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن هكذا إنفاق «حليم» عمن لا ينفق على وُجده بقول معروف ومغفرة.

فقد يكون عندك وُجد فيه سؤول المحاويج فإن تبخل وتقول قولاً معروفاً ومغفرة فهو خير من إنفاقك على منٍّ أو أذى ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

أم ليس عندك الوفاء إذ لا وُجد أم فيه مورد أهم من الإنفاق، فكذلك الأمر «والله حليم» يحلم عمن هو معذور شرط ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾.

أم عندك وُجد في مالك وحالك، تنفق دون مَنٍّ ولا أذى، فلتتبعه بـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ «قول» يُعرف صالحه في الصالحين، حيث يجبر كسر المعدمين، وهنا «مغفرة» من المنفق عليه، أن تستغفره استقلالاً لإنفاقك.

فـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ ضابطة سارية المفعول عند كل سائل أو محروم، تصدقت عليه أم لا، معذوراً أم لا، فإن ذلك القول هو صدقة على أية حال، يجبر كسر الفقير وتخجّله عندك.

قد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردّوا عليه بوقار ولين، إما ببذل يسير أو ردّ جميل فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون كيف صنيعكم فيما خولكم الله تعالى»[١].

ثم و﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أفضل صدقة على أية حال، في سؤال معيشي أم روحي أما ذا، فـ «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى أو يردّه عن ردي»[٢].

---

(١) مجمع البيان حول الآية وقد روي عن النبي ﷺ: . . .

(٢) الدر المنثور ١: ٣٢٨ - أخرج المرهبي في فضل العلم والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: . . .

«ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر»[١] «نعم العطية كلمة حق تسمعها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم»[٢].

هذه «صدقة» بطليقتها في طلاقتها أينما حصلت في سؤال وسواه، فإنها أدب إسلامي سامي.

ثم «ومغفرة» تطلب الغفر من المحاويج حين لا تجد طلبتهم أم عندك قَلٌّ لا يكفيهم، أن يغفروا لك قلته ويستغفروا لك الله، ونفس القول المعروف يخلف مغفرة من الله ومنّه.

و«مغفرة» تطلبها من الله لإخوانك المؤمنين على أية حال، فإنها خير صدقة، فحتى إذا نالك فقير ببذاء وإيذاء في فعل أو كلام، فـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ إجابة عن غير معروف ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أن تغفره وتستغفر له ربك، إجابة عما قد يلعنك، لأن الفقير كسير قد يحمله على ردة فعل سوء حين لا يجد عندك سؤاله، فـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٣].

فبصيغة واحدة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ فإن هذه الصدقة فيها خير المال وشر الحال، وأما ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ فيه خير ذو بعدين بعيدين عن كل شر، ولا شك أن محض الخير خير من خليطه بشر.

ولئن ابتليتم بصدقة يتبعها أذى فـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ يزيل تلك الأذى ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ اعتذاراً من الفقير واستغفاراً من الله ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن عقوباتكم حين التورط في ورطة الصدقة المؤذية إذا لحقها ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾.

---

(١) الدر المنثور ١: ٢٢٨ - أخرج الطبراني عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: . . .
(٢) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ . . . .
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

فذلك تقرير قرير إن كلمة طيبة تضمد جراح القلوب، وتفعمها بالبشاشة والرضى، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة، هما خير في أنفسهما وخير من صدقة تتبعها أذى والله غني حليم.

وليس فحسب أنهما خير من صدقة تتبعها أذىً، مما يخيِّل إلينا أن خير هذه الصدقة أقل، بل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٦٤)﴾:

مثال ماثل بين أعيننا للصدقة القاحلة الباطلة، يتبعه مثال للتي تُبتغى فيها مرضات الله، صفتان متقابلتان بفاصل مرضات الله وغيرها، بجامع الإنفاق، مهما كان في الضفة الثانية أكثر وفي الأولى أقل، فـ«إنما الأعمال بالنيات».

فـ«المن والأذى ورياء الناس وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر» كل هذه الأربعة هي ردف بعض إنها سبيل الشيطان مهما اختلفت دركاته، في ثالوث الفسق والفاحشة والكفر، كما أن سواها سبيل الله مهما اختلفت درجاته تركاً لذلك الثالوث.

وإبطال الصدقات بالمن والأذى يعم ما إذا صاحباها أم تأخرا عنها، وكما اختص النص السابق بالثاني ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾.

وقيلة المتمحل أن الصدقة الصالحة لا تبطل بعد واقعها، فإنما الباطل هو ثوابها، مردودة عليه بالنص ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ وأن الثواب لمّا يأت حتى يبطل، ثم الثواب الآتي هو نفس الصالحة الماضية بظهور ملكوتها، فلتبطل هي من الآن حتى لا تظهر بمظهر الحق بعد الآن.

ولأن الإحباط بالنسبة للأعمال السابقة يعني إحباط الصورة الموجودة

منها، التي تتحول إلى الثواب أو العقاب، دون نفس الأعمال السابقة أو الجزاء اللاحق، فليس الإحباط - إذاً - من المحال حتى يقال عليه ما يقال: إن إحباط ما مضى في واقعه محال!.

وأما آية المثقال ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1] فمخصصة بآيات الإحباط، فالخير المحبط بما أحبطه لا يرى، كما الشر المكفر بما أزاله لا يرى، فإنما يرى كل خير وشر باق إلى يوم الحشر، وقد يرى خيراً لم يعمله حيث أوتي بنية، أم شراً لم يعمله حيث رضيه من فاعله، أم لا يرى خيراً عمله حيث أحبط بما يحبطه، أم لا يرى شراً عمله حيث كفره بما يكفره!.

و«المن» هنا طليقة تشمل المنّ على الله وهو في حدّ الكفر بالله، والمنّ على عباد الله وهو كفران لمنن الله، ثم «الأذى» تخص المعطَون من نعم الله، أذى في حال أم قال وأعمال.

ولأن المنّ والأذى دركات، كذلك الإبطال دركات.

﴿لَا تُبْطِلُوا۟... كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ...﴾ فهو لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته، بقلب صلب صلد مغشيٍّ بالرياء، فإنفاقه - إذاً - ليس في سبيل الله، بل في سبيل الناس، وكأنه تأليه للناس بديلاً عن الله، لولا رياء الناس لم يكن لينفق ماله، ولكنه يرمي بريائيه هدفين اثنين، ظاهر كأنه لله، وباطن أنه للناس.

﴿... يُنفِقُ... وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإن الإيمان قيد الفتك، وأي فتك أفتك من رياء الناس، فمهما كان ذلك المنفق مؤمناً بالله واليوم الآخر، ولكنه قشر لا لبُّ له، فإن لب الإيمان يلبي دعوة الرحمن، دون تلبية لمن سواه.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

﴿. . . فَمَثَلُهُۥ﴾ في إنفاقه النفاق، الحابط في حساب الله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ. . .﴾ ويا له من مثل هو الأمثل في ذلك الإنفاق الحابط الخابط ﴿صَفْوَانٍ﴾: حجر صلب صَلد كما يفسره ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ فهو الحجر الصافي القاحل الذي لا ينبت عليه أي نابت مهما حمله تراباً ظاهراً طفيفاً، حيث التراب ينبت إذا أصابه وابل، ولكنه ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ كما هو في أصله، مهما تستر بتراب كأنه ينبت ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١) (٢).

فقد مُثل المنفق مناً وأذىً أو رياء الناس بمَثَل الكافر، الحابط عمله أياً كان، فهذا المنفق ليس إنفاقه الخاوي الاكتراب على صفوان، لا ينفع لإنبات، بل ويزول بوابل يستأصله عن بكرته، من وابل الحساب في الأخرى، بوابل المن والأذى والرياء في الأولى.

كذلك الإنفاق في غير سبيل الله، لا يستقر على قلب المنفق الصفوان، كالحجر الصلد، مهما ستره بغبار الإنفاق، فلا يثمر كما ينفق في سبيل الله سبعمائة ضعفاً، ولا يبقى على ضعفه دون ضِعف، وإنما يحبط في وابل، وكذلك وابل الحساب، النازل على قلوب العاملين، بوابل النية القاحلة في الإنفاق.

وهكذا ينكشف القلب الصلد الخاوي عن واقع الإيمان يوم الحساب، انكشاف الصفوان الصلد عن ظاهر التراب، فلم يثمر خيراً ولم يعقب مثوبة،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) نور الثقلين ١ : ٢٨٤ في تفسير القمي في الآية وقال: من كثر امتنانه وأذاه من يتصدق عليه بطلت صدقته كما يبطل التراب الذي يكون على الصفوان والصفوان الصخرة الكبيرة التي تكون في مفازة فيجيء المطر فيغسل التراب عنها ويذهب به فضرب الله هذا المثل لمن اصطنع معروفاً ثم أتبعه بالمن والأذى. . .

اللهم إلا عقوبة لكفره: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: كفراً أو كفراناً، عقيدياً أو عملياً، فقد شمل الكفر هنا الإنفاق مناً أو أذىً ورياءَ الناس، من هؤلاء الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين حقه!، فليس ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ بل ويعاقَبون بكفرهم وترك الإنفاق الصالح، ظلمات بعضها فوق بعض!.

فتلك هي الضفة الكافرة بمثلها الصفوان، فإلى الضفة المؤمنة الآن:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾:

هناك ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ تمثيلاً لإنفاقه بتراب خفيف طفيف على صلد الصفوان، وهنا ﴿جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ مثلاً لصالح الإنفاق الرابي، المضاعف في أجره، فإن ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ حيث الوابل من طبعه إفادة بإضرار، وإضرار بإفادة، فلأن ذلك الإنفاق مرتكن على ركن ركين فلا يتركه الوابل صلداً، بل ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

وعلّه إشارة إلى سائر الإصابات التي تنحو منحى ذلك الإنفاق، من سيئات الأعمال اللاحقة له، فليست لتزيله، بل هو - لأقل تقدير - ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

إذاً فـ ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ تعني طلُّ الرطوبة النافعة غير الضارة ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ كما يحق.

أم ويعني إصابة الوابل خيراً دون ضرٍّ ولا شر، إذاً فـ ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ تعني المضاعفة المحلقة على كل المضاعفات في الإنفاق، ابتداءً من «سبعمائة ضعف» ثم «الله يضاعف من يشاء».

إذاً ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ تعني أقل الفائدة وهو ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أو أن الإنفاق أصيب بغير ما يبطله، من سيئات تتلوه.

ثم ترى تلك هي سبيل الله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فما هو - بعدُ - ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؟ إنه لا بدّ وأن يكون على هامش سبيل الله، طرداً للمنّ والأذى ورياء الناس.

فمنه تثبيت أنفسهم على صالح النية حين أنفقوا في سبيل الله، كيلا ﴿يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فقد ينفق في سبيل الله ابتغاء مرضات الله ثم يتبعه مناً أو أذىً أو رياءً، فليس - إذاً - مثلهم كجنة، بل هو ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

ومنه تثبيت أنفسهم حين الإنفاق وبعده على صادق الإيمان، وواقع وعد الله، فلا تنهبُ بمهبات الأهواء والتخيلات الباطلة القاحلة.

ومنه تثبيتها على ما هي عليه من الطمأنينة، فلا يُتهاجم عليها في ثوارت المحاويج، ولا يخلد بخلدهم تقصير في جنبهم عن شرعة الله، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بعد ما أنفقوا إيماناً دون نفاق، وبكل تبجيل واحترام، ودون أي تخجيل واخترام، إزاحة لفقر الفقراء مالياً، وإضافة لخاطرهم الكسير كثيراً من الحرمة بقول معروف ومغفرة.

وقد تعني ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ مثلثها، تثبيتاً من أنفس المنفقين والمنفق عليهم، ومن أنفس مجتمع الإنفاق خروجاً عن كل تزعزع وتلكع، وذلك التثبيت المثلث هو نتيجة الإنفاقات الصالحة دون من ولا أذى ولا رياء الناس، ودونما أية غاية إلا مرضات الله، فكل ذلك متكتل في ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فإن كلاً ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قلب عامر بتقوى الله، ندي ببشارة الله، ينفق ماله «ابتغاء مرضات الله

وتثبيتاً لأنفسهم» إنفاقاً بثقة وإيمان واطمئنان، ﴿تَثْبِيتًا﴾ لهم حاصلاً ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ واصلاً إلى أنفسهم في عاجل الإنفاق وآجله.

وحقيق له أن يمثِّل بـ﴿جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ...﴾ حيث المؤمن كله جنة، وهو دوماً ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ يرتفع بابتغاء مرضات الله ولا يترفع، ويصيبه وابل الرحمة المستزيدة لجنته، أم ولأقل تقدير ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ درجات من واصل الماء حسب قابليات الجنات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هل يستحق لمضاعفته وابلاً أو طلّاً؟

فجنات المؤمن بربوة هي بين وابل وطل وبينهما متوسطات، والطل هو قلٌّ فإنه رذاذ من الرطوبة يكفي التربة الخصبة تنمية لبذورها مهما كانت قليلة.

والوابل هو المطر الغزير الكثير، الذي يروّي الجنة كما تصلح وتصلحها لأعلى قمم الربوة النماء.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾:

مثلٌ ينبه الذين ينفقون أموالهم في غير مرضات الله، إن المن والأذى ورياء الناس هي إعصارٌ فيه نار تحرق جنة الإنفاق مهما كثرت وازدهرت بكل الثمرات، فهذا المنفق يصبح يوم فقره وعيلته صفر اليد عن كل ما أنفق، و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

و﴿جَنَّةٌ...﴾ يمثل واقع الإنفاق لو خلي وطبعه، ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ يمثِّل فقدان القوة حيث لا يقدر على شيءٍ بعدُ استمراراً لعيشته، وهو مثالٌ لما بعد الموت ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ مثال لفقدان أي نصير في انقطاع

الأسباب، فلم تبق له إلا جنته هذه التي حصل عليها في قوته وشبابه ولكنها أيضاً ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنة فما ترى له من باقية، إلا باغية طاغية!

والإعصار ريح ترتفع مستديرة في السماء كأنها عمود، المسماة بالزوبعة، فهي من شدة إعصارها تولد ناراً تحرق ما أصابته.

وهكذا ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾(١) - ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾(٢).

فالصدقة التي هي في نفسها كجنة ظليلة وارفة مثمرة، تصبح في غير وجه الله ناراً محرقة، وإلى خطوة أخرى في شاكلة الصدقة من حيث المادة، بعد شاكلتها في النية والطوية، وحتى المواجهة مع الفقراء.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾:

﴿طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ تعم كافة المكاسب المحللة دون إبقاء، كما ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ تعم كل نابتات الأرض وسواها من نباتات ومعادن فوق الأرضية وتحت الأرضية، وبصيغة عامة كل خارج من الأرض ما يُتموَّل دون إبقاءٍ.

فـ ﴿مَا كَسَبْتُمْ...﴾ تعني كل ما سعيت في الحصول عليه بتجارة أو إجارة أو عمالة أماهية، و﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا﴾ كل حاصل دون سعي كالأرض وما فيها وما عليها، مهما سعيت في إخراجه منها، فإن أصله حاصل دون سعي.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

إذاً فهما تشملان كل الأموال منقولة وغير منقولة، فواجب الإنفاق يعم الأموال كلّها، وتخصيصه بتسع الزكاة تخصيص بالأكثر، وخلاف للنص، فإن ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا﴾ لا تتحمل الاختصاص بالغلات الأربع، إلا ألّا تكون سائر المخرج من الأرض من إخراجه تعالى، وإخراج الخضراوات عن واجب الزكاة لا يلائم نصّ الإطلاق هنا، أم يؤول إلى استثناء العين انتقالاً إلى الثمن إذا زاد عن مؤونة سنة، وهكذا يكون دور الحديث «ليس فيما دون خمسة أو ست صدقة» حيث الخمسة مؤونة أم أقل منها فلا ربوة عن الحاجة فيها حتى يتصدق منها.

ومن التحريفات التخريفات التي أصبحت كالضروريات - وهي مخالفة للآيات وكثير من الروايات - حصر الزكاة في التسعة المشهورة، التي لا تكفي مؤونة الفقراء الخصوص معشار ما هم محتاجون إليه، فضلاً عن سائر الأصناف الثمانية المستحقين للزكاة، ولا سيما الحاجيات العامة للدولة الإسلامية!.

والأحاديث الحاصرة للزكاة الواجبة في التسعة المعروفة معارضة لنصوص الإطلاق أو العموم في آيات الزكاة، ومنها ما هي نص في غير هذه التسع كآية الأنعام (١٤٢): ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

فإن ﴿حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ لا شك أنه الزكاة المفروضة، والأقاويل حول تأويلها مرفوضة، ومكية الآية لا تصرفها عن الزكاة المفروضة، فإن آيات الزكاة تحلق على العهدين: المكي والمدني، حيث نراها مكيات

تسع[١] إضافة إلى مدنيات كآية يوم حصاده هذه وآيتي ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ﴾ - أو - ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾[٢] ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[٣].

هذه! إضافة إلى مدنيات أربع[٤] تتحدث عن واجب الزكاة في الشرائع السابقة فإنها تنجر إلى شرعة الإسلام ما لم تنسخ، وإضافة إلى دلالة واضحة لا ريب فيها في آيات الزكاة - كما تأتي بطياتها - فمتواتر الرواية عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام هي حجة بعد الكتاب لشمولية الزكاة الواجبة كافة الأموال.

والأخبار المصرحة لحصرها في التسعة المشهورة هي معارضة للآيات وسائر الروايات المعممة للزكاة إلى كل الأموال، فلا دور لها إلّا ردها أو تأويلها.

وليست صدفة غير قاصدة تلحيق أحاديث التسعة بكلمة واحدة مكرورة فيها «وعفى رسول الله عما سوى ذلك» فإنها لا تعني - إن صدرت وصحت - أنه ﷺ عفى عما فرضه الله، بل هي إشارة إلى سياسة التدريج والمرحلية لتطبيق فريضة الزكاة، فهو - إذاً - عفو مرحلي مؤقت عما سوى الأموال الهامة والعامة في تلك الزمن، ومن ثم - وبعد ما تمكن الأمر - أمر ﷺ بالأخذ من كل أموالهم في أخريات العهد المدني: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥].

---

(١) وهي ٧: ١٥٦ و٢٣: ٤ و٢٧: ٣ و٣٠: ٢٩ و٣١: ٤ و٤١: ٧ و٨٧: ١٤ و٧٣: ٢٠ و٩٢: ١٨.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٢٥.

(٤) وهي ٢: ٤٣ و١٩: ٣١ و٥٥ و٢١: ٧٣.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

ذلك! وكما أن ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ لا تتحمل الاختصاص بالنقود، فضلاً عن النقدين المسكوكين الرائجين، فالآية طليقة بإطلاق لا يتحمل أي تقييد، فضلاً عن هكذا تقييد في ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالنقدين، وفي ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا﴾ بالغلات الأربع، أم والأنعام الثلاثة!.

ومهما سميت واجب الإنفاق بزكاة وغير زكاة، لا تنفصم عرى الإطلاق العام، سمِّه ما شئت، فالمسمى هو واجب الإنفاق على أية حال، وآيات الزكوات والإنفاقات والصدقات والايتاآت، حيث تفرضها في ذلك المربع في عهدي الرسول مكياً ومدنياً، إنها تفرض عن كل الأموال نصيباً مفروضاً للمحاويج.

وهذه الآية تفرض واجباً مالياً في كل ما يتمول من ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا﴾ فأرباح التجارات بكل صنوفها داخلة في النص الأول وكما تقول الروايات بواجب الزكاة فيها، دون أية اشارة منها إلى ندب، خلاف ما يزعمه جماعة من الفقهاء دون أي مبرر لهكذا تأويل عليل دون دليل إلا ضده في صراح الآيات والروايات، وقد يأتي القول الفصل في تعلق الزكاة بكل الأموال بطيات آياتها ولا سيما آية الصدقات المقررة إياها لأصناف ثمانية.

ولأن طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض درجات، قد تصبح أدناها من الخبيث نسبياً، ف ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ قد تعني من المنفق من الطيبات، أم هو أعم منه إرجاعاً للضمير المفرد إلى الإنفاق مادة وكيفية وكمية، فلا خبث في مادة الإنفاق كما لا خبث في كيفيته أو كميته، بل هو إنفاق طيب من مادة طيبة، فلا تنفقوا من خبائث ما كسبتم، ولا من الطيبات الأدنى، ف ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

﴿تُنفِقُونَ﴾ خبيثاً «و» الحال أنكم ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ خبيثاً في كيفية، أم في مادة أو كمية، ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ إغماضاً عن خبثه: محرماً أو محللاً ضرورة إلى أصله، أم تجاهلاً عن كيفه وكمه ومادته أو حله وحرّمته، حرصاً على أصله، ومن الأغماض فيه أن تغمضوا البائع فيما يبيعه لكم نقصاً من ثمنه، فقد تغمض بصرك أو بصيرتك فيه، وأخرى تغمض الثمن في بيعه.

فـ ﴿طَيِّبَـٰتِ﴾ إذاً هي المحللات الجيدات مزيدات غير زهيدات، فالإنفاق من المحرم إنفاق خبيث لأنه إنفاق من الخبيث[1] وإنفاق الطيب الرديء غير محبور ولا مشكور لأنه نسبياً خبيث، وإنفاق الطيب الجيد، الزهيد - غير طيب، لأنه خبيث نسبياً، فالطيب المطلق هو الخالص عن هذا الثالوث كخلوصه عن ثالوث المن والأذى ورياء الناس، فهذه ست في واجب الإنفاق.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المجاهيل المنفقون خبيثاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاق الخبيث والإنفاق الخبيث ﴿حَمِيدٌ﴾ في غناه، فلم يأمركم بالإنفاق لِضنّةٍ منه وبخل أو عجز عن الإنفاق دون وسيط، وإنما يؤدبكم ويربيكم بإنفاقكم الطيب تربية صالحة.

فمهما كان الإنفاق في سبيل الله دون منّ ولا أذى ولا رياء الناس، ولكن الخبيث مما تنفقون يخبّثه، فليكن الإنفاق في مثلث من كيف وكم ومادة، هي كلها صالحة وفي سبيل الله، تباعداً عن ثالوثة المنحوس كيفاً وكماً ومادة.

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٤٧ - أخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «لا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ولا يمحو السيىء إلا بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

فقد يكون الإنفاق طيباً في النية، ولكنه خبيث في كم أو مادة، أم هو طيب فيهما أو في أحدهما، ولكنه خبيث في النية، والإنفاق في سبيل الله يتطلب الطيب في كل الأطراف المعنية، نية ومادة وكمية.

وقد «جاء رجل ذات يوم بعذق حشف فوضعه في الصدقة فقال رسول الله ﷺ: بئس ما صنع صاحب هذا فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١] فـ«إنهم كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورديء أموالهم فأنزل الله هذه الآية»[٢] تنديداً بخبث المادة بعد التنديد بخبث الكيفية.

والحد الواجب من مادة الزكاة أن تكون «من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره»[٣] فإن ﴿طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ تقابلها

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨: ٦١ عن ابن عباس جاء رجل...

(٢) المصدر روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن ومجاهد أنهم كانوا... وفيه أخرج عبد ابن حميد عن جعفر بن محمد عن أبيه قال لما أمر النبي ﷺ بصدقة الفطر جاء رجل بتمر رديء: فأمر النبي ﷺ الذي يخرص النخل أن لا يجيزه فأنزل الله هذه الآية، وفيه بسند عن سهل بن حنيف قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة فجاء رجل بكبائس من هذا السحل يعني الشيص فوضعه فخرج رسول الله ﷺ فقال: من جاء بهذا؟ وكان كل من جاء بشيء نسب إليه فنزلت الآية. ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يؤخذا في الصدقة الجعرور ولون الجبيق.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون فأنزل الله الآية، وفيه أخرج ابن جرير عن عبيدة السلماني قال سألت علي بن أبي طالب عن هذه الآية فقال: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء فقال الله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ...﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧] ولا يأخذ أحدكم هذا الرديء حتى يهضم له.

وفيه أخرج ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ومن جمع مالاً من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه».

(٣) المصدر ٢٤٦ - أخرج أبو داود والطبراني عن عبد الله بن معاوية الفاخري قال قال =

«خبيثات» وهي المحرمات والرذيلات دون المتوسطات.

وترى ﴿طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هل تشملان الأولاد الطيبين، لتنفقهم في سبيل الله، أو ننفق من أموالهم؟.

أجل! «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»[١] فـ«هم من أطيب كسبكم وأموالهم لكم»[٢] فـ«أنت ومالك لأبيك»[٣].

فقد يجوز أو يجب الإنفاق من أموال الأولاد ما لم يكن فيه إجحاف أو إسراف، بل كما تنفق من مالك.

فحصيلة المعني من الآية باختصار هي وجوب أن يكون الجود بأوسط الموجود أو أفضله، دون الدون والرديء الذي يعافه صاحبه، أو المحرم،

= النبي ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان، ومن عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه وافرة عليه كل عام ولم يعط الهرمة ولا الذربة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من وسط أموالكم...» وفيه أخرج الشافعي عن سعر أخي بني عدي قال جاءني رجلان فقالا: إن رسول الله ﷺ بعثنا نصدق أموال الناس، قال فأخرجت لهما شاة ماخضاً أفضل ما وجدت فرداها علي وقالا إن رسول الله ﷺ نهانا أن نأخذ الشاة الحبلى قال: فأعطيتهما شاة من وسط الغنم فأخذاها، فيه أخرج أحمد وأبو داود والحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال: بعثني النبي ﷺ مصدقاً فمررت برجل فجمع لي ماله فلم أجد عليه فيها إلّا ابنة مخاض فقلت له: أدابة مخاض فإنها صدقتك، فقال: ذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر ولكن هذه ناقة عظيمة سمينة فخذها فقلت له: ما أنا بآخذ ما لم أومر به وهذا رسول الله ﷺ منك قريب فإن أحببت أن تأتيه فتعرض عليه ذلك قال: إني فاعل فخرج معي بالناقة حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال ﷺ: «إن تطوعت بخير آجرك الله فيه وقبلناه منك وأمر بقبض الناقة ودعا له في ماله بالبركة».

(١) الدر المنثور ١: ٣٤٧ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجة عن عائشة قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) المصدر أخرج عبد بن حميد عن عامر الأحول قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ مالنا من أولادنا؟ قال: «هم من أطيب كسبكم وأموالهم لكم».

(٣) المصدر أخرج عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ إن لي مالاً وإن لي عيالاً ولأبي مال وله عيال وأن أبي يأخذ مالي؟ قال: «أنت ومالك لأبيك».

أما ذا من مثنى الثالوث: مناً - أو أذىً - أو رياء الناس، ثم إنفاقاً من حرام - أو من حلال رديء - أو فضيل قليل.

ذلك هو الإنفاق اللائق الفضيل، دون الرذيل الهزيل، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عنكم وعن إنفاقكم ﴿حَمِيدٌ﴾ إذا أنفقتم كما يرضاه، حميد حين أنفق عليكم فأمركم بإنفاقه، حميد حين لا ينفق المحاويج دون وسائطكم حيث الدار دار الأسباب والاختيار والاختبار.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بشخصه كأصل الشيطنات، وبخيله ورجله كفروع وسطاء، وبالأنفس الأمارة بالسوء تقبلاً لوحي الشيطان، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في ثالوثه المنحوس ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ خلفية لازبة للإنفاق، وكل إنسان يخاف الفقر فيحذر فيتحذر - إذاً - عن الإنفاق حين يصغي إلى وعد الشيطان.

﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ حين أنه ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ في أموالكم، فهل الفحشاء في ثالوثها - الإسراف والتبذير والإنفاق في غير حلّ - هلّا يخلف الفقر، ثم الإنفاق العفو، عواناً بين الإفراط والتفريط يخلف الفقر؟ إذاً فباء الشيطان في أمره بالفحشاء يجر، وباء الرحمن في أمره بالإنفاق لا يجر ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1]!.

ومن الفحشاء في ترك الإنفاق الشيوعية وما أشبهها من مخلّفات الإقتار، فإنها تهلكة للأثرياء المقترين، ولا سيما المسرفين في مصارفهم الفوضى اللامبالاة على أعين المعدمين، فإنهم - ولا بدّ - يوماً ما يتفجرون في وجوه هؤلاء المترفين.

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.

فقد يأمرهم الشيطان بترك الإنفاق، وبالفحشاء في مصارفهم إعلاناً وهو يأمرهم بالفحشاء الاقتصادية من قبل المعدمين كخلفية لا حِوَل عنها أسراراً، حيث الفحشاء الأخيرة هي من خلفيات فحشاء الإقتار عن الإنفاق، وفحشاء الإسراف والتبذير في شهواتهم أنفسهم!.

ذلك الشيطان! ولكن ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ﴾ في الدارين لذنوبكم، وغفراً على أموالكم وأحوالكم هنا من هجمات البائسين، حيث الإنفاق الإسلامي السامي يمنعهم من أي كيد أو ميد عليكم، ثم ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ هنا في أموالكم وأحوالكم، وبأحرى في الأخرى بسبعمائة ضعف أو تزيد، ومن أفضل الفضل هو النفسي، حيث تتعود على البذل والتنازل عما ينفقه في الله، وتربوا معرفة بالله، وزلفى إلى الله، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ علماً وقدرة ورحمة، فلا يخلف الميعاد ﴿عَلِيمٞ﴾ بنياتكم وطوياتكم، و﴿عَلِيمٞ﴾ كيف يثيبكم وأنّى[(١)].

فـ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ في أصل الإنفاق، فإذا عجز ففي طيبه الواجب، ثم الراجح، وكأنه هو الذي يغني ويقني! والله هو الذي ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾[(٢)].

فكل بخل وتثاقل عن طيب الإنفاق هو من وعد الشيطان، منعاً عن

---

(١) في الدر المنثور ١ : ٣٤٨ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة يا ابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد وبالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ . . .﴾». وفي نور الثقلين ١ : ٢٨٤ عن العلل بسند متصل عن أبي عبد الرحمن قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني حزنت فلا أعرف في أهل ولا مال ولا ولد وربما فرحت فلا أعرف في أهل ولا مال ولا ولد؟ فقال: إنه ليس من أحد إلا ومعه ملك وشيطان فإذا كان فرحه كان دنو الملك منه وإذا كان حزنه كان دنو الشيطان منه وذلك قول الله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ . . .﴾.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٨.

أصله، أم إفساداً في نيته أو كميته أو كيفيته، قرناً للإنفاق أم بعده بمنّ أو أذىً أم رياءٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ . . .﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1].

هنا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ تعني أبعد الخطوات الشيطانية من خلال وعدكم الفقر وسواه من وساوس وهواجس، ففي حقل الإنفاق يقول للبخيل لا تنفق، ويقول للسمح أنفق من الرديء، ويقول للمنفق من الطيبات أنفق قليلاً، وللمنفق كثيراً مُنَّ عليه، ويقول للمتمنع عن كل ذلك، اتبع إنفاقك بمنّ أو أذى أو رياء الناس.

ذلك، ولكنه لا يرضى إلّا الخطوة الأخيرة إن استطاع لها سبيلاً، والفحشاء في حقل الإنفاق هي المتجاوزة عن حدّ الاعتدال والعدل.

ومن الفحشاء في وعد الفقر وأد البنات خوفة العيلة وهو فحشاء نفسية، تتجاوز حدّ الظلم إلى أفحشه، ومنها فحشاء الربا والسرقة والميسر وبخس المكيال والإدلاء إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون، فإن خوف الفقر يُحرص النفوس ويحرِّضها على الكَلَب والسَلَب.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾:

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ هي من حكمة الدابة، التي تربطها عن مشيتها العشواء إلى

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٩.

صراط مستقيم، وكذلك الإنسان، المبتلى بالنفس الأمارة بالسوء المتخلفة عن الصراط، وبالعقل الذي قد يخطئ الصراط، فلا بدّ له من حَكَمة ربانية تعقل النفس الإمارة، وترشد العقل والفطرة عن أخطارهما إلى سوي الصراط، كسائر الحكمة.

وقد تربط آية الحكمة بآيات الإنفاق أن الحكمة في الإنفاق هي من الخير الكثير فالفطرة حكمة، والعقل حكمة، ولكنهما لا يكفيان تحكيماً لعرى الإنسانية المتشتتة، فلا بدّ من حكمة معصومة تعصمنا عن كل الأخطاء، وتمشيّنا على صراط مستقيم.

و﴿مَن يَشَآءُ﴾ هنا وفي أضرابها تدلنا على أن الحكمة المؤتاة ليست هي الفطرة ولا العقلية الإنسانية، فإنهما مبذولتان لكل إنس أو جان، ثم وليستا هما ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ بل هما قلٌّ بجنب الحكمة الربانية المتعالية، التي تعصمنا عن كل الأخطاء.

هنالك بعد الفطرة والعقل - كحكمتين داخلتين - يأتي دور حكمة الإيمان، فالتقوى، فالعدالة، ومن ثم حكمة العصمة، ولا تعني «الحكمة هنا» إلا الزائد عن الأوليين، على درجاتها حسب المساعي والفاعليات والقابليات.

فالحكمة هي بصورة عامة ما تربط صاحبها عن التعثر والتبعثر فطرياً - عقلياً - علمياً - خلقياً - عقيدياً - عملياً، وفي أيٍّ من الحقول الحيوية؛ ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ . . .﴾[١].

فلا تعني ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هنا ولا في سائر آياتها العشرين، الحكمة المختلفة البشرية، المتخلفة عن الحكمة الربانية، فهي على تناقضاتها،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

وتخلفاتها عن الحكمة الإلهية، لا تأهل لتكون من عطيات الله الخاصة، الموصوفة بـ ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ بل هي من خلفيات أفكار فلسفية خليطة من الحق والباطل، غير خليصة عما يناحر الحكمة الحكيمة.

وإذا كانت هي حكمة تمنع عن التعثُّر والانزلاق، فما هذه التعثرات الشاسعة، والاختلافات الواسعة بين أصحاب الحكمة البشرية، فلم تزد هي على كل أبعادها إلا إبعاداً عما تحكمه الفطرة السليمة والعقلية الإسلامية السامية.

وليس معلم الحكمة الحكيمة المرضية إلا الله، ورسل الله بما أرسلهم الله ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾[1] فالقرآن هو كرأس الزاوية في حقل الحكمة الإلهية في كل بنود الدعوة الرسالية ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[2].

ذلك، وكما الله حكيم[3] وأين حكيم من حكيم، إلّا أن الحكمة النازلة على رسله وسائر المصطفين من خلقه، هي من حكمته الممكن إيتاءها لخلقه، استحكاماً في سبل عبوديته.

والحكمة في آياتها العشرين هي القرآن وما يحويه، وهي حكمة نبي القرآن تفسيراً وتطبيقاً لما يحويه، ولأن القرآن حكمة في كل الحقول، فقد تعني الحكمة بكل زواياها الفطرية والعقلية والعلمية والعقيدية والأخلاقية والفردية والجماعية، اقتصادية وسياسية وحربية أماهية من حكمة تربط عن الانزلاق والتخلف.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة القمر، الآية: ٥.
(٣) لقد وصف الله نفسه بالحكيم في (٩٩) آية من الذكر الحكيم.

وأفضل الحكم الربانية على طول خط الرسالات هو القرآن العظيم، فالعلم به حكمة علمية مطلقة، والتخلُّق به حكمة خُلقية، والعمل به حكمة عملية، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله وليس ينبغي لصاحب القرآن أن يجدّ مع من جدّ ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله»[١] و«القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه»[٢] و«من أعطاه الله حفظ كتابه وظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد غمط أعظم النعم»[٣] و«كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه وأدب الله القرآن فلا تهجروه»[٤] و«أوّل ما يرفع من الأرض العلم فقالوا يا رسول الله ﷺ يرفع القرآن؟ قال: لا ولكن يموت من يعلمه - أو قال - من يعلم تأويله ويبقى قوم يتأولونه على أهوائهم»[٥].

فالحكمة التي هي ضالة المؤمن[٦] هي حكمة القرآن حيث يفتش عنها المؤمن، فضالتها - إذاً - ما ضلت عنه ويتحراها، ثم مضلّة المؤمن هي الحكمة البشرية المختلقة.

فكل إخلاص على ضوء القرآن هو نبعة لحكمة معرفية، فـ«من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٧].

وحين يكون «القرآن منار الحكمة»[٨] فما سواه هو نار الحكمة، حيث

---

(١) الدر المنثور ١ : ٣٤٩ - أخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٢) المصدر أخرج أبو نعيم في فضل العلم ورياضة المتعلمين والبيهقي عن أنس أن النبي ﷺ قال: . . .

(٣ - ٧) المصدر كلها عن رسول الله ﷺ بأسانيد عدة.

(٨) نور الثقلين ١ : ٢٨٧ - علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي =

«إن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين فمن فقه منكم فهو حكيم، وما أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من حكيم»[١] وهل يصدر فقه الدين في أصوله وفروعه إلا من وحي القرآن؟!.

و«هي طاعة الله ومعرفة الإسلام»[٢] وهل لهما منار إلّا حكمة القرآن؟.

ولقد أوتي النبي ﷺ القرآن وأوتي من الحكمة مثل القرآن[٣] وهو السُّنة المفسرة للقرآن. و«الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمرة الصدق، ولو قلت ما أنعم الله على عباده بنعمة أنعم وأنظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة لقلت قال الله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسي وخصصته بها، والحكمة هي النجاة وصفة الحكمة الثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها وهو هادي خلق الله إلى الله»[٤] «ورأس الحكمة مخافة الله»[٥] وهي «حقيقة الإيمان»[٦].

= عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ - وقد ذكر القرآن - لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، مصابيح الهدى ومنار الحكمة.

(١) المصدر في تفسير العياشي عن سليمان بن خالد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] فقال: إن الحكمة المعرفة...

(٢) المصدر في محاسن البرقي عن أبيه عن النضر بن سويد عن الحلبي عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال:...

(٣) نور الثقلين ١: ٢٨٧ عن مجمع البيان وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله آتاني القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً.

(٤) المصدر عن مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام.

(٥) المصدر عن الخصال عن الزهري عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: كان آخر ما أوصى بالخضر موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: لا تغيرن أحداً - إلى قوله -: رأس الحكمة مخافة الله.

(٦) المصدر عن الخصال عن أبي جعفر عليهما السلام قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم في بعض =

والحكمة نظرية ومعرفية وخلقية وعملية أمّاهية، ليست حكيمة إلا على ضوء حكمة القرآن، وليست الحكمة هي - فقط - قراءة القرآن، أم حفظه عن ظهر الغيب، بل هي هدي القرآن علمياً وعقيدياً وعملياً، وكما يدل على هذا الخصوص ﴿مَن يَشَآءُۚ . . . وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ . . . ﴾.

فالحكيم هو الذي استحكم بالقرآن عُرى فطرته وعقليته وإحساسه، حيث أوتي - إذاً - القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود، وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال وكافة البركات في أعمال وحركات، وذلك خير كثير، رغم أنه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فكل علم أوتيناه ككلٍّ قليل، وما يؤتيه الله لمن يشاء من الحكمة هو خير كثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ تلك العطية الربانية والخير الكثير ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزائلة عنهم قشور عقولهم، فأولو الألباب هم ممن يشاء الله أن يؤتيهم الحكمة دون أولي القشور.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾:

﴿نَّفَقَةٍ﴾ هي المأمور بها بأصل الشرع، و﴿نَّذْرٍ﴾ هو المأمور به بما لزمه على أنفسنا بنذرٍ أو شبهه عهداً أو حلفاً أما شابه، وعل ﴿نَّذْرٍ﴾ هنا

= أسفاره إذا لقيه ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فالتفت إليهم وقال: من أنتم؟ فقالوا مؤمنون، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض إلى الله فقال رسول الله ﷺ علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون ولا تجمعوا ما لا تأكلون واتقوا الله الذي إليه ترجعون.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

بمناسبة ﴿نَّفَقَةٍ﴾ هو نذر المال، وضمير الغائب المفرد في ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ راجع إلى «ما» فيهما، دون خصوص النذر أم إليهما.

إذاً فكل مال تؤتونه للمحاويج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ كماً وكيفاً ونية وطوية واتجاهاً، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وعلّ «الأنصار» تشمل هنا كل عدل وشفيع، وكل تكفير من توبة وسواها، اعتباراً أن المورد من حقوق الناس، وهي لا تغفر حتى يغفر المظلوم؟ فـ«إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة»[1].

أم أن هذه كضابطة: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ حين يموتون ظالمين، وأما من ظلم ثم كفّر عن ظلمه فهو منصور حيث يُغفر، كما وأن من مات ظالماً بصغار الذنوب تاركاً للكبائر فهو منصور حيث يغفر: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2] كما وإن من أهل الكبائر من يشفع له، ومهما كان ترك الإنفاق والنذر من الكبائر، فهو منصور حيث يغفر، وإنما الظالم الذي لا يغفر له هو الذي

(١) قد ورد متظافراً عن رسول الله ﷺ في أحاديث عدة كما في الدر المنثور ١: ٣٥٢، وفيه أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لن تنالهم شفاعتي أمام ظلوم غشوم وكل غال مارق»، فيه أخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»، فيه أخرج أحمد بن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»، أخرج الطبراني عن خزيمة بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام يقول الله وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»، فيه أخرج أحمد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونها حجاب»، فيه أخرج أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوبيخ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل».

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

مـات مـشـركـاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١] أمنَّ شابه.

ثم ﴿نَفَقَةٍ﴾ تعم كافة النفقات مالية وسواها الذي قد يربوا عليها، وكذلك ﴿نَّذْرٍ﴾ ثم لا نذرَ إلّا في طاعة الله كما لا نفقة إلا في وجه الله، فـ«لاوفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد»[٢] ملكاً شرعياً أو عقلياً أم عرفياً حيث لا يستطيع عليه تكويناً أو تشريعاً، فلا يبدل النذر حكماً من أحكام الله، فإنما يلزم عليك راجحاً من واجب أكثر مما وجب، وسواه.

فلا نذر إلا في نطاق طاعة الله كتأكيد لها، وإلا في ترك معصية الله كتأكيد لتركها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٥١ - أخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عمران ابن حصين قالت: أسرت امرأة من الأنصار فأصيبت العضباء فقعدت في عجزها ثم زجرتها فانطلقت ونذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقال: «بئس ما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها ألا لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد».

وفيه أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: «ليس على العبد نذر فيما لا يملك».

وفيه أخرج بنفس الإخراج عن أنس أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادي بين ابنيه فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي إلى الكعبة قال إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني وأمره أن يركب.

وفي نقل آخر فقال ﷺ: «اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك».

وفيه أخرج أبو داود وابن ماجة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمّه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً في معصية الله فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليوف به»، وفيه أخرج النسائي عن عمران بن حصين سمعت رسول الله ﷺ يقول: «النذر نذران فما كان من نذر في طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان ولا وفاء فيه ويكفر ما يكفر اليمين».

وأصل النذر من الخوف، وهو هنا الالتزام بما يلزم أو لا يلزم تخوفاً فيما يهمه، من تفلت في ترك واجب أو فعل محظور، أم انتظارٍ لما يتطلبه من ربه في سؤول، فلا نذر دونهما، ولا فوضى فيه تشمل كل إلزام والتزام في غير ما خوف أو رجاء، فإنما النذر بين خوف ورجاءٍ.

وهنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ بشارة لمن ينفق صالحاً أو ينذر صالحاً، فإنه وعد المنفقين ما وعد، وهو قادر على تحقيق ما وعد، وهو العالم بما فعلت، فانتظر - إذاً - ثوابه عاجلاً أو آجلاً.

ثم هي نذارة لتارك نفقة أو نذر طالحاً أم دون ما يجب، وهو القادر على نقمة الظالمين، العالم بما يعمله الظالمون، سوف يعاقبهم، فلينتظروا عقابه عاجلاً وآجلاً.

فشعور المؤمن بأنّ عين الله ناظرة حاضرة إلى نيته وعمليته، يثير في حسه مشاعر متنوعة حية، تحذراً عن كل محظور في جنب الله، وتنضُّراً بكل إنفاق منظور أو منذور في شرعة الله، وليكون على نُبهة وأهبة واستعداد، سلوكاً إلى الله، حصولاً على مرضات الله.

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾:

لكل من إبداء الصدقات وإخفاءها خيرٌ وكما في كل عمل صالح، فـ «عمل السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به»[١] وهنا في الصدقة فالأفضل «جهد من مقل وسر إلى فقير»[٢] فإن السر أبعد من الرياء.

---

(١) الدر المنثور ١: ٢٥٢ - أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: ....

(٢) المصدر أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب عن أبي =

فلأن تبنّي النفس صالحة خالصة عند الله أفضل من تبنّي الغير إلّا بعد النفس، فـ ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

ثم ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ في نفسه، نبراساً للآخرين وأسوة للشاردين، وتشجيعاً للواردين، ثم والجمع بين ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ - و - ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أن تؤتى الصدقة بادية بخالص النية، دون فارق فيها بين السر والعلن إلّا بأن العلن قدوة وأسوة.

ولأن طبيعة الحال في إبداء الصدقات تسرب الرياء وما أشبه من استخفاف الفقير وإن لم ينوه، فصدقة السرّ - هي ككل - أفضل من العلن، فإن فقدت قدوة فليست لتبتلى بالرياء، ودفع الضر أولى من جلب مزيد الخير.

فلذلك ترى أحاديث النبي ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام تتواتر بفضل صدقة السر، لحد «يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله»[1] «صدقة السر تطفئ

= ذر قال قال لي رسول الله ﷺ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، قلت فالصلاة يا رسول الله؟ قال: خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء أكثر، قلت: فالصوم يا رسول الله؟ قال: قرض مجزئ، قلت: فالصدقة يا رسول الله؟ قال: أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد، قلت فأيها أفضل؟ قال: جهد من مقل وسر إلى فقير».

(١) المصدر ٢٥٤ - أخرج أحمد والبيهقي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد؟ قالت: فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء قالت: فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالت: فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله».
وفيه عنه ﷺ: «إنه ممن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله».

غضب الرب»[١] ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ تعني الصدقات الظاهرة في نفسها، ثم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في أنفسكم، وأين خير من خير، حيث الثاني يصنع الأنفس والأول صانع الآخرين، ولذلك فضّل السر على العلن بكلمة التفضيل ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أنفسكم من صدقة العلن، وقد تشمل ﴿لَكُمْ﴾ الفقراء إلى جانب الأغنياء حفاظاً على كرامتهم كما تحفظ الأغنياء من الرياء.

ولأن الصدقة الواجبة هي أبعد عن الرياء من النافلة، فإبدائها - إذاً - قد يكون أفضل من إخفائها اللهم إلا رياء الناس، كما أن إخفاء النافلة أفضل من إبدائها اللهم إلا اتقاء رياء الناس وهكذا تفسر الأحاديث المفسرة لإبدائها بالفريضة ولإخفائها بالنافلة[٢].

وليست الآية لتعني نافلة الصدقة ككل[٣] كما لم تنقسم إلى فريضة في إبدائها ونافلة في إخفائها، حيث «الصدقات» تحلق عليهما، مهما كانت معاكسة الفضيلة في الإبداء والإخفاء بين الفريضة والنافلة.

ثم الصدقة قد تكون صفة للعطية، فقد تعني العطية الصادقة، صدقاً مع الله حيث تُعطى في سبيل الله وتصديقاً لوعد الله حيث وعد إضعاف الجزاء،

---

(١) فيه أخرج الطبراني عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: . . .

(٢) نور الثقلين ١: ٢٨٩ - القمي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كل ما فرض الله عليك فإعلانه أفضل من إسراره وكل ما كان تطوعاً فإسراره أفضل من إعلانه ولو أن رجلاً حمل زكاة ماله على عاتقه فقسمها علانية كان ذلك حسناً جميلاً.
وفيه عنه عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قال: هي الزكاة المفروضة، قلت: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١] قال: يعني النافلة، إنهم كانوا يستحبون إظهار الفرائض وكتمان النوافل.

(٣) المصدر عن الكافي بسند متصل عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال قلت له: ﴿إِن تُبْدُوا. . .﴾ [البَقَرَة: ٢٧١] قال: ليس من الزكاة . . . أقول: تعني المفروضة، وفيه عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا. . .﴾ [البَقَرَة: ٢٧١] قال: هي سوى الزكاة ان الزكاة علانية غير سر.

وصدقاً مع عباد الله حيث تعطى دون منّ ولا أذى، وصدقاً مع نفس المعطي حيث لا تخالجها أية خالجة خارجة عن الصدق.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾:

الهدى هي واقعها بعد الدلالة إليها وتقبلها، و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ﴾ ولا لك ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ لأنها توفيق وتكوين وهما من مختصات الربوبية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1].

فلقد كان حريصاً على هداهم شغفاً إلى هدى الله فنبهه الله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[2].

والهدى هنا تعم القلبية والعملية، و﴿وَمَا تُنفِقُوا۟...﴾ تناسب الثانية كما تناسبها الآيات السالفة، فقد كان الرسول يدأب في حملهم على هداهم في صالح الإنفاق، وكان يتحسر على تخلفاتهم عنه، فأذهب الله عنه الحزن بما بين أن ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الهدى، ومن يشاء أن يهديه وهو الذي يحن إلى هدىً، فلا أن مشيئه بيدك ولا مشيئته الله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[3].

وقد يعني ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ الأولى إلى جانب الثانية، ألا تختص بإنفاقك أهل الإسلام وتحرم من سواهم إذ لم يهتدوا حتى يهتدوا وكما يروى «أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

الآية فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين»[1]، ثم تشجيعاً للمنفقين يثلث لهم الترغيب:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ وليس لله حيث لا ينتفع به الله، وإنما أنفسكم أنتم حيث تزدادون سماحة في أنفسكم ونماءً في أموالكم وخيراً في أولاكم وأخراكم، وذوداً عنكم كل دوائر السوء من المعدمين.

كما والمنفَق إليهم هم أيضاً من أنفسكم، وفي أخوة إسلامية - أم ولأقل تقدير - أخوة إنسانية، فقد يأمركم الله بالإنفاق الراجع بصالحه في كل الأبعاد قريبة وبعيدة إلى أشخاصكم وإلى ذوي نوعكم، من أهل الكتاب وسواهم، ومن المسلمين مهما تفاضلوا في وجه الإنفاق.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ إخبار يحمل آكد الإنشاء، أمراً مؤكداً بوجه الإنفاق أنه فقط ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ ورضاه لا سواه، فالإنفاق في ذلك الوجه هو خير ولأنفسكم، وإلا فهو شر وعلى أنفسكم، وحين يكون الإنفاق لوجه الله فلا يختص بأهل دينكم بل وأهل كل الأديان مهما كان المسلمون أفضل.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ و﴿خَيْرٍ﴾ هنا وهناك تعني خير الإنفاق نية وكيفية وفي مادته، ثم ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وعد بالوفاء ولكنه

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٥٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء عن ابن عباس أن النبي ﷺ . . . وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال كان النبي ﷺ لا يتصدق على المشركين فنزلت ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢] فتصدق عليهم، وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا إلا على أهل دينكم» فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢] فقال رسول الله ﷺ: «تصدقوا على أهل الأديان»، وفيه أخرج سفيان وابن المنذر عن عمرو الهلالي قال: سئل النبي ﷺ أنتصدق على فقراء أهل الكتاب فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ . . .﴾ ثم دلوا على الذي هو خير وأفضل فقيل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ . . .﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣].

أضعاف كثيرة أقلها سبعمائة ضعف كما تقدمت في آية الأضعاف، ثم وذلك الوفاء هو في مثلث النشآت: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

فليس فقط ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بل هو تنازل في حدِّ الوفاء، أم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ فيما وعدتم وهو ضِعف العذاب، مهما كان الإنفاق لغير المسلم، اللهم إلا من يتقوى به ضد الإسلام، ولمن ننفق كأفضل موارده حتى نكسب أفضل الوفاء؟:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾:

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وهم الذين أفقرهم العُدم وهم أسوأ حالاً من المساكين، وهم في خماسية الأرجحية على سائر الفقراء:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حصراً لكل حركاتهم وبركاتهم في سبيل الله، جهاداً وسواه والمؤمن كل حياته جهاد، وكل مواقفه حراسة على شرعة الله، ومراسة للدفاع عن حرمات الله، كأهل الصفّة الذين ظلوا في مسجد الرسول حَرَساً لبيوت الرسول، لا يخلص إليها من دونهم عدو، حصراً لحياتهم وكل فعالياتهم في سبيل الله وهؤلاء كانوا أضياف الإسلام[3]، وهكذا كل هؤلاء الأكارم - على مرّ الزمن - الذين يعيشون في

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) الدر المنثور ١: ٢٥٨ - أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم»، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يلوون على أهل ولا مال إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها.
=

سبيل الله حياتهم، حيث النص عام يحلق على كل المحصرين في سبيل الله.

٢ - ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للحصول على حاجياتهم المعيشية، فإن المحصر في سبيل الله الذي يستطيع ضرباً في الأرض لضرب من الحاجة المعيشية، هو أخف وطأة من أولئك الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض.

٣ - ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ حيث هم متجملون كما الأغنياء، وهم متحملون الفقر لا كسائر الفقراء فيحسبهم الجاهل بأحوالهم أغنياء من التعفف، حيث لا يظهر منهم ظاهر الفقر والحاجة لتعففهم عن إظهار الحاجة، بل وعن ظهورها، فلا يتفطن إلى واقع حالهم إلا ذوو البصيرة النافذة، دون الجاهل غير المتفطن بخفي الحال، ما لم تظهر بظاهرٍ جالٍ.

٤ - ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أنت يا رسول الهدى ومن نحى نحوك من أهل البصيرة، حيث السيما الظاهرة تنبئ لأهل الفراسة عن الحالة الخفية غير الظاهرة، فذو الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التجمل من عبء التحمل، حيث المشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها في حياء وتعفف لئلاء.

= وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن فضالة بن عبيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قيامهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة وهم أهل الصفة حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين، وفيه عن أبي هريرة قال كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء فيه أخرج أبو نعيم عن الحسن قال: بنيت صفة لضعفاء المسلمين فجعل المسلمون يوغلون إليها استطاعوا من خير وكان رسول الله ﷺ يأتيهم فيقول: السلام عليكم يا أهل الصفة فيقولون وعليك السلام يا رسول الله فيقول: كيف أصبحتم فيقولون بخير يا رسول الله ﷺ فيقول: أنتم اليوم خير أم يوم يفدى على أحدكم ويراح عليه بأخرى ويغدو في حلة ويراح في أخرى فقالوا: نحن يومئذ خير يعطينا الله فنشكر فقال رسول الله ﷺ: «بل أنتم اليوم خير».

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وهل الإلحاف هو الإلحاح والإصرار في السؤال؟ وهو يناسب السؤال دون الإلحاح! فأين - إذاً - التعفف؟ وكيف يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؟ وكيف لا يعرفون إلّا بسيماهم!.

أصل الإلحاف من اللحاف وهو ما يتغطى به، يقال: ألحفته فالتحف، فهم - إذاً - لا يسألون الناس إلحافاً على فقرهم كيلا يبدو، فلا يسألون لا إلحاحاً ولا دونه سؤال، فهم ليسوا ليعرفوا بالسؤال، وإنما بسيماهم، وذلك مدح مديح لمن لا يسأل على فقره، وترى السؤال مذموم حتى عند الضرورة التي قد تسمح بالسرقة قدرها؟.

كلّا[١] ولكن ذلك التعفف لا يخلي الفقير يضطر إلى سؤال، حيث الأغنياء ليسوا كلهم جهالاً ولا أغبياء فمنهم أهل الفروسية والبصيرة، يعرفونهم بسيماهم.

هذا - «ومن سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة كدوحاً أو خموشاً أو خدوشاً في وجهه ...»[٢] و«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى

---

(١) الدر المنثور ١: ٢٥٩ - أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن حبان عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا أن يسأل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بداً».

وفيه أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس في غير فاقة نزلت به أو عيال لا يطيقهم جاء يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم» وقال ﷺ: «من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به أو عيال لا يطيقهم فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب»، فيه قال رسول الله ﷺ: «من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم قالوا يا رسول الله ﷺ وما يغنيه؟ قال: ما يغذيه أو يعيشه»، فيه عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فقلنا: علام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتطيعوا ولا تسألوا الناس فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه.

(٢) نور الثقلين ١: ٢٩٠ عن المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأيدي ثلاثة فيد الله العليا ويد=

الله وليس في وجهه مزعة لحم»[١] و«من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً أتكفل له بالجنة . . . »[٢] فـ«إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب[٣]، و«إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث: لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع»[٤].

وهذه الخماسية الخميصة للفقراء أخمص من فقرهم، وأغنى من غنى الأغنياء، هذه تجعل الإنفاق إليهم في أعلى القمم.

= المعطي التي تليها ويد السائل السفلى إلى يوم القيامة ومن سأل . . . قيل وما غناءه؟ قال: خمسون درهماً أو عدلها من الذهب.

(١) الدر المنثور ١: ٣٥٩ - أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: لا تزال. . .

(٢) الدر المنثور ١: ٢٦٠ - أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٣) وفيه أخرج ابن حبان عن أبي ذر قال قال لي رسول الله ﷺ «يا أبا ذر ترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أفترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب»، وفيه أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الزهد عن سعد بن أبي وقاص قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: «عليك بالإياس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر وإياك وما يُعتذر منه».

(٤) وفيه أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنة والنسائي والبيهقي عن أنس أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء، قال: ائتني بهما فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم قال رسول الله ﷺ: من يزيد على درهم، مرتين أو ثلاثاً؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما للأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوماً فأتني به فأتاه فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وبع فلا أرينك خمسة عشر يوماً ففعل فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال رسول الله ﷺ هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة أن المسألة لا تصلح إلا لثلاث.

وتلك هي صورة عميقة الإيحاء يرسمها ذلك النص الجلّي العلي على اختصاره، ترسم كل الملامح والسمات لتلك الوجوه المضيئة بإشراقه الإيمان، المليئة من الاستحياء على بأسها وبؤسها في حاجيات الحياة المعيشية، وكأنك تراها من خلال هذه الجملات الجميلة.

وهم أولاء أفضل من يُنفَق لهم، وأحرى من تخفي لهم صدقاتهم، حفاظاً على كرامتهم، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾:

هنا تتقدم ﴿سِرًّا﴾ على ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ تأشيراً لتقدُّمه عليها كأصل إلّا ما خرج بالدليل، فإن في إنفاق السر حفاظاً على صالح النية، وعلى كرامة الفقير، مهما كان إنفاق العلانية تشجيعاً لسائر الناس في الإنفاق، ولكن ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1].



﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾

الآيات الأولى في هذا الشطر تحمل حملة عنيفة مفزعة وتهديدة رعيبة مقرعة على الربا والمرابين، لا نجدها على أية كبيرة عملية أم وعقيدية، اللّهم إلّا على تولية أعداء الدين وتولّيهم، فإنها خطر حاسم على كافة النواميس فردياً وجماعياً، تتساقط متضائلة عندها الأموال والأنفس

والأعراض والعقول والعقائد وكل الحلوم المؤمنة حيث يسيطر عدو الدين على الدين والدينين.

والربا قد تكون من أنحس مصاديق الأكل بالباطل حيث الباطل يقابل الحق، وهو يعم الأكل بالسعي، قدر الحاجة كما في الأموال المشتركة، والأكل قدر السعي كما في الأموال الخاصة، والأكل دون سعي حيث يكل أو يقل، كما في الإنفاقات المستحقة واجبة أو مستحبة، والأكل دون سعي بلا كلّ أو قل، وإنما رغبةً للساعي وإمضاءً من الله كما في تركة المورث أمّا شابه.

فكل هذه الأربعة من الأكل هي من الأكل بحق وليس باطلاً مهما كان دون سعي، ولا تعارضه آية النجم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فإنها تثبت أن له سعيه فله أن ينفق من سعيه ما يشاء حسب المقرر في شرعة الحق، قرضاً حسناً أو هبة أو عارية أو صدقة أو نفقة، فلما حلّ للساعي أن ينفق يحل لغير الساعي أن يقبل الإنفاق، بل قد يجب حينما يجب الإنفاق أم هو ضرورة معيشية للمنفَق عليه.

كما وقد تختص قاعدة السعي بأخذ الأموال دون رضىً من أصحابها الخصوص، أو دون مبرر في الأموال المشتركة العامة، أو أنها كأبرز الموارد من أكل المال بالحق وكما في آية التجارة عن تراض: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[2] إذاً فـ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ في حقل المال، لا تعني كل الحق في أكل المال، بل هو أحق الحق، ورأس الزاوية في الأكل بالحق، وليست آية السعي تخص المساعي

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٩.

المالية حتى تصرح أو تلمح باختصاص الحل في السعي، بل هو يعم كل حق بسعي ودون سعي.

وأخيراً فالنصوص المتواترة كتاباً وسُنة في حلّ الأكل دون سعي في موارده تخصص قاعدة السعي - إن دلّت على الاختصاص - بما سوى مواردها، مع العلم أن البطال القادر على السعي ليس له من بيت المال شيء، اللهم إلّا ميراثاً من قريب.

والربا خطر على كل الحقول الاقتصادية هدماً لبناء الموازنة العادلة بين المساعي والأموال، واختلاق معادي في جعل الشطر الإنساني الموحّد شطرين متناحرين متنافرين، فهنا غني هارع قارع، وبجنبه فقير مدقع ضارع.

وهنا عرض عريض لشُحِّ الربا وقذارتها ودنسها بأثَرِيتها وفرديتها النحسة النجسة، بعد عرضٍ لعطاء الصدقة وسماحتها وطهارتها وزكاتها في تعاونها وتكافلها.

ولم يبلغ الإسلام من تفظيع أمر الجاهلية ما بلغه من تفظيع أمر الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغه من التهديد في أمر الربا، وقد وردت أحاديث متواترة تغليظاً في حرمتها[1].

لقد كانت للربا في الجاهلية الأولى مفازعها بمفاسدها وشرورها، إلّا أن الجوانب الأشنع قبحاً من وجهها الكالح القبيح ما كانت بادية مثل ما بدت في الجاهلية المتحضِّرة، ولا كانت البثور والدمامل مكشوفة في الجاهلية الأولى كما كُشِفت في الجاهلية الثانية.

(١) الدر المنثور ١: ٣٦٤ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

فقد يدرك الذين يريدون التدبر في حكمة الله في شرعته وكمال منهجه ودقة نظامه، ويدركون اليوم ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص زمن الوحي القرآني، وأمامهم اليوم من واقع العالم المرير الشرير ما يصدق كل كلمة كلمة من التهديدة الكاملة ضد الربا تصديقاً حياً مباشراً معاشراً خلفيّتها النكدة، فحكم الربا - بحكمة منعها وأذان الحرب من الله ورسوله فيها - إنها من الملاحم القرآنية.

فالبشرية الضالة المضللة التي تأكل الربا وتُؤكلها تنصبُّ عليها البلايا الساحقة والرزايا الماحقة من جرّاء النظام الربوي في أخلاقها وصحتها ودينها وكل اقتصادها، فتتلقّى - حقاً - حرباً من الله ورسوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾!.

لقد شاعت اليوم الاشتراكية والشيوعية وحلَّقت على شطر عظيم من البشرية، كما شاعت الرأسمالية، وهما وليدان غير شرعيين لأكل المال بالباطل، الذي يمثله - كأكثر تمثيل - الربا الطاغية الداعرة الدائرة البائرة، المبيدة بين المجتمعات والأفراد.

وهنا بين والد وما ولد من ثالوث النظام الربوي بولديه الرأسمالية والشيوعية، نظام وسط هو الإسلام، القاضي على ثالوث الظلم والفساد بنظامه الاقتصادي العادل المعدِّل للبشرية.

وهما لا يلتقيان في تصور ولا في أساس ولا في واقع، كما لا يتوافقان في نتيجة.

فمن الجوانب السلبية في الاقتصاد الإسلامي الخطر البالغ عن أكل المال بالباطل وإيكاله في مثلث:

الأموال الشخصية ببعديها:

١ - لك أو ٢ - لمن سواك، ٣ - والأموال المشتركة، فإن شرعة

الإسلام هي شرعة الكدح والسعي دون أية بطالة أو بتالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾(١) ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢).

فكما السرقة وسائر الخيانات المالية هي من أكل المال بالباطل، كذلك الربا - بل هي أنحس - وبخس المكيال أمّا شابه، مهما اختلف أكل عن أكل، من باطل ككلّ، أم باطل نسبي، ومن الأوّل الربا إذ ليس فيها أي حق أو سعي يستحق به آكلها ما يأكله، كما من الثاني أن تبيع بأغلى من واقع الثمن غير المختلق، فتربح زيادة عن سعيك، وهكذا في كل تجارة وإجارة تَجُرُّ بِها إليك أكثر مما سعيت، فإنها تتشارك في أنها أكل للمال بالباطل، مطبَقاً أم جزئياً، وكل ذلك ربىً مهما اختلفت دركاتها، فالأولى هي الربا الأصيلة التي تستأصل الاقتصاد عن توازنه العادل بأسره، والثانية هي الربا الفرعية، وقد لعنها رسول الله ﷺ بأسرها آكلاً وموكلاً وشاهداً وكاتباً وهم سواء(٣)، كما وبشر صيارفة الربا بالنار(٤).

فالذي يبيعك ما يسوى خمسين بمائة إنما خسرّك هنا مرة، ولكن الذي يرابيك مثلاً في مئة ألف بألفين شهرياً، لا يدعك أبداً ترتاح بلقمة عيش وبُلغته، فإنه يستأصل تدريجيّاً كل مالِك ومالَك من طاقة فتصبح صفراً فيهما وقد أصبح هو على جهدك وسعيك وله مئات الآلاف.

وهنا في الوسط تغلى - بطبيعة الحال - الأسعار أكثر من حالتها

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٦٧ - أخرج مسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه وقال: هم سواء.

(٤) المصدر أخرج الطبراني عن القاسم بن عبد الواحد الوراق قال: رأيت عبد الله بن أبي في السوق فقال: يا معشر الصيارفة ابشروا، قالوا: بشرك الله بالجنة بما تبشرنا؟ قال قال رسول الله ﷺ للصيارفة ابشروا بالنار.

العادية، سواء في الأجور أو السِلَع، ولكي يوفي المقترض بالربا ما عليه من الربا بجانب ما يضطر إليه في عيشته اليومية.

وإن العاملين بالربا هم ضريبة مستقيمة لآكليها، ثم وجميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين، فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون الربا إلّا من جيوب المستهلكين بجنب ما يدفعونه من كدّهم أنفسهم، فهم - إذاً - وبطبيعة الحال يزيدون في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤوها على كل أهل الأرض لتدخل في النهاية في جيوب المرابين، والاستعمار - في الأغلب - هو نهاية الديون، كما الحروب هي من الاستعمار!.

ولأن المقترض بالربا فقير لا يكفيه عمله إمراراً لمعيشته، يصبح بكل كدِّه في جزره ومده أفقر مما كان وأعيا في الأكثرية الساحقة، كما يصبح الوسطاء بينهم وبين المرابين فقراء من عبء العيشة المثقلة عليهم من التضخُّم الكاذب للأسعار، في حين تتكاثر أموال المرابين على طول الخط فيصبح المجتمع المرابي في مثلث لا ضلع له ضليعاً له طُوله وطَوله إلّا آكل الربا، ثم محقاً للآخَرين مهما اختلف العمال بالربا والمشترون، فالمرابي يربح على طول الخط، والعامل المقترض بين رابح وخاسر، وربحه يقتسم بين ما يدفع للمرابي وما يصرفه في حاجياته الضرورية كافية وسواها، ثم المتعاملون الآخرون يحملون أعباء الغلاء في الأسعار، والنتيجة أن المال كله يختص بجموع المرابين.

ثم إن المستدين بالربا بين أمرين في رأس ماله هذا، إما أن يستمر في دفع الربا فخسارة دائبة إضافة إلى دائب المتعاملين معه، أم يحاول في الحصول على مال يرجع رأس ماله إلى صاحبه فهو أخسر للمتعاملين، فإن

عليه أن يربح أضعاف حقه حتى يحصل على عوائد مثلثة الزوايا، صرفاً في حاجياته ودفعاً للربا وجمعاً لمثل رأس ماله.

هذا! وقد يقترض الفقير لإمرار معيشته اليومية دونما عمل فيه لعجز أم قصور فيما اقترض، فهو السحيق المحيق منذ يقترض، قد يضطر أن يفدي بكل ماله من مسكن وملبس أم وعرض وما شابه.

هنا تجتمع الثروات الضخمة عند المرابين ويخلو الجانب الآخر من المال، كما تغلو الأسعار وفاءً لعبء الربا من جانب هؤلاء الفقراء المعدمين، فهذه الرأسمالية الظالمة ومن ثم الشيوعية، هما وليدتان غير شرعيتين للنظام الربوي أكثر من كل أقسام الأكل بالباطل!.

ومن ناحية أخرى تدحر الربا أصالَة العمل والكدح وحرمتَه إلى أصالة نفسها التي هي بصيغة أخرى أصالة البطالة، كما ويعدم المعروف بأسره عن المجتمع، فلا عطف على الفقراء في قرض حسن، اللّهم إلّا موتاً آخر بعمل كادح قادح لا يحصل عامله على بُلغة عيشه[1].

---

(١) في الوسائل ١٢: ٤٢٤ محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن تحريم الربا! فقال: «إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرم الربا لتنفر الناس من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات من البيع والشراء فيبقى ذلك بينهم في القرض».

وفيه عنه بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنما حرم الله الربا كيلا يمتنعوا من صنائع المعروف» أقول: لأن المرابي إضافة إلى اقترافه منكر الربا ليس ليقرض ماله قرضاً حسناً فضلاً عن إنفاقه في سبيل الله، فالمعروف أعم منهما.

وفيه عنه بإسناده عن محمد بن سنان أن علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من واجب مسائله: وعلة تحريم الربا لما نهى الله عزّ وجلّ عنه ولما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً، فبيع الربا وشراءه وكس على كل حال على المشتري وعلى البائع فحرم الله عزّ وجلّ على العباد الربا لعلة فساد الأموال كما حظر على السفيه أن يدفع إليه ماله لما يتخوف عليه من فساده حتى يؤنس منه رشده، فلهذه العلة حرم الله عزّ وجلّ الربا، وبيع الدرهم بالدرهمين. =

لا تجد أي باطل في الاقتصاد الإسلامي في مثلثه: تحصيلاً، وصرفاً لمصالحك الشخصية، وإعطاءً لآخرين، حيث الزوايا الثلاث فيه محصورة بسياجات عاقلة عادلة وفاضلة، لا يستطيع صاحب المال أن يتخلف عنها، فلا تحصل طبقية ظالمة عارمة بين من يطبِّقون ذلك العدل في الاقتصاد.

فلا دور هنا للبطالة بكل صورها، اللّهم إلّا قصوراً عن أي عمل مستطاع تحصل به ضرورة المعاش، فمن وهبه الله سعة، عليه أن يفيض منها على من قُدِر عليه رزقه دون منٍّ ولا أذى ولا نظرة جزاءٍ إلّا مرضات الله.

فكما لا يسمح الإسلام أن تكون كلّاً على غيرك إلّا بضرورة، كذلك لا يسمح لك أن تختص بواسع رزقك - دون إنفاق له - إلّا قدر الضرورة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(١)] وهو الزائد عن الحاجة المتعوّدة، وذلك غاية الإنفاق ونهايته التي تقتضيها ضرورة المعاش للقاصرين، فإذا كنز - إذ هو غير محتاج إليه - فبشره بعذاب أليم!.

فالمال في الاقتصاد الإسلامي دُولة بين كل المسلمين، دون الأغنياء المترفين ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[(٢)] ولا نصيب من الأموال الخاصة أو العامة إلّا قدر السعي والحاجة ثم الباقي الذي تحصل عليه بسعي أكثر وعمل أوفر، عليك أن تنفقه في سبيل الله قدر الحاجة في الحقل الإسلامي فردية وجماعية، شعبية أو حكومية.

= وعلة تحريم الربا بعد البينة لما فيه من الاستخفاف بالحرام المحرم وهي كبيرة بعد البيان وتحريم الله عزوجل لها لم يكن استخفافاً منه بالمحرم الحرام والاستخفاف بذلك دخول في الكفر وعلة تحريم الربا بالنسيئة لعلة ذهاب المعروف وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض والقرض صنائع المعروف ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال أقول: ورواه في عيون الأخبار وفي العلل بأسانيد متصلة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

وإن أوّل ما يتهدم بالربا من بنايات المجتمع الإنساني - قبل تهدم الأركان الاقتصادية - هو العطف والخُلُق الإنسانية، وكل قواعد التصور الإيماني، انتفاعاً عارماً من كدح الآخرين والمرابي مرتاح في قصر الرعونة والترح، لا يراعي للكادحين الفقراء وسواهم إلّا ولا ذمةً، ولا يراقب فيهم عهداً ولا حرمة، راجعة إليهم حصيلة البشرية ككل ودون إبقاءٍ إلّا عملاً دائباً بلقمة مريرة بين موت وحياة، يشربون دماءَهم بكل امتصاص، ويرون دموعهم قائلين لا مساس، أم قد يحظون حظوة من بؤس الجياع دونما احتراس.

وهم أولاء لا يملكون - فقط - المالَ وحده، وخيوطَ الثروة العالمية وحدها، بل ويمتلكون بدُولَة المال بينهم دَولة الحال بالسلطة الزمنية، بل والروحية المختلَفة، ساخرين من حكاية الأديان والأخلاق وسائر المبادئ والمُثُل الإنسانية والإيمانية، باذلين أموالهم بكل ابتذال في مستنقعات آسنة من الملذات والشهوات، جارفين معهم سائر الناس إلى حيوانات رذيلة، صادين عن كل فضيلة.

ومن أعظم الكوارث في الجاهلية الثانية المتحضرة استخدام كل وسائل الإعلام الحديثة لإنشَاء عقلية دخيلة شاملة بين جماهير المستضعفين، الذين يأكل هؤلاء عظامهم ولحومَهم، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي، قلة عارمة تجعلهم يعترفون أن هذا النظام هو الوحيد الصالح للنمو الاقتصادي، وأن من بركاته هذه الحضارة الغربية المتقدمة، وأن من يريدون إبطاله هم جماعة خياليون لا رصيد لهم في صالح الحياة!.

وقد يقال إن رأس المال في الربا هو العمل المتبلور المتمثل في النقود، فكما العمل له أجرة، كذلك ما يمثله إذ هو حصيلته.

كما أنك تسعى وتحصل على مال تشتري به داراً ولك أن تؤجرها، فإنهما في كونهما تبلوراً للسعي لا فرق بينهما؟!.

ولكن الأجر ليس إلّا للسعي نفسه، دون أجرته، فهل تأخذ أجرة على الأجرة التي عندك حتى تأخذها عمن سواك إذا أقرضته، دون أي عمل منك في الحالتين؟.

ومن الفارق بين المثالين، أن لمثل الدار منفعة دون سعي فلها - إذاً - مقابل، وليس لأصل النقود منفعة دون سعي، وليس الحاصل من سعي الساعي في مالك إلّا من سعيه مهما ساعده مالك، وأصالة السعي تقتضي اختصاص الفائدة بالساعي.

ثم إن سكن الدار منفعة بلا ضرر إضافة إلى أنها دون سعي من المستأجر، ولكن النقود قد تنتفع بها وقد تتضرر وهي قد تنفع ولا تضر، فحين يتحمل المستدين نفعاً خالصاً ما دام عنده المال فقد بطل سعيه حين لا ينتفع، وقلَّ حين ينتفع، لا لشيء إلّا لأن عنده لك مال ليس بنفسه ينفع إلّا أن يتحرك، فليست المنفعة إلّا للسعي، مهما شارك الساعي فيها صاحب المال عند المضاربة، ولكنها ليست فقط مشاركة في المنفعة بل وفي الضرر أيضاً.

فما المضاربة إلّا مشاركة سعيين، حيٌّ هو للعامل وميت هو مالك والمنافع والمضار فيهما مشتركة، وحين لا ضرر ولا نفع فهما شريكان في عدم النفع والضرر، ثم والنصيب الأوفر في المنافع هو للعامل، لأن عمله حيّ وذاك ميت هو يحييه، وأن عملك الميت مال زائد عن حاجياتك الضرورية وعمله الحي حاجة ضرورية، وأن عملك الميت ليس لينتج عوائِد دون ضم لعمله الحي، وعمله الحي ينتج دون عملك الميت مهما كان أقل إنتاجاً، إذاً فله النصيب الأوفر من منافع السعي كالشريكين المختلفين في

السعي، فعيشة البطالة ممنوعة في الاقتصاد الإسلامي على أية حال، اللّهم إلّا للقاصرين عن السعي الوافي للمعيشة، فلا نصيب لصاحب مُرَّة قوى من بيت مال المسلمين زكاةً وسواها، إنما هم الفقراء والمساكين حالاً ومالاً، دون هؤلاء البطالين الذين يتركون المساعي المحللة فيأخذون الربا أو الصدقات والزكوات أمّن سائر حقوق الله، لا لشيء إلّا خيالات مختلقة كأن لهم حقوقاً في بيت مال المسلمين.

فلا حظّ إلّا للساعي قدر سعيه، أو القاصر - على هامشه - قدر قصوره، سواءٌ أكان السعي فكرياً علمياً أو عملياً، فإنما هو السعي النافع لإدارة شؤون الحياة، الذي يبذل بإزائه المال و﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

هناك في آية مكية نجد أول حظر من الربا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[١].

ثم في مدنية يغلظ النهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] وفي ثالثة تذم الذين هادوا بأخذهم الربا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[٣].

ومن ثم آية البقرة هذه وهي آخر ما نزلت بشأن الربا كما وأنها من أخريات ما نزل من القرآن كله، نجدها كأغلظ ما يكون تحريماً مهدداً بحرب

(١) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٠، ١٦١.

من الله ورسوله، ما يربوا على عشرات من الآيات التي تهدد بشأن أكبر الكبائر، كما وهي أشمل من الأولين نطاقاً وإطلاقاً، وقد تكون المدينة الأخرى قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ فإنها تنهى عن مضاعفات الربا.

فما قلة ذكرها في الذكر الحكيم مما يقلل من محظورها، حيث العبرة بصيغة التعبير دون عديدة.

في الأولين - فقط - تنديد بالمؤمنين الذين يأكلون الربا، وهنا تنديد بكل هؤلاء الذين يأكلونها، تقديماً لمستحليها الكافرين، وتنديلاً بآكليها من المؤمنين، تحليقاً في حرمتها على كل العالمين دونما إبقاء، كما وأن آيات حرمة أكل المال بالباطل تشمل الربا كأصل كما تشمل غيرها، ولا سيما المهددة بقتل الأنفس في حقل الأكل بالباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ...﴾:

فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشمل كتلتي الكفر والإيمان، وكما يدل عليه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ...﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ...﴾.

وكما ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الطليقة هنا تشمل الربا الخالصة وهي التي تؤخذ دون مقابل من سعي وسلعة كربا القرض، والربا النسبية وهي الزيادة على الحق المستحق كربا المعاملة، أو الزائد على سعي، كالعامل الذي يأخذ أكثر من

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

مستوى سعيه، وصاحب العمل الذي يأخذ من عمل العامل أكثر من أجره، وكل من البائع والمشتري الذي يأخذ أكثر من مستحَقِّه، والمستحِلُّ المستغِلُّ من الأموال العامة أكثر من سعيه أو مستحقه أمن ذا من آكل ما ليس له إذ لا يقابله سعي واستحقاق، اللّهم إلّا العجزة والقُصَّر العاجزون عن سعي يكفيهم لضرورة المعاش حيث يأكلون من بيت المال دونما تدجيل ولا إدغال.

فصيغة الربا - وهي لغوياً الانتفاخ والزيادة -[١] تعم كل هذه وتلك مهما اختلفت دركاتها.

فكل انتفاخ لمال أو عمل أمّا شابه، يخيِّل إلى الناظر حقيقة الواقع وواقع الحقيقة، لتُستلب به زيادةٌ عن الحق، تشمله الربا فإنها زيادة عن الحق في كل الأعراف السليمة فضلاً عن المسلمة، مهما اختلفت ربا عن ربا.

فالذي يقرض مالاً له بفائِدة مستمرة ودون عمل منه، هو أربى المرابين، ثم وأرباهم مَن يأكل الربا أضعافاً مضاعفة، انتفاعاً من الربا كانتفاعه من رأس مالها، فهو ربا على ربا، ثم ربا المعاملة في آية معاوضة.

ثم الذي يَعمل أو يُعمل له ويأخذ زيادة - يسيرة أو كثيرة - عن استحقاقه في عمله وسعيه هو أدنى المرابين مهما اختلفت دركاتهم.

هنا مثلث الآيات تتجاوب في حرمة أكل كل زيادة عن السعي، فآية الأكل بالباطل تمنع عن أكل كل باطل، وآية السعي تحصره في السعي قدره العادل، وآية الربا تمنع كذلك عن كل زيادة عن الاستحقاق العاقل.

---

(١) فالانتفاخ مقدمة للزيادة، فكما الانتفاخ تظاهر بما ليست له حقيقة ولا واقع، ثم يستجلب به زيادة حق ليست بحق كذلك الربا ككل، انتفاخاً لرأس المال ليؤكل من منافعه دون عمل، أو انتفاخاً للعمل حتى يؤخذ عليه أجر أكثر، أو انتفاخاً لسلعة حتى تبدل بثمن أكثر وهكذا.

وليست الزيادة الممنوعة محصورة في المساحة عملاً أو سلعة أماهية، أم زيادة الثقل أو العدد، إنما هي - ككل - زيادة السعر عن العادل المعتدل.

فخلاف ما يقال أن مناً من سمن لا يبدَّل بأكثر منه من لبنه لاتحاد الأصل، نقول لا تجوز المبادلة بينهما إلّا بسوي السعر، فقد يسوى منٌّ من الدهن عشرين مناً من اللبن فلا ربا في هذه الزيادة وزناً، بل وإذا تساويا وزناً فأخذ السمن بديلاً عن قدره من اللبن هو الأكل بالباطل عشرين ضعفاً.

ثم ولا تختص الربا المعاملية بالبيع، حيث تعم كل المعاملات الربوية، ولا بالمكيل والموزون، بل والمعدود وما أشبه من غيرهما كالأراضي، وبالأحرى لا تختص بربا القرض.

فقد تأتي الربا في كافة المعاملات قرضاً وسواه، نسيئة أو نقداً، فإن الربا - كما تدل لغوياً - هي الزيادة، أعني الزيادة عن المستحَق، مهما كانت ربا القرض من أربى الربا، ثم ربا البيع وسائر المعاملات، ولا تعني مقارنة البيع بالربا أنها في غير البيع حيث يعني منه الصحيح العدل الذي ليس فيه ربا.

ومهما اختصت آية الربا بربا القرض أم والبيع بمناسبة مورد نزولها، فليست لتختص بمواردها السابقة، بل هي تحلّق بطليق لفظها على كل زيادة عن المستحق، مهما كان الأذان بحرب من الله ورسوله يختص بقسم منها.

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ. . .﴾:

وقد يعني من القيام كل قيام في الحياة، في الأولى والأخرى، واختصاص الروايات بالأخرى ليس ليختصه بها فإن طليق القيام يشملهما، لا سيما وأن الأخرى هي حصيلة الأولى، فقيام المتخبط في الأخرى ليس

إلّا ظهوراً لقيام متخبط في الأولى، وقد يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «يأتي آكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شقيه» ثم قرأ الآية[١].

وكما يروى تخبطه يوم الدنيا في وجه خاص عن الإمام الصادق عليه السلام: «آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبطه الشيطان»[٢].

وأما تخبطه في الأولى ككل ما دام يأكل الربا فمنه تخبُّطه في تمثيل البيع بالربا بل وجعلها أصلاً له: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ دونما عقلية إنسانية تميز بينهما، ولا عقلية شرعية تجعل بينهما بوناً بعيداً.

فإنه تخبُّط في حقل الاقتصاد، وتخبط في الضمير الإنساني، وتخبط في عِشرة الناس مرابين وسواهم، تخلفاً لا شعورياً عن مرسوم الحياة الإنسانية السليمة.

فقد نرى صورة ذلك التخبط واقعة بذاتها في حياة المرابين بأذان حرب من الله ورسوله، حيث تخبط البشرية المرابية كالممسوس في عقابيل النظام المتخبط الربوي، ثم تتورط في حروب متخبطة من جرّاءِ الشمولية الربوية من فرديتها إلى جماعيتها شعبية وحكومية.

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون أية حراك إلّا قيام الممسوس المضطرب القلِق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنيته ولا راحة ولا ينيلها مجتمعه، بل ينيلهم كلّ تخلّف وتأرجف لكفّات الموازين والقيم.

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٦٥ - أخرج الأصبهاني في ترغيبه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إياك والذنوب التي لا تغفر، الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة وأكل الربا.

وفي نور الثقلين ١: ٢٩١ علي بن إبراهيم حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥]».

(٢) نور الثقلين عن تفسير العياشي عن شهاب بن عبد ربه قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: . . .

فالمشابهة بينهم وبين الذي يتخبّطه الشيطان من المس هو في الرؤية المتخلفة للحقائق والعمل المتخلف من جرّائها، بفارق أن مسّ الشيطان قد يزيل العقل فلا تكليف، وآكل الربا قد تزول عقليته الإنسانية بما فعل، والامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، ثم وبالإمكان أن ينتبه عن جهالته إذا حاول الرجوع إلى ربه بتوبة نصوح: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ...﴾ - ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾.

وترى كيف يتخبط الإنسان بمسّ الشيطان فيسقط عقله؟ وذلك خلاف الرحمة الربانية!.

إنه ليس مسّ الشيطان جسمَ الإنسان أو عقله إلّا كمس إنسان ظلوم إنساناً فيضر بجسمه أو عقله حيث الدار دار الاختيار دون إجبار، اللّهم إلّا أحياناً قضية مصالح في ميزان الله كنار إبراهيم التي أصبحت برداً وسلاماً، ومديته الحديدة التي لم تقطع رقبة إسماعيله أما شابه.

فقد يمس الشَّيطان جسم إنسان حين لا يسطع أن يمس عقله كرسول من الله وكما قال الله عن أيوب: ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[1].

وقد يمس عقله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[2] وذلك القرن يخبطهم مهما كان دركات ومنها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾[3] وذلك لن يعمل عمل الشيطان فيزيده طغوة وضلالاً.

وأما أهل التقوى: فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

---

(١) سورة ص، الآية: ٤١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[1] إذاً فمس الشيطان لغير المتقين يعميهم عن إبصارهم.

وقيلة القائل في مسِّ الشيطان أنه مجاراة مع عامة الناس في ذلك التخيل الباطل، إنها نفسها من مسّ الشيطان وتخبّل باطل أن ينسب إلى القرآن - وهو قول فصل وما هو بالهزل - كتاب لا يأتيه الباطل - ينسب إليه الارتكان إلى الباطل دون إبطال وهو من أنحس التأويل وأضله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ. . .﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ كالتخبط في القيام ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ. . .﴾ فنفس هذه القيلة تخبط من القول، والعمل بها تخبط في العمل، كما ويخلف تخبطاً في القيام هنا وفي الأخرى.

وقد تعم ﴿قَالُوٓاْ﴾ مثلث القول، رأياً ولساناً وعملاً، فقد تجمع هذه الثلاث فثالوث الضلال، أم اثنان منها: رأياً ولساناً - رأياً وعملاً - عملاً ولساناً، أم واحدٌ منها، فهذه دركات سبع على اختلافها في ﴿قَالُوٓاْ﴾ فلا تُحصر في نطاق القول، فالنظر قول، والعمل هو نتيجة النظر.

وقد يلمح تمثيل البيع بالربا أنها هي الأصل عندهم، فهو إزراء بتحليل البيع المماثل للربا وتحريمها، تأصيلاً للربا تعسيلاً لها وتفريعاً للبيع تقريعاً به!.

وهل الجملة التالية هنا مستأنفة فهي من كلام الله رداً عليهم إبطالاً لقياسهم المنكوس المركوس؟.

أم هو من قولهم تنديداً باختلاف الحكمين في المتماثلين استفهاماً واستفحاماً!.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢.

إنها تتحمل كلتا الحالتين، فهي قول الله ردّاً عليهم، كما وهي قولهم نقلاً عن الله تنديداً بها، فلا يرد عدم إمكانية الاستدلال بها كضابطة في حلِّ البيع وحرمة الربا، حتى وإن اختصت بمقالهم، فإنهم ينقلونها عن الله، فلو أنهم كاذبون فيه فليرد عليهم، وعدم الردّ دليل الصدق، كما في كثير من قالة الكفار والشياطين، المذكورة في القرآن دون ردّ عليها، فإن السكوت هنا علامة القبول.

ولأن الله تعالى لا يحلل أو يحرم دونما مصلحة وحكمة، ابتلائية كانت أم واقعية، فقولهم إذاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هي قولة كافرة مجنونة، كافرة لأنها ردة على حكم الله، ومجنونة لأنها نكران لبديهة الفرق بين البيع والربا كما الفرق بين الحق اللائح والباطل الكالح، فالربا لا يقابلها أي سعي أو سلعة أم حق آخر تُستحق به، والبيع الصالح هو بنفسه سعي، بل وحتى الفاسد منه إلّا في فاسده بالربا.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ مرسلة تحلق على كل بيع ليست فيه رباً، بسائر شروط صحته المسرودة في محالها كالتراضي المستفاد من ﴿تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾(١) أما شابه، أم وإذا شملت ربا البيع فهي مقيدة بـ ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فبينهما - إذاً - عموم من وجه، ثم ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وإن كانت مرسلة حسب الظاهر البادئ، ولكنها نصّ في إطلاقها، فإن حرمة الربا هي من القضايا التي قياساتها معها كأكل المال بالباطل، فليست لتقبل تقييداً أو تخصصاً، حيث الربا مصداق بيّن من مصاديق الباطل ليس إلّا، وكما نراه في طيات أحاديث حرمة الربا مثل ما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام: «وعلة تحريم الربا لما نهى الله عزّ وجلّ عنه ولما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكْس على كل حال على المشتري وعلى البائع . . .»[١] وهذا كمثال يمثل لنا دور الربا وواقعها أنها زيادة غير مستحقّة على أية حال، فكيف بالإمكان أن تُستحق زيادة غير مستحقة؟!.

فقد تشمل الربا كافة المعاملات بيعاً وقرضاً وسواهما وحيثما نجد واقع الربا دونما استثناء، مهما كان القرض أم البيع من شؤون نزول آية الربا، حيث الاعتبار ليس بخصوص المورد بل هو بعموم المعنى، بل وحتى لو اختصت الآية نصاً بما يزعم لتعدينا عنها إلى كل مصاديق الربا لا لشيء إلّا لأنها ربا، حيث الموضوع في حرمة الربا هو العلة التامة لتحريمها لأنها من أكل المال بالباطل، كما السرقة والزنا واضرابهما، بل هي أنحس وأنكى، وكافة العلل والحكم المسرودة في الكتاب والسُّنة في تحريم الربا، هي راجعة كلها إلى كونها ربا فكيف بالإمكان أن يستثنى عنها؟.

فصيغة «الربا» هي كنص في إطلاقها تشمل كافة المعاملات الربوية في زواياها الثلاث:

متاعاً بمتاع - ثمناً بثمن - أو متاعاً بثمن، وكل هذه نقداً أو نسيئة، مهما كانت ربا القرض من أشدها محظوراً، كما الآية تنصب في ذيولها عليها.

فنحن مع نصّ الإطلاق على طول الخط ولسنا نقبل تخصيصاً بموارد دون أخرى كما يدعى، وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «الربا ثلاثة وسبعون باباً»[٢].

والصحيح في نفي الربا بين الوالد والولد والزوجة والعبد سناداً إلى

(١) الوسائل ١٢ : ٤٢٤ محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام .

(٢) سنن ابن ماجة تجارات ٥٨ .

«إنما الربا بينك وبين ما لا تملك»[(١)] غير صحيح أو مأول، إذ لا يملك الزوج زوجته فضلاً عن مالها، مهما ملكت الزوجة نفقتها من زوجها ولكنه لا يحلل لها الربا اللّهم إلّا تذرعاً بصيغة الربا للحصول على نفقتها الواجبة عليه، والنص يعاكس أمرها!.

كما ولا يملك ولده، ولا يعني «أنت ومالك لأبيك» إلّا حلَّ الأخذ منه محاويجه الضرورية، والوالد الذي له رأس مال لا حاجة له ضرورية تحوجه إلى أخذ نفقته الواجبة باسم الربا!.

---

(١) هو صحيح زرارة ومحمد بن مسلم الذي رواه الشيخ والكليني عن أبي جعفر عليه السلام: ليس بين الرجل وولده ربا ولا بينه وبين عبده ربا ولا بينه وبين أهله ربا إنما الربا فيما بينك وبين ما لا تملك، قلت: فالمشركون بيني وبينهم ربا؟ قال: نعم، قلت: فإنهم مماليك؟ فقال: إنك لست تملكهم إنما تملكهم مع غيرك أنت وغيرك فيهم سواه فالذي بينك وبينهم ليس من ذلك لأن عبدك ليس مثل عبدك وعبد غيرك (التهذيب ٢: ١٢٣ والكافي ٥: ١٤٧).

أقول: وقد ورد بخصوص المملوك صحيح علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام عن رجل أعطى عبده عشرة دراهم على أن يؤدي العبد كل شهر عشرة دراهم أيحل له ذلك؟ قال: نعم لا بأس.

أقول: وهذا من أنحس الربا فكيف ينسب السماح فيها إلى المعصوم عليه السلام، فإنها مائة بالمائة ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عِمرَان: ١٣٠]!.

وبخصوص المحارب مرسل الصدوق ومسند الكافي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس بيننا وبين أهل حربنا ربا نأخذ منهم ألف درهم بألف درهم ونأخذ منهم ولا نعطيهم» (التهذيب ٢: ١٢٣ والكافي ٥: ١٤٧ والفقيه رقم ١، أقول: «نأخذ منهم» هنا يخص ولي أمر المسلمين فإن هذه الربا لكل المسلمين.

وبخصوص الولد والعبد رواية عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس بين الرجل وولده ربا وليس بين السيد وعبده ربا» (الكافي ٥: ١٤٧).

وبخصوص الذمي مرسل الصدوق عن الصادق عليه السلام: «ليس بين المسلم وبين الذمي ربا ولا بين المرأة وبين زوجها ربا» (الفقيه باب الربا رقم (١٢)).

أقول: قد خالف فقهاء إخواننا في استثناء هذه الموارد الأربعة، وخالف من المرتضى من جهة عدم دلالة الأخبار وإن رجع بعد ذلك، والأردبيلي من جهة ضعفها، مما يبرهن على عدم كون الإستثناء ضرورة مجمعاً عليها.

والعبد يملك عمله المستحق الزائد عما يتوجب عليه لمولاه كعبد، ولو أنه لم يملكه فكيف يشتري نفسه جملة أو مبعضاً!.

ثم الكافر، فالذمي منه لا يُملك فضلاً عن ماله، والمحارب مملوك لكل المسلمين، فالمال المأخوذ منه باسم الربا وسواها هو لكل المسلمين وليس للآخذ فقط!.

فأحاديث التخصيص ليست لتخصِّص الآية على تهافتها بينها أنفسها، وقصور المعلل منها في علته «إنما الربا بينك وبين ما لا تملك»!.

ذلك! وأما اشتراط الكيل والوزن في الربا، فلا ربا فيما سواهما من معدوده وسواه، فالنصوص فيه متضاربة ترجع إلى نصّ الإطلاق، تصديقاً لما وافقها[1] ورداً أو تأويلاً لما خالفها[2] ومن التأويل أن المكيل والموزون

(١) يحكى عن المفيد وابن جنية وسلار إسراء الربا إلى المعدود كما في المكيل والموزون وقد تدل عليه معتبرة كصحيح محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام عن الثوبين الرديين بالثوب المرتفع والبعير بالبعيرين والدابة بالدابتين؟ فقال: كره ذلك علي فنحن نكرهه إلّا أن يختلف الصنفان، قال: وسألته عن الإبل والبقر والغنم أو إحداهن في هذا الباب؟ فقال: نعم نكرهه (التهذيب ٢: ١٥١) أقول والكراهة في ألفاظ الكتاب والسنة تعني الحرمة بل أغلظها وكما في حديث «وكان علي عليه السلام لا يكره الحلال» واختلاف الصنفين يعني ما يوجب اختلاف السعرين وإلّا فلا دور له. وفي صحيح ابن مسكان: سئل الصادق عليه السلام عن الرجل يقول: عاوضني بفرسي وفرسك وأزيدك؟ قال: فلا يصلح، ولكن يقول: أعطني فرسك بكذا وكذا وأعطيك فرسي بكذا وكذا (التهذيب ٢: ١٥١ والاستبصار ٣: ١٠١).
وكذلك الأحاديث المتظافرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مبايعة النقود كـ «الدينار بالدينار لا فضل بينهما والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما» كما تأتي في باب معاوضة النقود.

(٢) كصحيح عبيد بن زرارة عن الصادق عليه السلام لا يكون ربا إلّا فيما يكال أو يوزن (التهذيب ٢: ١٢٣) وموثق منصور بن حازم عنه عليه السلام عن البيضة بالبيضتين؟ قال: لا بأس، والفرس بالفرسين؟ قال: لا بأس، ثم قال: كل شيء يكال أو يوزن فلا يصلح مثلين بمثل إذا كان من جنس واحد فإذا كان لا يكال ولا يوزن فليس به بأس (التهذيب ٢: ١٥٠).
أقول: لأن البيضة قد تسوى بيضتين في وزنها أو سعرها، كذلك الفرس وما أشبه، فالمعيار عدم الزيادة في السعر، المعلوم غالباً بتساوي الوزن في متماثلين، فقد لا يجوز الربا في =

من جنس واحد منضبط بكيل أو وزن، فالزيادة - إذاً - ربا، وغيرهما غير منضبط فقد تحل الزيادة في عدد وسواه.

فلأن الربا هي من أبرز مصاديق الأكل بالباطل وهو من أظلم الظلم في حقل الاقتصاد وسواه، ليست ليستثني منها ولا مرة يتيمة فضلاً عن هذه الطائلة القائلة!.

فكما أن حرمة الظلم لا يستثنى عنها بسند الظلم، فكذلك الربا وهي من أظلم الظلم، وطالما البعض من المحرمات الأصلية قد تحل عند الضرورة، ليست الربا لتحل على أية حال إذ لا يتحقق في أخذها الاضطرار.

ولأن الربا كموضوع لحرمتها هي موضوع معلل بنفسه كما الباطل والظلم، فلا تقبل أي استثناء على أية حال.

فلا يشترط في حرمة الربا أي شرط بعد صدق الربا أكلاً بالباطل، إلّا ألّا تصدق الربا فلا ربا دون شرط.

وأما اشتراط المجانسة في العوضين ووحدة الأصل كما في معتبرة[١]

= معدود ويجوز في مكيل أو موزون لعدم التساوي سعراً هنا وتساويه هناك، كما في موثق سماعة عن بيع الحيوان اثنين بواحد؟ فقال: إذا سميت لا بأس (الوسائل ب ١٧ الرباح ٢) فإن التسمية للسن تقرر الموازنة بين واحد واثنين، فشاة لها سنتان قد تسوى شاتين لكلّ سنة.
ومثله صحيح زرارة عن الباقر عليه السلام «لا بأس بالثوبين يداً بيد ونسيئة إذا وصفتهما» (الفقيه باب الربا رقم ١٧).
أقول: فالتسمية والوصف هما يحددان السعر في المعدود، وأما المكيل والموزون من جنس واحد فنفس الكيل والوزن بوحدة الجنس تحدد السعرين.

(١) قد اعتبرت الحنطة والشعير واحداً في باب الربا في معتبرة إسناداً كصحيح أبي بصير الذي رواه المشايخ الثلاثة «الحنطة والشعير لا يزداد واحد منهما على الآخر» (الوسائل أبواب الرباب ٨).
وصحيح الحلبي أو حسنة المروي في (الكافي ٥: ١٨٧ والتهذيب ٢: ١٤٣)، لا يباع مختومان من شعير بمختوم من حنطة ولا يباع إلّا مثلاً بمثل والثمرة أيضاً كذلك، قال: وسئل عن الرجل يشتري الحنطة ولا يجد عند صاحبها إلّا شعيراً أيصلح له أن يأخذ اثنين بواحد؟=

فلا يعني إلّا اشتراط تساوي السعرين في مجانسين، فإذا تبين الكيل أو الوزن بهما، ثم العوضان متجانسان، فقد تبين تساوي السعرين، والمروي عن النبي ﷺ من طريق الفريقين: «إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم»[1] يقرر اختلاف السعر باختلاف الجنس، و«كيف شئتم» يقرر زيادة في السعر قضيةَ الاختلاف الذي يخلِّفه قدره، وليس يعني الفوضى الجزاف كما نهواه، بل المحور إنما هو اختلاف السعر.

فقد يتحد الجنسان والسعر مختلف، أو يختلفان والسعر متحد، والمعيار هو التفاضل في السعر كما في صحيح الحلبي عن الصادق عليه السلام: «ما كان من طعام مختلف أو شيءٍ من الأشياء يتفاضل فلا بأس ببيعه مثلين بمثل يداً بيد فأما نَظِرة فلا يصلح»[2].

وليس التفاضل - فقط - في كيل أو وزن أو عدٍّ أو مساحة، بل هو

= قال: لا إنما أصلهما واحد، وزاد في الكافي: وكان عليّ يعد الشعير بالحنطة، موثق سماعة سألته عن الحنطة والشعير؟ فقال: إذا كانا سواء فلا بأس (الكافي ٥ : ١٨٨) والبصري قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيجوز قفيز من الحنطة بقفيزين من شعير؟ قال: لا يجوز إلّا مثلاً بمثل ثم قال: «إن أصل الشعير من الحنطة».

ثم من أخبار اشتراط المجانسة صحيح ابن مسلم «إذا اختلف الشيئان فلا بأس به مثلين بمثل يداً بيد» موثقة سماعة: «المختلف مثلان بمثل يداً بيد لا بأس به» موثقة الآخر سألته عن الطعام والتمر والزبيب؟ قال: «لا يصلح منها اثنان بواحد إلا أن تصرفه إلى نوع آخر فإذا صرفته فلا بأس به اثنين بواحد» في صحيح الحلبي «ويكره قفيز لوز بقفيزين ولكن صاع حنطة بصاعين من تمر وبصاعين من زبيب» (الوسائل ١٢ باب ١٣ من أبواب الربا).

أقول: الاختلاف في باب الربا يعني الاختلاف في السعر المتمثل نوعياً في اختلاف الجنس.

(١) هو النبوي المجمع عليه ومثله صحيح ابن مسلم «إذا اختلف الشيئان فلا بأس به مثلين بمثل يداً بيد» (الوسائل ب ١٣ من أبواب الربا ج ١) وموثق سماعة عن الصادق عليه السلام «المختلف مثلان بمثل يداً بيد لا بأس به» أقول: والاختلاف الذي يصحح التزايد في السلعتين هو الاختلاف في السعرين دون سائر الإختلاف.

(٢) التهذيب ٢: ١٤٢ و١٥٠ رواه عنه عليه السلام محمد بن سنان.

ككلٍّ في السعر مهما تفاضلاً في سواه أم تماثلاً، وبذلك يفسر الاختلاف والاتحاد في حقل الربا دون الجنس كجنس، بل من حيث السعر، ولأن الاختلاف في السعر هو في الأكثر في اختلاف الجنس، فلذلك يمثل به أحياناً.

فالرطب والتمر جنس واحد ولكنهما متافضلان، فلا تجوز المعاوضة بينهما على سواء كما في حديث الرسول ﷺ والصادق من آل الرسول ﷺ [١].

هذا! فكذلك الأمر في كل رطب ويابس من جنس واحد كالعنب والزبيب[٢] وكل فاكهة في حالتيها، فضلاً عن فروع كل جنس بينها أنفسها وبينها وبين نفسه إذا كان هنا أو هناك تفاضل.

والرواية القائلة أن «أصل الشعير من الحنطة» أو «إنما أصلها واحد» غائلة بين روايات الربا، فهي في نفسها لا يمكن التماشي معها، حيث العلة فيها عليلة، فلئن كان «أصل الشعير من الحنطة» له أصل كما يروى[٣] فلتكن

---

(١) الدر المنثور ١ : ٣٦٨ - أخرج مالك والشافعي وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ سئل عن اشتراء الرطب بالتمر؟ فقال: أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا: نعم، فنهى عن ذلك.
وفي صحيح الحلبي عن الصادق عليه السلام «ولا يصلح التمر اليابس بالرطب من أجل أن التمر يابس والرطب رطب فإذا يبس نقص» «التهذيب ٢ : ١٤٣ والاستبصار ٣ : ٩٣».

(٢) فالرواية القائلة بتساويهما في البيع مرفوضة كموثقة سماعة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن العنب بالزبيب؟ قال: لا يصلح إلا مثلاً بمثل، قلت: الرطب والتمر؟ قال: مثلاً بمثل» (التهذيب ٢ : ١٤٤) وخبر أبي الربيع عن أبي الله عليه السلام ما ترى في التمر والبسر الأحمر مثلاً بمثل؟ قال: لا بأس، قال: فالبختج والعنب والعصير مثلاً بمثل؟ قال: لا بأس (التهذيب ٢ : ١٤٤ والكافي ٥ : ١٩٠).

(٣) كما رواه الصدوق بإسناده أن علي بن أبي طالب عليه السلام سئل مما خلق الله الشعير؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى أمر آدم أن ازرع مما اخترت لنفسك وجاءه جبرئيل عليه السلام بقبضة من الحنطة =

الضابطة إرجاع كل فرع إلى أبعد أصوله كبُعد الحنطة من الشعير، فكل ثمرة مع أصل شجرتها كالكمثري مع خشبها، وكل لبن مع أصل صاحبه، وكما كل فروع الألبان مع أصولها، أم وكل جوهرة ثمينة مع أصلها التراب بمواده، كل هذه وتلك متجانسة متماثلة!.

إذاً - فمن يبدل منّاً من سمن بمن وزيادة من لبنه، أو يبدل منّاً من الكمثري بمن وزيادة من حطبها أمّا شابه، فقد أكل ربا وهو خاسرٌ عشرات الأضعاف؟.

وأي ذنب لغير المكيل والموزون حتى تحل فيه الربا، وأي ذنب لغير وحدة الأصل حتى تحل فيه الربا، ولا أصل لوحدة الأصل إلّا وحدة السعر، حيث الأصل في الأمتعة هو السعر دون كميته أو نوعيته أو كيفيته، والمعيار في السوق هو عيار السعر دون سائر الجهات.

فحين يراعي الرسول ﷺ الرطوبة واليبوسة في أصل واحد من الرطب والتمر، أفلا يراعي الرطوبة في اللبن المجّد وغيره أو السمن أو ما أشبه؟!.

وليت شعري كيف يُسوى الشعير الوليد الحرام بالحنَطة الحلال، وإن لم يكن منها لم يكونا من أهل واحد تحرم الربا بينها.

فالإسلام ليس ليحارب الضرورات العقلية والفطرية، فما هو ذنب المكيل والموزون في جنس واحد أن يكون فيه الربا دون غيرهما والجنس مختلف.

وإذا كان المناط في وحدة الجنس وحدة الأصل، فهل هو يشمل ما بعد الأصول المتعوّدة إذ شمل خرق العادة، فالأصل في وحدة الأصل هو أصل السعر دون سواه.

= فقبض آدم عليه السلام على قبضته وقبضت حواء على أخرى فقال آدم لحواء لا تزرعي أنت فلم تقبل أمر آدم فكلما زرع آدم جاءه حنطة وكلما زرعت حواء جاء شعيراً!.

وإذا كانت وحدة الحنطة والشعير لأن أصله منها فلا يخص ذلك باب الربا، بل ويشمل غيرها مثل زكاة الفطرة وسائر الزكاة والدين والبيع وسائر مواردهما، فيجب أن يعتبرا واحداً في كل المعاملات والنذور وسواها.

وليس محظور الربا إلّا نفسَها لا خصوص بعض الأجناس في بعض الحالات.

ولا أصل لأصل مماثلة كل فرع مع أصله وسائر فروعه في باب الربا، على اختلاف الأسعار فيما بينهما، إلّا قصة أصالة الحنطة للشعير، ومماثلة البر والدقيق والتمر والرطب، والثانية معللة بوحدة السعر على اختلاف الحجم حيث الدقيق يكلف سعراً يجر ناقص وزنه عن البر، والآخران هما بين متعارضة النصوص والمرجع هو القرآن.

فآية التجارة عن تراض تحرِّم الأكل بالباطل دونما استثناء: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[١] ومن أبطل الباطل الربا فكيف تحلّ على بطلانها.

كما وأن الربا بنفسها دليل حرمتها فهي من الموضوعات التي قياساتها معها لا يستثنى عن حرمتها على أية حال، كما السرقة والزنا والإشراك بالله أمّا شابه.

وطالما المحرمات الذاتية قد تحل بعضها حالة الاضطرار أو دوران الأمر بين المحظورين، نجد الربا لا يوجد لها من شيء من هذه الحالات فكيف يضطر إلى أكل الربا من عنده رأس مالها؟.

هذا! وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق ولا البر بالبر ولا الشعير بالشعير ولا التمر بالتمر ولا الملح

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

بالملح إلا سواء بسواء عيناً بعين يداً بيد، ولكن بيعوا الذهب بالورق والورق بالذهب والبر بالشعير والشعير بالبر والتمر بالملح والملح بالتمر يداً بيد كيف شئتم، من زاد أو ازداد فقد أربى»(١).

فأصل الربا التي تفسد المال والمال هي الزيادة الباطلة، ودون مقابل من سعي واستحقاق، فهل إن الآخذ منّاً وزيادة من حليب بديلاً عن مَنٍّ من سمنه، هو الذي أخذ زيادة باطلة أم زميلُه؟.

فإنما الأصل في شريطة المماثلة جنساً أو كيلاً ووزناً، هو الحصول على المساواة بين العوضين في سعرهما، وذلك ميسور في هذه الحدود، ومعسور في غيرها كالمتخالفين من غير المكيل والموزون، فلا بأس بالزيادة كحق للمستزيد في غيرهما، اللّهم إلّا إذا كان تبادل التجاهل والغرر كما في صحيح ابن مسكان: سئل الصادق عليه السلام عن الرجل يقول:

عاوضني بفرسي وفرسك وأزيدك؟ قال: فلا يصلح ولكن يقول أعطني فرسك بكذا وكذا وأعطيك فرسي بكذا وكذا»(٢).

ونحن نلمس من طيات روايات الربا، المعللة منها، أن الأصل في محظورها هو نفسها، أن تزيد أو تستزيد بباطل ودونما مقابل تستحقه.

فقد ينهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع صاعين من تمر رديء بصاع من الجيد، لا لأنهما مكيلان موزونان ومثلان في الجنس، بل لجهالة السعر

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٦٨ - أخرج الشافعي ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:...

وفيه عنه صلى الله عليه وآله وسلم الذهب بالورق ربا إلّا هاء وهاء، والبر بالبر رباً إلّا هاء وهاء والشعير بالشعير رباً إلّا هاء وهاء والتمر بالتمر رباً إلّا هاء وهاء.

(٢) التهذيب ٢: ١٥١ والاستبصار ٣: ١٠١.

بينهما، فيأمر أن يباع كلّ بسعره العادل ويشترى الآخر بسعره[١] لا أن يبادل بينهما وزناً بوزن فإنه قطعاً ربا.

وحين يمنع عن بيع المتماثلين سعراً، نسيئة، ليس المنع إلّا لأن للزمن ثمن، فتنقص السلعة المسلفة عن الحاضرة فهو من الربا.

وحين يسوي الإمام بين البر والسويق مع اختلافهما حجماً يعللها بمكافئة المؤونة[٢] وكذلك الأمر بين البر والدقيق، فإن الأمر في الربا دقيق في كل جليل ودقيق ولكي لا يربو أحد العوضين السلعتين عن الآخر من حيث السعر، فحين يتساءل الإمام عليه السلام عن بيع البر بالسويق وهو قليل متضائل، أفلا يتساءل عن بيع السمن باللبن متساويين، والسمن عشرات أضعاف اللبن؟ ما هكذا الظن بمن يعقل عن شرعة العدل ساذجاً من المعرفة فضلاً عن فقهاء الأمة!.

وترى كيف تكون الزيادة في معاوضة المتماثلين ربا وللبائع حق زيادة بسعيه؟.

إن الزيادة الممنوعة في هذه الروايات ليست إلّا في مبادلة سلعتين، فكل من المتعاملين بائع من جهة ومشترٍ من أخرى، فيتكافأ حق التجارة بينهما فالزيادة إذاً لا مقابل لها من سعي أم حق سواه.

وكذلك الأمر في معاوضة النقود - كبيع الصرف والأثمان - المتمثلة في أحاديثنا بالذهب والفضة، حيث تمنع منعاً باتاً عن أية زيادة واقعية أم حكمية.

---

(١) الدر المنثور ١ : ٣٦٥ - أخرج مسلم والبيهقي عن أبي سعيد قال: أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتمر فقال: «ما هذا من تمرنا! فقال الرجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعنا تمرنا صاعين بصاع من هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الربا، ردوه ثم بيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا».

(٢) كما في صحيح محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام ما تقول في البر بالسويق؟ فقال: مثلاً بمثل لا بأس به قلت: إنه يكون له ربع فيه فضل، فقال: أليس له مؤونة؟ قلت: بلى قال: هذا بهذا.

«لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً» وذلك الباطل حاصل في الصرف بصورة مطلقة ولذلك يبشر الرسول ﷺ : «الصيارفة بالنار»[١].

ويقول ﷺ : «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق... إلا سواء بسواء عيناً بعين يداً بيد ولكن بيعوا الذهب بالورق والورق بالذهب...»[٢] و«الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم وزن بوزن لا فضل بينهما ولا يباع عاجل بآجل»[٣] ولأن الربا واقعية مفسدة في المجتمع، فلا تحللها الحيل المسماة بالشرعية، وكيف يحتال الشرعة الإلهية نفسها ولا سيما في مفاسد واقعية لا حِوَل عنها بالحِيَل.

وقد يروى عن رسول الله ﷺ تنديداً بهؤلاء المحتالين الشرعيين! «إن القوم سيفتنون بأموالهم... ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء

(١) الدر المنثور ١ : ٣٦٥.
(٢) مضى عن الدر المنثور مفصلاً.
(٣) الدر المنثور ١ : ٣٦٨ - أخرج مسلم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ...
وفيه أخرج البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي عن أبي المنهال قال سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فقالا كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف فقال: ما كان منه يداً بيد فلا بأس وما كان نسيئة فلا.
وفيه ١ : ٣٦٧ - أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: صرفت من طلحة بن عبيد الله ورقاً بذهب فقال: أنظرني حتى يأتينا خازننا من الغابة فسمعها عمر بن الخطاب فقال: لا والله لا تفارقه حتى تستوفي منه صرفك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الذهب بالورق رباً إلا هاء هاء...».
وفيه أخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا غائباً بناجز».

الساهية فيستحلوا الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع»[١]
وقال ﷺ : «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره»[٢].

وتلك الحيل هي من شيمة اليهود وقد تسربت فترسبت بين متشرعين! من الأمة الإسلامية، فقد استحلوا صيد الحيتان يوم سبتهم بحيلة شرعية! كما قال الله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[٣].

فحرمة الربا هي كحرمة صيد السبت هي مصلحة للحفاظ على صالح الاقتصاد وسواه، وليست أمراً خيالياً أو اعتبارياً يتحول بتحول النية أو الحيلة الغيلة، فالربا - هي - ربا على أية حال سواء أكلتها من قدام أو من الوراء، وليست تسمية الربا بالبيع أو المصالحة أمّاهية من تسميات محتالة إلّا كتسمية السفاح بالنكاح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

إذاً فالصحيح في السماح لذلك الاحتيال غير صحيح كما فيه «. . .

---

(١) نهج البلاغة عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال له يا علي: إن القوم. . .
(٢) الدر المنثور ١: ٣٦٧ - أخرج أبو داود وابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال قال رسول ﷺ: . . .
(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٣-١٦٦.

فقلت له ﴿عليه السلام﴾: أشتري ألف درهم وديناراً بألفي درهم؟ فقال: لا بأس بذلك، إن أبي كان أجرأ على أهل المدينة مني وكان يقول هذا فيقولون: إنما هذا الفرار، لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم ولو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار، وكان يقول: نعم الشيء الفرار من الحرام إلى الحلال»[1].

فإن كان ذلك بيعاً فهو إذاً باطل للسفاهة المفرطة فيه، وأي عاقل يشتري ديناراً بألف درهم وهي مائة أضعافه؟ وقد سفَّه الإمام الرضا ﴿عليه السلام﴾ مثلَه بأدناه في قوله: «لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكس على كل حال على المشتري وعلى البائع».

كذلك وبأحرى سفهاً وحمقاً إذا قابل ديناراً بألف درهم، فعشرة دراهم

---

(١) التهذيب ٢: ١٤٦ صحيح البجلي قال سألته عن الصرف فقلت إن الرفقة ربما خرجت عجلاً فلم أقدر على الدمشقية والبصرية وإنما - يجوز بساير - بسابور - الدمشقية والبصرية؟ فقال: وما الرفقة؟ فقلت: القوم يترافقون ويجتمعون للخروج فإذا عجلّوا فربما لم نقدر على الدمشقية والبصرية فبعثنا بالغلة فصرفوا ألفاً وخمسمائة درهم منها بألف من الدمشقية والبصرية، فقال: لا خير في هذا فلا يجعلون معها ذهباً لمكان زيادتها؟ فقلت أشتري. . .
وفي صحيح آخر عنه ﴿عليه السلام﴾ قال: «كان محمد بن المنكدر يقول لأبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ يا أبا جعفر رحمك الله والله إنا لنعلم إنك لو أخذت ديناراً والصرف ثمانية عشر فدرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته وما هذا الفرار؟ وكان أبي يقول: صدقت والله ولكنه فرار من الباطل إلى الحق» (التهذيب ٢: ١٤٦).
وفي ثالث عنه ﴿عليه السلام﴾ أيضاً: «لا بأس بألف درهم ودرهم بألف درهم ودينارين إذا دخل فيها ديناران أو أقل أو أكثر فلا بأس» (التهذيب ٢: ١٤٥).
أقول: وليت شعري كيف يكون أكل ألف درهم بدينار حقاً في وجه وباطلاً في وجه آخر لا فحسب ألف بل ودرهمان بدرهم، حتى يصح الفرار من الباطل إلى الحق وكلاهما أكل للمال بالباطل، ثم وليس هذا بيعاً في أي من الأعراف البشرية، إن هذا إلّا اختلاق كاذب ساخر على الصادقين ﴿عليهما السلام﴾ ما يعارض القرآن والسُّنة وكل الأعراف.

ثمنها دينار ويبقى تسعمائة وتسعون درهماً باطلاً، أو يشك عاقل أنه باطل؟ فالضِعف باطل ومائة أضعاف ليس بباطل؟!.

هذا! وأوضح منه فساداً بيع ألف درهم وديناراً نقداً بألفي درهم سلفاً، حيث السلف يُبطل معاوضة النقود وإن كانت سوية فضلاً عن الزيادة، فهو - إذاً - قرض باسم البيع.

وأخيراً لو صحت تلك الحيل في تحليل الربا لأمكن تحليلها بأسرها حيث الحِيَل لا حدَّ لها بألوانها، فأصبح تحريم الربا هباء منثوراً بما سمحه محرِّمها، وإن هي إلّا سفاهة كبرى فكيف تنسب إلى صاحب الشريعة العظمى، ثم ولا يبقى - إذاً - مجال لصنائع المعروف ما دامت الحيل تحتلّها دون إبقاء!.

وليست النقود التي يحرم التعامل فيها نسيئة هي فقط النقدان المسكوكان: الذهب والفضة، حيث النص «لا يبتاع رجل فضة بذهب إلا يداً بيد ولا يبتاع ذهباً بفضة إلا يداً بيد»[١].

و«إذا اشتريت ذهباً بفضة أو فضة بذهب فلا تفارقه حتى تأخذ منه وإن نزا حائطاً فانتز معه»[٢] ليس فيها قيد المسكوك، وما فيه «الدراهم والدنانير»[٣] يعني كل النقود وهي كانت وقتئذ الدراهم والدنانير.

وحين لا تصح النسيئة بنقد النقود وإن كانت لدقائق خوفة من الربا،

---

(١) هو قول أبي جعفر عليه السلام في خبر محمد بن قيس قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يبتاع ... (الكافي ٥: ٢٥١).

(٢) هو صحيح منصور (التهذيب ٢: ١٤٥ والاستبصار ٣: ٩٣).

(٣) هو خبر البجلي قال: سألته عن الرجل يشتري من الرجل الدراهم بالدنانير فيزنها وينقدها ويحسب ثمنها كم هو ديناراً ثم يقول: أرسل غلامك معي حتى أعطيه الدنانير؟ فقال: ما أحب أن يفارقه حتى يأخذ الدنانير، فقلت: إنما هم في دار واحدة وأمكنتهم قريبة بعضها من بعض وهذا يشق عليهم؟ فقال: إذا فرغ من وزنها وانتقادها فليأمر الغلام الذي يرسله أن يكون هو الذي يبايعه ويدفع إليه الورق ويقبض منه الدنانير حيث يدفع إليه الورق (الكافي ٥: ٢٥٢).

فكيف تصح لأشهر أو سنين وبزيادات فادحة بحيلة البيع - الشرعية! و«الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم وزن بوزن لا فضل بينهما ولا يباع عاجل بآجل»[١].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الصرف فقال: «ما كان منه يداً بيد فلا بأس وما كان نسيئة فلا»[٢].

أترى الصرف هنا منصرف إلى نقدي الذهب والفضة فقط، وكانت هناك نقود أخرى، ولا يختص الصرف بزمن الوحي إلّا اختصاصاً لشرعة الله بنفس الزمن! وما هو الفرق بين نقد الذهب والفضة وسائر النقد في الخسارة الاقتصادية في الربا، اللّهم إلّا فرقاً فيزيائياً ليس هو فارقاً في باب المعاوضات.

هذا! ثم وثالث ثلاثة من ثالوث الربا هو كل زيادة غير مستحَقة في كل المعاملات التي يكون أحد العوضين فيها من النقود، بيعاً وإجارة وصلحاً أما شابه، فهي الوحيدة التي تجوز فيها الزيادة للبائع قدر سعيه والقيمة السوقية الصادقة غير الكاذبة المختلقة، ثم الزائد عن المستحق باطل هو الربا المحرمة فيها، كما إذا زاد المثمن على الثمن سعراً فربا مضاعفة إذ بطل فيها حق السعي للبائع إضافة إلى خسارة في أصل المثمن.

وهكذا الأمر في الأجرة الزائدة في عمل أوالنا قصة عنه، فالمستأجر أو المؤجر مرابٍ لأخذ الزيادة أجرة أو عملاً.

فأنحس الربا هو ربا القرض، ثم ربا المبايعة بين النقود نقداً، ثم الربا

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٦٨ - أخرج مسلم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ...

(٢) المصدر أخرج البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي عن أبي المنهال قال سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف...

في سلعتين بزيادة السعر في إحداهما، ومن ثم الربا في سائر المعاملات كالأخيرة، وقد حددت في باب التجارة المنافع بالعشر، وهو القدر المعتدل بين الأقدار، والأصل أن تقدر الفائدة بقدر السعي أم والقيمة السوقية الصادقة، أم قدر الحاجة ليومه[١] إن لم يكن فوق سعيه وسعره.

وكل ما في الأمر في هذه الأقسام الأربعة هو الرضا من معطى الزيادة دون شرط، ولا سيما في القرض، بل ومن المندوب فيه أن تزيد حين ترجعه حسب المكنة والاستطاعة، فالقرض تحية مالية ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٢] وأحسن من المال الذي استدنته أن تزيد عليه ترغيباً لصنائع المعروف.

فـ «قد جاء الربا من قبل الشروط إنما يفسده الشروط»[٣] و«لا بأس إذا لم يكن شرطاً»[٤].

---

(١) الوسائل ١٢ : ٢٩٣ في المعتبرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ربح المؤمن على المؤمن رباً إلّا أن يشتري بأكثر من مائة درهم فاربح عليه قوت يومك أو يشتريه للتجارة فاربحوا عليهم وارفقوا.
وفيه ٣١١ دعا أبو عبد الله عليه السلام مولى يقال له مصارف فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالي قد كثروا، قال: فتجهز بمتاع وخرج مع التجار إلى مصر فلما دنوا من مصر استقبلهم قافلة خارجة من مصر فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة وكان متاع العامة فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء فتحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً فلما قبضوا أموالهم انصرفوا إلى المدينة فدخل مصارف على أبي عبد الله عليه السلام ومعه كيسان كلّ واحد ألف دينار فقال: جعلت فداك هذا رأس المال وهذا الآخر ربح، فقال: إن هذا الربح كثير ولكن ما صنعتم في المتاع؟ فحدثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا، فقال: سبحان الله تحلفون على قوم مسلمين أن لا تبيعوهم إلّا بربح الدينار ديناراً ثم أخذ أحد الكيسين وقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في هذا الربح، ثم قال: يا مصارف! مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٦.
(٣) خبر خالد بن الحجاج سألته عن رجل كانت لي عليه مائة درهم عدداً فقضاها مائة وزناً؟ قال: لا بأس ما لم يشترط، قال وجاء الربا . . . (التهذيب ٢ : ١٤٨).
(٤) موثق إسحاق بن عمار قلت لأبي إبراهيم عليه السلام الرجل يكون له عند الرجل المال قرضاً =

فـ «إذا اقترضت الدراهم ثم جاءك بخير منها فلا بأس إذا لم يكن بينكما شرط»[١].

فإنما «كل قرض يجر المنفعة فهو حرام»[٢] مهما كانت منفعة عينية وسواها، مالية وسواها، وأما ما ينجر إلى منفعة دون جرٍّ بشرط فلا بأس به.

وترى آكل الربا ولا سيما في القرض الذي تمحوره الآية هل يعفى عنه بتوبة وله ما أخذ أم ماذا؟.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾:

﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ هنا يعم هؤلاء المسوِّين بين البيع والربا الآكلين لها، وسواهم ممن يأكلها غير مستحلٍّ لها، حيث النص مقتصر بما اقتصر دون «منهم» ليخصهم، فهو - إذاً - إطلاق مقصود يعم كل آكلي الربا مستحلّين وسواهم وكذلك كل العصاة والكفار، وحتى الذين كانوا لا يعلمون حرمتها فإنها محرمة عقلياً وعاطفياً، مهما كانت الموعظة بالنسبة للقاصر تبييناً لحكم الله.

= فيطول مكثه عند الرجل لا يدخل على صاحبه منه منفعة فينيله الرجل كراهة أن يأخذ ماله حيث لا يصيب منه منفعة يحلّ ذلك له؟ قال: لا بأس إذا لم يكونا شرطاً. (الفقيه باب الربا ٣٧ والتهذيب ٢: ١٦٤).

(١) صحيح الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام «إذا اقترضت الدراهم ثم جاءك بخير منها فلا بأس إذا لم يكن بينكما شرط» (الكافي ٥: ٢٥٤ والتهذيب ٢: ٦٣).
وحسنه عنه عليه السلام عن الرجل يستقرض الدراهم البيض عدداً ثم يعطي سوداً وزناً وقد علم أنها أثقل مما أخذ وتطيب نفسه أن يجعل له فضلها؟ فقال: «لا بأس إذا لم يكن فيه شرط ولو وهبها له كلها كان أصلح» (التهذيب ٢: ٦٣).

(٢) الجامع الصغير ٢: ٩٤ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد تشمل ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ﴾ الراد على الله في حرمتها، والمقترف لها عامداً، أو متجاهلاً أم جاهلاً، إذ ليس هنا «منهم» حتى تختص بالأولين، فسواء أكان هؤلاء كفاراً أم مسلمين، تشملهم النصّ دون إبقاء.

وموقف الآية بالنسبة للكفار موقف آية الغفر:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[١].

وفي نطاقها الحديث «من أدرك الإسلام وتاب عما كان في الجاهلية وضع الله عنه ما سلف»[٢] و«الإسلام يجب ما قبله».

فتلك ضابطة عامة كما الثانية، لا تختص بحقل المرابين، فإنما تُذكر هنا لتشملهم مع من سواهم من المتَّعظين بموعظة الرب، ضابطة ثابتة في كافة الحقول المتشابهة.

ثم ﴿مَوۡعِظَةٌ﴾ تراها تخص تبيُّن حكم الله للمتخلف؟ وليست معرفة حكم الله بنفسها موعظة يُنتهى بها، فقد ينتهي العارف به عن جهله، وهو مصر فيما كان قبلها، وأخرى ينتهي عن جهالته بعد علمه، ولا يعني الانتهاء هنا - وبخاصة في الناكر لحرمتها - انتهاءه عن نكرانه بعد علمه، بل هو انتهاء عن كل ما كان من نكران واقتراف لذنبه، وذلك الانتهاء لا واقع له لزاماً إلّا بموعظة، لا - فقط - بعلمه بعد جهله، فكثير هؤلاء الذين يعلمون الحرام ويقترفونه متجاهلين، جهالة لا جهلاً بحكمه، «فالموعظة التوبة»[٣] حيث تستتبعها.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٢) الوسائل ٢: ٢٧٩ عن أبي جعفر عليه السلام.

(٣) في صحيحة محمد بن مسلم في الآية «والموعظة التوبة» (التهذيب ٢: ١٢٢).

إذاً فكما عمت ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ كل آكلي الربا كافرين ومؤمنين - فيمن عمتهم من العصاة - كذلك ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾ تعمهم كلّهم، فقد تكفي معرفة حكم الله موعظة فهي - إذاً - معرفته، أم لا تكفي إلّا بعظة أخرى تُمَحْوِر حكم الله، كدعوة بموعظة حسب المرسوم العام: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1] حيث الدعوة مراحل ومنها - كما هنا - الموعظة بعد المعرفة.

إذاً ف ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾ طليقة في كل ما يُنهي المعصية، بعد جهل أو جهالة، وهنا نفس الانتهاء بموعظة - في كل تخلف عن شرعة الله، عقيدياً أو عملياً - إنه توبة صالحة إذا كانت دون عودة، وقضيتها ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ من كفر أو فسق، تعدياً في حقوق الله أم في حقوق الناس، أم فيهما.

والقدر المعلوم من ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ غفران السالف من كفر أو ذنب، وأما الغفران عن حقوق الناس، فهو مهما كان رحمةً على المتعظ وترغيباً له على الاتعاظ، ولكنه نقمة على الناس المظلومين في حقوقهم؟ فكيف يعفى عن حقوق الناس وهو ظلم بحقهم مهما كان فضلاً للظالمين التائبين!.

هنا ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ قد تلمح أنه لم ينته بعدُ أمره ككلٍّ لا في نفسه ولا فيما سلف، فالمنتهى منه دون ريب هو استحقاق العقوبة بما سلف إن لم يعد وغير المنتهي منه ما يرجع إلى الناس، والله هو المقرر له بحكمه وكما حكم.

فقد يتضح بأن ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ - فقط - كما لكم ما سلف ولم يبق، وأما ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كيفما كان البقاء فلا.

ولو أن ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ كانت طليقة بالنسبة لكل ما سلف، شاملة لحقوق

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

الناس إلى جنب حقوق الله، إذاً فأمره منتهٍ، فماذا تعني بعدُ ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وقد أمر الله هنا بشأنه أن ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؟

ثم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فيما أخطأ من مثل كبيرة الربا فما فوقها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إن ماتوا على عودهم، مهما اختلف خلود عن خلود، فخلود الناكر لحكم الله هو بطبيعة الحال أكثر من خلود المقترف لمعصية كبيرة وهو غير ناكر، وليس الخلود لحدّ خاص من الزمن، حتى يسوّى فيه بين كل العائدين إلى ما سلف من كفر أو كبيرة، وإنما هو مدة طويلة من الزمن، وهي تختلف حسب اختلاف تلكم العودات.

وقد تعني ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ كل عائد إلى كبيرة عملية وعقيدية كما هنا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ فكل قائل أن الحلال مثل الحرام ثم يقترفه كحلال، إنه إذا تاب وانتهى فله ما سلف ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أو يقال هنا المورد الخاص لمن جاءه موعظة هم القائلون ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ وهو كفر، فيشمل المؤمن المرابي المنتهي بأحرى، وخلود النار يختص بالكافرين الناكرين لحرمة الربا.

ولأن ﴿فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ تحلّق على كل زمن التكليف حتى آخر نفس، إذاً «فمن عاد» يعني عوداً دون رجوع، أم عوداً آخر عمره راجعاً إلى ربه على حاله، فهو الإصرار على ما سلف من كفر أو عصيان كبير، ومقترف الكبيرة غير النادم عنها، المصر فيها، قد لا يكون مسلماً، أم هو مسلم لأدنى مراحله ويستحق خلود النار، كما ليس له ما سلف حين عاد ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

وترى إن تاب آكل الربا بما جاءه من موعظة، فهل له ما سلف من نقد أخذه وما أسلف؟.

﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ إضافة إلى عدم شمولها كأصلٍ للربا، إنما تخص ما سلف إن شملها، وأما التي لم يأخذها بعد فليست له قطعاً لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ تجمع الحاضر والمستقبل والسالف في عدم الحلّ، وإنما لكم ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ثم المأخوذ من الربا المصروف في حاجياته أم سواها، داخل في ﴿مَا سَلَفَ﴾ إن لم يبق له عين ولا أثر، فكما أن من ﴿مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ حيث أسلفه محكوم بـ«ذروا» نصاً، كذلك ما أخذه منه فيما مضى وهو باق بنفسه أو بديله، إذ لكم ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ فقط وذلكم من أمر الله الذي قال ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

فـ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعم التكوين والتشريع، فالتكوين هو إرضاء صاحب الحق في القدر الذي سلف وفي رأس المال، والتشريع هو العفو عنهما دون ﴿مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ فمن أمره ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ و﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ شريطة التوبة وعدم العودة، فليس للعائد إلى الربا لا رأس ماله ولا ما سلف.

فـ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني أمر ما سلف وأمر المنتهي عن الربا، إذ لم يختم بعد أمرهما حتى يُرى هل يعود أم يستمر على انتهائه، ولكلّ من الحالين أمر من الله.

فلا تجوز مصادرة كل أموال المرابين وسائر أكلة الباطل فوضى جزاف، بل تجب رعاية أحوالهم وأموالهم عبر الحق، فإن كانوا تائبين فكما قال الله، وإن كانوا مصرين فلهم ما زاد عما أكلوا من الباطل، فلا تحل أموالهم الخاصة بسبب أنهم أكلوا أموالاً أخرى بباطل!.

إذاً ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ مفسّرة بغير مال الربا مأخوذةً أم غيرها إلّا ما أفنى، وإنما عند الموعظة والتوبة يعفى عنه ما كفر أو أذنب، ثم لا يصادَر رأس ماله وكان مستحقاً لمصادرته قدر ما أكل من الربا فيما مضى، فلذلك ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ تختص بمورد العفو: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾.

إذاً فإن بقي بعدَ ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ شيءٌ من مأخوذ الربا فليُردَّ، وإن لم يبق ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ثم ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيما أتلف من أموال الربا، وليس عليه أن يرده من رأس ماله أو يتكلف في تحصيله، وإلى هذه الحالة تتأول الروايات القائلة أن له ما أخذ(١).

---

(١) منها صحيحة محمد بن مسلم دخل على أبي جعفر رجل من أهل الخراسان قد عمل بالربا حتى كثر ماله ثم أنه سأل الفقهاء فقالوا: ليس يقبل منك شيء إلّا أن ترده إلى أصحابه فجاء إلى أبي جعفر عليه السلام فقص عليه قصته فقال أبو جعفر عليه السلام مخرجك من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] «والموعظة التوبة» (التهذيب ٢: ١٢٢).

هنا يرده الإمام إلى الآية دون بيان لها، فالحكم هو المستفاد منها إضافة ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ...﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨] و﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وذلك ردّ على «إلا أن ترده إلى أصحابه» إذ يعني أن كل ما أخذته من ربا يجب ردّه إلى أصحابه مهما أتلفتها وصرفتها، وذلك يحلق على أضعاف رأس ماله، والظاهر من حال الرجل وقاله إنه تائب، وحكم التائب مبين في هذه الآيات وليس فقط ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ بل ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كما أمر في بقية الآيات.

ومنها ما رواه الكليني في الصحيح عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل يأكل الربا وهو يرى أنه حلال! قال: «لا يضره حتى يصيبه متعمداً فإن أصابه متعمداً فهو بالمنزل الذي قال الله عزّ وجلّ» (الكافي ١: ٣٦٩ باب الربا ح ٣ والتهذيب ٧: ١٥ رقم ٦٦) عن الحلبي عنه عليه السلام.

أقول: لا يضره تعني - لأقل ما تعنيه - العقوبة، ومن ثم وجوب ردّ ما أخذه، وهما ضرران «فإن أصابه متعمداً فهو بالمنزل الذي قال الله» قد تعني: ﴿لَا يَقُومُونَ...﴾ و﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فغير التائب ليس له أي عفو أو تسهيل، فإذا تاب بعد جهله فله ما سلف كما لسائر التائبين وله زيادة أنه ما كان مذنباً حتى تشمله ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ وإنما له ما أتلف مما سلف ثم ما بقي يرده حيث الجهل لا يملكه الربا إلى الحاضرة، وإنما عدم العصيان من ناحية الجهل وعدم وجوب رد ما أتلف من ناحية التوبة.

ومنها ما رواه في الكافي عن أبي المعزا قال قال أبو عبد الله عليه السلام: كل ربا أكله الناس =

وفي قول فصل لا تعني ﴿مَا سَلَفَ﴾ إضافة إلى عناية الغفران، إلّا الذي

= بجهالة ثم تابوا فأنه يقبل منهم إذا عرف منهم التوبة، وأيما رجل أفاد مالاً كثيراً قد أكثر فيه من الربا فجهل ذلك ثم عرفه بعد فأراد أن ينزعه فما مضى له ويدعه فيما يستأنف.

أقول «فما مضى له» لا تعني إلّا ما عنته ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ ثم «ويدعه فيما يستأنف» قد تعني ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨] فيما تعني، ويكفي في وجوب رد ما بقي أنه لا تشمله ﴿مَا سَلَفَ﴾ مهما لم تشمله «ما يستأنف».

ومنها ما رواه علي بن إبراهيم في الصحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وضع ما مضى من الربا وحرم عليهم ما بقي فمن جهله وسع له جهله حتى يعرفه فإذا عرف تحريمه حرم عليه ووجب عليه في العقوبة إذا ركبه كما يجب على من يأكل الربا.

أقول «وحرم عليهم ما بقي» يعني كل ما بقي مما أخذه أم هو عنده لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ و«وسع له جهله» لا تعني إلّا فسحة عن العقوبة وكما تدل عليه «ووجب عليه فيه العقوبة...».

ومنها ما رواه الكليني في الصحيح عن الحلبي قال أبو عبد الله عليه السلام: لو أن رجلاً ورث من أبيه مالاً وقد عرف أن في ذلك المال رباً ولكن قد اختلط في التجارة بغير حلال كان حلالاً طيباً فليأكله وإن عرف منه شيئاً أنه ربا فليأخذ رأس ماله ويرد الربا.

أقول: «إن عرف» يعني معرفة البدل إلى معرفة العين، فقد يكون أكل كل ما أخذه ربا والزيادة هنا من التجارة، وأخرى أنه بقي منه شيء في المال الحاضر «فليأخذ رأس ماله ويرد الربا».

ومنها ما رواه علي بن إبراهيم في الصحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى رجل أبي عليه السلام فقال: إني ورثت مالاً وقد علمت أن صاحبه الذي ورثته منه قد كان يربي وقد أعرف أن فيه ربا واستيقن ذلك وليس بطيب لي حلاله لحال علمي فيه وسألت فقهاء أهل العراق وأهل الحجاز فقالوا: لا يحل أكله؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن كنت تعلم فيه مالاً معروفاً ربا وتعرف أهله فخذ رأس مالك ورد ما سوى ذلك وإن كان مختلطاً فكله هنيئاً فإن المال مالك واجتنب ما كان يصنع صاحبه» (نور الثقلين ١: ٢٩٤ - ٢٩٥).

أقول: إن كان «إن كان مختلطاً» يعني أن فيه ربا بعينها أم بديلها ولكنها مجهولة وصاحبها معلوم، فهو خلاف الآية ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فضلاً عن هذا الذي مات غير تائب، اللّهم إلّا أن يعني أنه مجهول ولا يعرف أهله، أم وبأبعد تأويل يجهل أن فيما أورثه ربا، وينافيه قوله: «وقد أعرف أن فيه ربا» وأما تخصيص ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أن حرمة ما زاد خاصة بعين مال الربا فمرفوض بنص الآية.

ومنها المروي عن نوادر أحمد بن محمد بن عيسى عن أبيه قال: إن رجلاً أربى دهراً من الدهر فخرج قاصداً إلى أبي جعفر عليه السلام - يعني الجواد عليه السلام - فقال له: مخرجك من كتاب الله ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والموعظة هي التوبة لجهله =

تلف من مال الربا عيناً أو بديلاً إذا لم يَعُد فليحاسب رأس ماله حين أخذ يأكل الربا، فكل ما زاد يُرد، ثم لا يبقى إلّا ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ شريطةَ التوبة، وإلّا فليس لكم إلّا ما تبقّى من رأس المال ورعايةً لحساب كل ما أخذتم من الربا، فإن وفى رأس المال فلا رأسَ مال، وإن نقص عما أخذتم فأنتم فيه مدينون، وإن زاد فلكم - فقط - الزيادة، فإنما العفو عن رأس المال هو بديل التوبة ترغيباً إليها، وإبقاء لما تعملون فيه لحاجيات الحياة، ثم ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمر ما سلف كما أمره هو نفسه، والله هو الذي يُرضي صاحب الحق يوم الأخرى بما يرى.

وحين ندرس الأمر في ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بدقة نجد أموراً وأوامر عدة، فمن الأمور:

١ - ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ نقضاً لـ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ ذنباً وديناً، ومنه ٢ - ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ومن محق الربا الحكم بردها إلى أصحابها فلا تبقى ربا ولا رأس مال فهو فاضي اليدين عن كل شيء، ومنه ٣ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾ ومنه ٤ - ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومنه ٥ - ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ . . .﴾ ٦ - ومنه ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ٧ - ومنه ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ . . .﴾.

كل ذلك تشمله ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ويستفاد أمره التكوين إن ظل تائباً من ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ إضافة إلى ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

= بتحريمه ثم معرفته به فما مضى فحلال وما بقي فليتحفظ (الوسائل ب ٥ من أبواب الرباح ١٠).

أقول: والجهل هنا أعم من الجهالة بل وهي هيه إذ يبعد الجهل بحرمة الربا بعد حوالي قرنين من نزول القرآن، ويؤيده صحيح الحلبي «كل ربا أكله الناس بجهالة ثم تابوا فانه يقبل منهم إذا عرف منهم التوبة» (المصدر ح ٢).

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾:

التقابل بين ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وهي أكل بباطل دون مقابل و﴿ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ وهي إيكال بحق دون مقابل، إنه تقابل لطيف وبينهما عوان هو المبادلة العادلة، لا أكلاً بباطل ولا إيكالاً بلا مقابل.

ولأن الربا ماحقة للدين والديّنين، وماحقة للاقتصاد، لذلك ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ثم الصدقات مربية في حقلي العطف الإنساني والاقتصاد فهو ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ وذلك معاكسة فيما تعنيه الربا من الزيادة والصدقات من النقصان، لغوياً، فالربا ممحوقة وإن سميت ربا، والصدقات رابية وإن لم تسمّ ربا.

فرغم أن الربا مزيد مال دون عوض، الله يمحقها، ثم الصدقات نقصان مال دون عوض، الله يربيها، فترى ما هو محق الربا وإرباء الصدقات في الحقل الاقتصادي، بعد ما نعرف منهما في الحقل الروحي والجزاء يوم الدين؟.

المحق هو نقصان إلى زوال حالاً بعد حال، وهكذا الربا خلاف اسمها وظاهرها عند أهل الظاهر، فإن الربا - على حد قول الرسول ﷺ - «وإن كثر فإلى قلّ»[1] قلّ في ريع الاقتصاد إضافة إلى قلٍّ في الفضائل الروحية، وقلٍّ في أنصار، وقلٍّ في أعمار، وقلٍّ في الحظوظ المطلوبة من وفر المال، قلّات في جهات وحالات رغم ما يخيَّل إلى الجهال أنها غلّات.

فأما قلّ الآخرة فباهر ظاهر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإن أعمالهم - المشروطة بحل أموالهم - تصبح هباءً وخواء، إضافة إلى أصل الربا ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

---

(١) الدر المنثور أخرجه عن النبي ﷺ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

ثم قلٌّ في سماح الروحية الإنسانية لآكلها، وقلٌّ في رحمة الآخرين وعطفهم له، عداءً عليه وهياجاً لنفوس البائسين المعدمين على النقمة منه، وتحريضاً تدريجياً جماعياً على جموع المرابين يهدد كونهم وكيانهم استئصالاً لنائرتهم، وقذفاً لهم إلى بائرتهم.

وإضافة إلى كل قلٍّ، هو في قلٍّ من ماله ومن رأس ماله، فإن آكل الربا مديون فيما أكله، مديون فيما بقي عنده أو أسلفه، مديون في رأس ماله أم وزيادة إن كان أكل أكثر منه، ولكن المتصدق أو التائب فإلى كثر، حيث التائب يُعفى عن ذنبه وعما سلف وله رأس ماله مهما كان قدر ما أخذ أو أكثر، فكما الله يأمرنا بإعطاء أموال مجانياً لحاجيات مادية، كذلك وبأحرى في الحاجيات الدعائية جذباً للمرابين إلى التوبة، وتقابلها الصدقات تماماً حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، حيث تبسط الرحمة والحنان والعطف والسماح وصنائع المعروف في كل حقولها.

فيا له من تفسير علي جلي لمحق الربا أنها «وإن كثر فإلى قلٍّ» وهو يعم كافة القَلّات فردية وجماعية، مادية ومعنوية، دنيوية وأخروية، فالمرابي إذاً هو في ثالوث القلّ.

فقد نرى قلها في الحقل المادي منها في عيشته القلّ حيث يَضِنُّ المرابي - نوعياً - أن يصرف ماله في حاجياته المتعوّدة الشخصية، فهو - إذاً - على كثرة المال في قلة الحال، يرى المال الوسيلة هدفاً على كل حال، فهو فقير في غناه وجائع في شبعه، ومضيق في سعته، وهو من أفقر الفقراء وأقفرهم.

ثم وقلّها فيما يُهاجَم من قبل المنكوبين المعدمين، قلَّ الناصرين المدافعين على كُثر الهائجين المائجين الثائرين عليه، وقل الأنصار في كل الحقول الحيوية حيث تبغضه الجماهير ولا تحبه.

ومن ثم قلها إن تاب ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ والزائد عليها

بائد، راجعاً إلى أهليه «فأي محق من درهم ربا يمحق الدين وإن تاب ذهب ماله وافتقر»(١).

ومن أهم ما يهدد آكلي الربا بمحق وقل هو الحملة الشيوعية المدمرة الدولية، إضافة إلى الضغائن الشخصية، بل وهي التي تصبح على مر الزمن ركاماً من العداء والبغضاء، سواءً في صورتها الباطلة كالشيوعية، أم الحقة كما النقمة العادلة من قبل المهضومين، حين تفور الضغائن الدفينة من هؤلاء وأولاء، فتثور ثورة هارعة قارعة لا تبقي ولا تذر.

وقد تعني ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ إنشاء إلى جانب الإخبار، إنشاء الأمر والدعاء، تجنيداً لعساكر المستضعفين ضد المرابين، ودعاء عليهم بالدمار والبوار، كما هو إخبارٌ بمصيرهم في مسيرهم الماحق البئيس الساحق ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر أو الكفران ﴿أَثِيمٍ﴾ مبطئٍ عن كل خير وصواب، وهكذا المرابي الكفار الأثيم، كافراً بأنعم الله، ناكراً لحُكمه أو حِكَمه، يصد السبيل عن صنائع المعروف، ثم ويقابل هؤلاء الكافرين الأنكاد البعاد.

تلحيقة:

التشديد في باب ربا المعاوضة ليس إلّا حياطة على التغابن ألّا يصل لأحد المتعاملين أكثر من حقه، ففي معاوضة السلعتين لا حق لأحد المتعاملين على الأخر إلّا القيمة السوقية لكل من السلعتين، وكذلك في معاوضة السلعة بالقيمة، إلّا أن هنا حقاً للتجارة وحقاً للقيمة السوقية العادلة ثم الزائد عليها رباً.

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٤ فيمن لا يحضر الفقيه وسأل رجل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] وقد أرى من يأكل الربا يربو ماله؟ قال: فأي محق...

ولأن الزمن لم يجعل الشرع له قسطاً من الثمن على أية حال، فإن قال نقداً بمائة ولمدة كذا بمائة وكذا حرم، وحتى إن لم يقل ولكن زاد في سعر المؤجل عن القيمة السوقية المعجلة حرم.

فلا قيمة إذاً إلّا للسعي أم وارتفاع القيمة السوقية العادل، دون السوق السوداء المختلقة.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] تحصر عوائد الإنسان بما سعى، فليس له ما سعاه سواه إلّا بما سعى قدره، مهما كان له من الله ما لم يسع هو أحياناً وسعى أخرى ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2].

فلا يجعل للزمن ثمن لأنه ليس سعياً، واحتمال أنه إن كان نقداً كان ينتفع منه بسعيه لا يحتّم له نفعاً، وحتى إذا حتّم فلم يسع، والتقدير ليس من الواقع بل إنما هو تقدير الواقع.

إذاً فتقدير ثمن للزمن ليس إلّا أكلاً بالباطل، لأن أمره دائر بين احتمال النفع قلّ أو كثر، أو الضر قلّ أو كثر، أم لا نفع ولا ضر، فكيف يأخذ بديلاً عن المحتمل على أنه لم يعمل شيئاً وإن كان متأكداً أنه إن عمل ربح كثيراً.

فرع: إن أقرض ألف دينار لسنة فسقط الألف عن أصل القيمة لتبدل العملة فهل عليه مثل ما أخذ من الدنانير وقد سقطت عن القيمة؟ طبعاً لا، حيث العدل يقتضي أن يدفع إلى الدائن نفس القيمة على أية حال، وكذلك الحال إذا نقصت الدنانير عن سعرها، وأما إذا زادت فكذا الحال إذ ليس على المدين إلّا ردّ ما أخذ سعراً لا كما، فإن أخذ الكم بكيفه الخاص

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٥.

فليرجعها أم الكيف فقط، والضابطة الثابتة في حقل الاقتصاد هي أن الأصل هو السعر العادل في كل المبادلات، فمن يدفع نقوداً فإنما يدفع قيمة تمثلت في تلك النقود، وليست الربا إلّا زيادة القيمة لا زيادة النقود أو السلع من حيث الكم والكيف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾:

وهذه تنديدة مديدة بآكلي الربا أنهم ليسوا من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مهما كانوا مؤمنين وعاملين صالحات، ولا من مقيمي الصلاة، إذ لا تصح منهم في ظاهر كما لا تصلح في باطنها، حيث الملابس والأمكنة المغصوبة تبطل الصلاة، ولا من مؤتي الزكاة، فإنهم يأكلون الربا فكيف يُؤتون الزكاة، اللّهم إلّا بِحيَل شرعية! أماهية، فليس لهم - إذاً - أجرهم وهم يحزنون.

ذلك، خلاف أولاء المكارم المؤتين الزكاة وسائر الصدقات فهم أولاء هم المؤمنون المقيمون الصلاة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في كل النشآت ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عن مستقبلهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من ماضيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾:

هنا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كما تعني شأن نزولها مما أسلفوه من ربا، كذلك تعني حاضر الربا بعينها أم بديلها، فإن ﴿مَا بَقِيَ﴾ دون قيد، تعم ما بقي لهم على المديونين، وما بقي عندهم مما أخذوه منهم عيناً أم بديلاً، وكما تفسره ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[1] إضافة إلى أنه قضية العدل في الأموال، فلقد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.

سبق التنديد بآكلي الربا الكافرين من ذي قبل، وعداً لهم ترغيباً أن «له ما سَلَفَ» إن انتهوا، ثم ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بياناً لحدود ما لهم مما سلف.

وبعد أن آمنوا تشملهم هنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى جانب سائر المؤمنين، أمراً بتقواهم في ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كما اتقوا سائرها، و﴿مَا بَقِيَ﴾ تشمل مثلث الربا مسلفة وحاضرة مأخوذة، عيناً وبديلاً، وكما اتقوا مستقبلها منذ حالهم.

وهنا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تبيّن أن ترك ما بقي منها هو من شروط الإيمان كترك سائرها.

إذاً فـ ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ مما تعنيه ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كما تعني ﴿وَمَنْ عَادَ. . .﴾ فإنه يعاد عليه ذنبه بكل ما أخذه من الربا كائنة ما كانت.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ انتهاءً عن أصل الربا بعد ما جاءتكم موعظة من ربكم، أم فعلتم و﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ تقوىً عما بقي من الربا، أم جمعتم بين أصل الربا وما تبقّى ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: اعلموا حينذاك ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحاربكم إذ خالفتم تشريعه كفراً أو عصياناً ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ يحاربكم إذ خالفتم بلاغه عن الله.

وذلك تعبير منقطع النظير في كبيرة عقيدية أو عملية لفظاعة الموقف روحياً ومادياً، فردياً وجماعياً، وكأن آكل الربا يحارب الله ورسوله فيحاربه الله ورسوله، إعلاماً عاماً في هذه الإذاعة القرآنية على مدار الزمن، فليحارب آكل الربا بكافة الوسائل صداً عن عمليته النكراء التي تبوأ إلى كل خواء وبواء، محقاً لها واستئصالاً عن المجتمع السليم المسلم، ولكي لا يُستأصل فالجاً في الحقول التي تفسدها الربا.

فعلى كل الجماهير المؤمنة المستضعفة في مساعيهم وأموالهم وكل أحوالهم أذان على هؤلاء الأنكاد بحرب دائبة لا تقف حتى يوقفوا ما حق الربا ومساحقها، وإلّا فمحقاً لهم وسحقاً:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

ولأن هؤلاء من المحاربين الله فلتشملهم آية المحاربة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ...﴾(٢) وأقل الجزاء للمرابين المصرين النفي من الأرض، قطعاً لأيدي فسادهم وإفسادهم عن أرض الحياة الجماعية السليمة المسلمة.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ عن أصل الربا وما تبقّى عندكم أم عند المدينين منها، إفضاء لأيديكم عنها جميعاً ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ فقط دون زيادة هي عين مال الربا أم بديله.

هنا ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ لا تعني إلّا الرؤوس الأولى التي ليست من الربا ولا سواها من حرام، فالذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، آخذين الربا على الربا كما يأخذون على رؤوس أموالهم، ليس لهم هنا إلّا الرؤوس الأولى شرط أن يتوبوا، فليس لغير التائب شيءٌ حتى رأس ماله حيث ينحسب عما أكله من ذي قبل، فقد يبقى منه شيء أو ينقص عما عليه أم يتساويان.

إذاً فثالوث الربا - ما أكله وما تبقّى، مما لم يأخذه بعده أو ما عنده

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

أصلاً أو بديلاً - إن ذلك حسب مُرِّ القاعدة يجب أن يرجع إلى أصحابه على أية حال، وإنما يستثنى - فقط - ما سلف من ذنب وما أكل ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ دون غير التائب فإن عليه كل ما سلف مالاً وتبعة دون إبقاء، وإن استوعب رأسَ ماله أم وزيادة فليحاول في ردّه ككلّ مهما عجز، فإن عليه وزره ذنباً ومالاً دونما عفوٍ إذ لم يتب.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ في أخذ ما بقي من الربا والتصرف فيها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أن تؤخذ منكم ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

ثم ولا تعني من رؤوس أموالكم إلّا الأموال المحللة التي جعلت رأس مال للربا، دون المحرمة سواء أكانت من ربا أو من غيرها، فإن حصل على رأس ماله من ربا أخذها من غير هذا الذي عنده، فليس له رأس ماله، بل هو لصاحبه، فليست له - إذاً - من الأموال الربوية إلّا ما سلف، ثم لا يحسب رأس ماله بديلاً عما أتلف رأفة عليه لكي لا يستصعب التوبة.

وحصيلة البحث عن آيات الربا أن غير التائب غير مغفور له وعليه أن يرد كل ما أخذ وإن استوعب رأس ماله وزيادة.

وأما التائب عن الربا ككلّ ما سلف وما يأتي فله ما سلف من ذنب وما سلف مما أتلف ما أخذه ربا، ويرد ما بقي من الربا سلفاً أو حاضراً بعينه أو بديله أياً كان.

وتراهم يُظلمون إن لم يتوبوا إذ ليس لهم إذاً رؤوس أموالهم؟.

إن التوبة كانت بديلة عما سلف وليس - إذاً - يظلمون فيما تلف مما سلف، فهم يظلمون لولا التوبة إذ لا بديل إذا عما تلف، ولا يُظلمون إذ يحسب من رؤوس أموالهم عما تلف، فلله أن يعفو عن عباده ما لهم من حق عمن عليه فيما فيه مصلحة وحكمة ثم يجبر النقص بما يراه لهم يوم

القيامة، تعبيداً لسبيل التوبة وتسهيلاً للإنابة، وكما فعل للذين كفروا ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١).

وفي ذلك أمثال عدة قضية المصلحة الإسلامية كفرض الصدقات والنفقات وفرض تجهيز الميت دونما بديل، وإصلاح أموال اليتامى حيث يجب الاستعفاف على الغني، ونصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم وما أشبه.

فآكل الربا إذاً كان مضغوطاً عليه بأن يتحمل ردّ كلما أخذه، كانت التوبة عبئاً عليه، فإنها انتقاله كقفزه من أكل بالباطل دونما مشقة، إلى فناء الحياة الاقتصادية مع كل مشقة، فقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ - ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ سماح للتائب عن الربا بالنسبة لكل ما سلف وليس عنده أصله ولا بديله، اللّهم إلّا مقابلاً له بعضاً أو كلاً وهو رأس ماله، فلو لم يُعف عن ذلك لكانت حياته موتاً، و﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ تعني وسطاً بين الأمرين، فليس له كل ما أخذ باقياً وسواه، ولا عليه ردّه كله باقياً وسواه، إنما عليه ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ سلفاً وعيناً أو بديلاً، ثم ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ وذلك وسط بين الأمرين وفيه فرض التنازل لدافع الربا عن بعض ما دفع، وفرض الردّ لآخذ الربا كل ما بقي سلفاً أو حاضراً.

وتلك حكمة ربانية تربية للنفوس المؤمنة بتعاون، وجذباً للمرابين إلى التوبة.

ثم ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ولو لم يكن له مفهوم، فغير رؤوس أموالكم محرم عليكم، فإن قضية القاعدة أن ليس لكم شيءٌ إلّا بعد ما استثني ما أخذتم من الربا، ولكن ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ استثناء عما أخذتم، قدر رؤوس أموالكم مثوبة للتوبة.

---

(١) سورة الانفال، الآية: ٣٨.

ثم كيف ليس له مفهوم وهو مفهوم عند كل فاهم إلّا أن تدل قرينة على نقض المفهوم كـ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾(١) والقرينة هنا أن هذه كانت متعوّدة وهي أظلم الربا فنهي عنها بالفعل ثم نهي عن الكل، ثم وآية النهي عن الربا ككل نصّ على تضعيف المفهوم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾:

﴿كَانَ﴾ هنا تامة لتطمّ هذه الضابطة كل ذي عسرة من المدينين، سواء استدانوا برباً أم قرضاً حسناً أم كانوا مدينين بغير ربا أو قرض، والنظرة إلى ميسرة في الأول أولى وأحرى فإنه دفع ما دفع دون مقابل فليُنظر عند العسرة، بل ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تصدقاً لرؤوس أموالكم، ولا سيما في حقل الربا، إذ قد أخذتم قدرها رباً أم أكثر، إذا فـ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في حالتي الربا والقرض الحسن ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله من أجر للمتصدقين و﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه معسر(٢) علم الوجدان، أم تصديقاً له غير متَّهَمٍ في دعوى الإعسار، كما والتصدق - أيضاً - أعم من تصدق أصل المال أو بعضه أو تأجيله عن أجله، أو تقسيطه طويلاً أما ذا من إرفاق.

فحين تعلمون أنه في مَيسرة يدعي الإعسار، فهو ظالم لا سماح معه بتصدق، وحين تجهلون أمره فنظرة إلى أن تعلموا حاله ميسرة ومعسرة ولكلّ حال(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

(٢) كما في نور الثقلين ١: ٢٤٦ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام «... إن كنتم تعلمون أنه معسر فتصدقوا عليه بما لكم عليه فهو خير لكم».

(٣) المصدر عن الكافي عن أبي محمد سأل الرضا عليه السلام رجل وأنا أسمع فقال له: جعلت فداك إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠] أخبرني عن هذه النظرة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه لها حدّ يعرف إذا صار هذا المعسر لا بدّ من أن =

فهنا فرض هو ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ لمن ﴿كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ ثم نفلٌ ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تشملان كل دائن ومدين، قرضاً حسناً، أم وبأحرى رباً.

وحين يُندب إلى تصدق رأس المال، فبأن يعفو عن بعضه أو يستعجل آجله أحرى، فـ«إنه لم يزدد على رأس ماله»[١].

﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ هنا هو كل من يعسر عليه أداء دينه مهما كان عنده حاجيات حياته الواجبة له ولأهله، فليس عليه بيع داره أو ركوبه أو مَلابسه أمّا ذا من حاجياته المتعوّدة العادلة، اللّهم إلا إذا حصل عليها من أصل الدين، لا سيما إذا كان استدان وهو لا يرى عنده وفاء.

و﴿مَيْسَرَةٍ﴾ هي اليسر بزمانه ومكانه قدر المقدور من دينه كلّاً أو بعضاً وكما يستطيع، فلا يجوز حمل المدين على عسرته لدفع ما عليه ولا بشطر كلام قاس فضلاً عن أي مراس آخر من زج في السجن أم ضرب أمّا شابه إلّا ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أم تصدقاً إن كانت للدائن مُكنة ميسَّرة، ومنها أن يصل خبره إلى الإمام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا أنفقه في طاعة الله[٢].

= ينظر وقد أخذ مال هذا الرجل وأنفقه على عياله وليس له علة ينتظر إدراكها ولا دين ينتظر محله ولا مال غائب ينتظر قدومه؟ قال: نعم، ينتظر بقدر ما ينتهي خبره إلى الإمام فيقضي ما عليه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في طاعة الله، فإن كان أنفقه في معصية الله فلا شيء له على الإمام قلت: فمال هذا الرجل أيتمنه وهو لا يعلم فيما أنفقه في طاعة الله أم في معصية الله؟ قال: يسعى له في ماله فيرده وهو صاغر.

أقول: ميسرة وصول خبره إلى الإمام هي بعد العسر المحلّق عليه، فإن رجى أنه إلى ميسرة فلا إلّا أن يضطر الدائن ثم يرد إن أيسر إلى بيت المال.

(١) المصدر في الكافي صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن الرجل يكون له دين إلى أجل مسمى فيأتيه غريمه فيقول: أنقدني كذا وكذا وأضع عنك بقيته، أو يقول: أنقدني بعضه وأمد لك في الأجل فيما بقي عليك؟ قال: لا أرى به بأساً أنه لم يزد على رأس ماله قال الله عز وجل: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

(٢) مضى حديثه عن الإمام الرضا عليه السلام وروى القمي بسند متصل عن عائشة أنها قالت سمعت =

ومن ميسرة المدين سعي أكثر إن أيسر لأداء دينه حسب المستطاع، فلا تعني ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ حصول مال دون محاولة زائدة، وإنما هي يسر الأداء من حاضر المال أم سعي للحصول عليه، أم ويسرٌ غيرهما باستدانة ميسورة من آخر ليوفي الأوّل، شرط أن يرى من حاله الوفاء في الزمن المحدد، وألّا تكون الاستدانة له مزرءة غير ميسورة.

فكلٌ من ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ و﴿مَيْسَرَةٍ﴾ أمران عرفيان خارجان عن العسر والحرج، إذ ليسا من تكاليف الشرعة الإلهية، فلا يعسر مدين أو يحرج، اللّهم إلّا إذا استدان دون حق، كأن لم ير من حاله الأداء، فإنه من أكل المال بالباطل، فلا تشمله ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ حيث أعسر هو نفسه بما قصّر، والآية لا تتعدي عن موارد الديون الحقة، ومهما كانت الاستدانة غير الضرورية بالربا غير صالحة، ولكنها استدانة ممكنة الأداء، فليس فيه أكل بالباطل مهما كان فيه إيكال بالباطل، ولكن المستدين الذي ليس عنده وفاء، رباً وسواه، إنه آكل بالباطل في الحالين.

ومن شروط العسر في إعذار المدين ألّا يكون مبذراً أو مسرفاً في ماله أو مال الدين، فإنه عسر في غير عذر.

ثم التصدق لا يختص بالسماح عن أصل المال وإن كان أفضله، فمن التصدق السماح عن بعضه، أو عن كيفية أدائه المشترطة، ومنه التصدق بتأجيل أجله وكما عن النبي ﷺ: «لا يَحُلُّ دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[1].

= رسول الله ﷺ يقول: ما من غريم ذهب بغريمه إلى وال من ولاة المسلمين واستبان للوالي عسرته إلّا برأ هذا المعسر من دينه فصار دينه على والي المسلمين فيما في يديه من أموال المسلمين، قال: ومن كان له على رجل مال أخذه ولم ينفقه في إسراف أو معصية فعسر عليه أن يقضيه فعلى من له المال أن ينظره حتى يرزقه الله فيقضيه وقال ﷺ من ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلي إذاً فعلى الوالي وعلى الإمام ما ضمنه الرسول ﷺ.

(١) الدر المنثور ١: ٣٦٩ وفي نور الثقلين ١: ٢٤٦ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام =

إذاً فالتصدق درجات، كما أخذ الربا، واسترجاع رأس المال الحالّ مع الإعسار دركات.

وذلك التصدق بدرجاته كفارة لمن أخذ الربا وأتلف، مهما غُفر له بما تاب وانتهى، فبديلاً عما أكل من زيادة باطلة، فَليؤكِل صاحبه زائدة الصدقة جزاءً وفاقاً، مهما لم يفرض عليه.

وكضابطة عامة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ لا تشمل إلّا من استدان رجاء ميسرة ثم أعسر، دون المستدين بلا رجاء لأدائه، أو الذي صرفه في غير سبيل الله، أو هو في ميسرة يدعي الإعسار، أو هو في إعسار بتبذير أو إسراف أما ذا من وجوه الإتراف.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ فيه تُجزون ما كسبتم إذ ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ كما بدأكم ولا خيرة لكم ولا حول ولا قوة، لصغاركم حولا وقوة بعدم المكنة الذاتية، ثم أقدركم وقواكم فكلفكم بما كلفكم، ﴿يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ كما كنتم، على مُكنتكم هنا، إذ لا تقدرون يوم الرجوع على شيءٍ إلّا ما كسبتم قبله ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ فلها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ نقيراً ولا فتيلاً.

= قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على أنبيائه صلى الله عليهم ثم قال: أيها الناس ليبلغ الشاهد منكم الغائب ألّا ومن أنظر معسراً كان له على الله في كل يوم صدقة بمثل ماله حتى يستوفيه ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠] أنه معسر فتصدقوا عليه بما لكم عليه فهو خير لكم».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

آية الدّين هي أطول آية في الذكر الحكيم مما يدل على طَول ذي الطَول في حقل الدِّين حفاظاً على الأموال ألّا تهدر، لأنها من خير الوسائل للحفاظ على الدين والدينين.

فواجب الحفاظ على الأموال هو من النواميس الخمسة في شرعة الله، فإنه خير وسيلة ظاهرية يُتوسل بها للحفاظ على الأربعة الأخرى: نفساً وديناً وعقلاً وعِرضاً، مهما كان الأهم منها هو الدّين ثم الأربعة الأخرى حيث تستخدم للحفاظ على ناموس الدين.

وهذه الآية تحمل أبواباً فقهية ثلاثاً هي الدين والتجارة والرهن، والنقط الأساسية والمحاور الرئيسة من فروعها، وهي في الحق تكملة للدروس السابقة في حقل التصرفات المالية سلبية وإيجابية، في المعاملات الربوية، والإنفاقات المجانية، أم ببديل عديل كالقرض الحسن، مما قد يخيِّل إلى البسطاء أن الأصل في الأموال أن تهدر ولا تتقدر بأي قدر.

فهنا تتجلى صياغة قانونية رزينة مكينة بتأكيدات عدة للحفاظ على الأموال في حقل التداين، أياً كان الدائن والمدين والدين، رغم ما تقدّم من واجب التبذل وراجحه في سبيل الله، إنفاقاً دون مَنٍّ ولا أذىً ولا رياء الناس، وحرمة الأكل بالباطل ومن أنحسه الربا.

هنا عشرة كاملة من التأكيد - أو يزيد - في الحفاظ على الدّين، كتابة وشهادة: تلقياً وإلقاءً، مما يدل على بالغ الأهمية في شرعة الله للحفاظ على الأموال، تقديراً لها دون تهدير، كما لا إسراف فيها ولا تبذير، فإنما المال وسيلة لإصلاح الحال على أية حال، دون تدجيل ولا إدغال.

ولقد حُذِّر العقلاء أن يؤتوا السفهاء أموالهم التي جعل الله لهم قياماً: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١).

ولم يسمح أن يؤتى مال اليتيم إياه حتى إيناس الرشد منه: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾(٢).

فقد يُعتبر غير الرشيد في ماله سفيهاً مهما كان بالغاً للنكاح، فاليتامى سفهاء في بعدين، والبالغون غير الراشدين سفهاء في بعد واحد، ولا يسمح لغير الرشيد أن يتصرف في ماله نفسه فضلاً عما سواه.

ومن الرشد بالنسبة للأموال الوثيقة عند التداين كيلا تهدر بنكران أو نسيان أو موت دون وصية أمّاهية من فلتات الأموال في مختلف الأحوال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ...﴾:

التداين هو التعامل بالدين، فلا يشمل ﴿تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ ولذلك قوبلت - أخيراً - بالتداين.

ولأن التداين هو التعامل بالدين بين اثنين، الشامل لنسيئة الجانبين وهو باطل بالمرة، لذلك قيد هنا ﴿بِدَيْنٍ﴾ فإن وحدته دليل وحدة الدين، سواء أكان بيع العين بالدين وهو النسيئة السلم أم بيع الدين بالعين وهو السلف

(١) سورة النساء، الآية: ٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.

وقد يروى عن الرسول ﷺ قوله: «من أسلم فليسلم في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»[١].

ومثله السلف في الأجل فهما - فقط - داخلان في نطاق آية الدين، بعدما خرجت التجارة الحاضرة والنسيئة من الجانبين وهو بيع الكالي بالكالي.

ولماذا ﴿تَدَايَنتُم﴾ أولاً، الشامل لدينين بين اثنين، ثم خروجاً له ﴿بِدَيْنٍ﴾؟ علّه للتأشير إلى هذين النوعين: إدانة واستدانة، والتعبير الصالح عنهما ككل ليس إلّا ﴿تَدَايَنتُم﴾ فقد تسلف وأخرى تستسلف.

فلو كان النصّ «دنتم» بدلاً عن ﴿تَدَايَنتُم﴾ لم يشمل إلّا الإسلاف، وبقي الاستسلاف خارجاً عن نطاق الآية.

وترى القرض - في غير مبايعة أماهية من سائر المعاملات - داخل في نطاق ﴿تَدَايَنتُم﴾؟.

طبعاً نعم! إذ قد يدين المؤمن وقد يستدين وهما المداينة، دون أن تكون ضمن معاملة، مهما شملت المداينة التي هي ضمن معاملة أخرى كالتجارة والإجارة وما أشبه.

وهنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تفرض أن تكون المداينة بدين - أياً كان - إلى أجل مسمّى، لا دون أجل، ولا أجل مهمل، أم أجل مخوَّل إلى المستدين، فإن في ذلك الإمهال المهمل إهمالاً للمال وإفساداً للحال والآمل.

إذاً فلا تداين إلّا إلى أجل مسمّى كما لا تداين إلّا بدين دون دينين، ولو لم يكن الأجل المسمى شرطاً في صحة الدين لكان ذكره مهملاً، أم إن

(١) آيات الأحكام للجصاص ١: ٥٧٥ وقد رواه جماعة من السلف.

الدين دون أجل مسمى لا تجب فيه الكتابة الشهادة، وهو أحوج إليهما قضية الإهمال في الإمهال، فلا يصح تداين إلّا إلى أجل مسمى ومنه الصداق المؤجل، مهما كان طبع الصداق أنه معجل كما توحي له آياته ككل.

وهنا ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ وهي بطبيعة الحال كتابة تفيد المتداينين، فإنها مُسكة للدائن في أصل الدين وقدره وأجله، ومُسكة للمدين ألّا يستعجل قبل حلول الأجل، ولا يُستزاد عن الأصل، إذاً فحقوق كلٍّ من الدائن والمدين محفوظة بالكتابة، لا يعتريها نقص ولا نقضٌ ولا تعجيل عما أجِّل، ولا تأجيل عما عجِّل، وقد يروى عن النبي ﷺ قوله بحق الدين: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم... ورجل له على رجل دين ولم يشهد عليه»[1].

وهل أن كتابة الدين واجبة لمكان الأمر، ثم وتكراره المؤكد مرات عشر أو تزيد؟.

وليست الكتابة إلّا للحفاظ على حق الدين، وقد تكفي عنها الثقة الكاملة بالمدين، وقد تكون أوثق من الكتابة!.

ولكنما النص غير المعلل بهذه الحكمة لا يقبل هكذا تحميل، ثم ومهما كانت الثقة بالمدين كاملاً أم وأكمل من الكتابة، ليست لتفيد بعد الموت حيث لا سند ولا وثيقة وقد مات محور الثقة، ثم النسيان لأصل الدين أو قدره أو أجله لا تجبره أية ثقة، فلذلك نجد الحث في النصِ عدة وعُدة للحفاظ على ما لا تحافظ عليه الثقة قبل الموت وبعده.

ذلك! ولكن ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ...﴾ مما

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ١: ٥٧٢ رواه مرفوعاً عنه ﷺ وصدره: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل أعطى ماله سفيهاً وقد قال الله: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، وفيه روى جرير عن الضحاك: إن ذهب حقه لم يوجر وإن دعا عليه لم يجب لأنه ترك حق الله وأمره.

يبرهن على كفاية الثقة الكاملة، ولكنها إنما تكفي حالة الحياة والذكر، اللّهم إلّا أن يكفي ذِكر الدين عند المدين في مذكّرته، ذكُراً للدين قبل الموت للدين وبعده للوارث.

﴿فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾:

وترى الكاتب بالعدل بينكم هو غير المخاطبين بـ ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؟ وكتابة واحدة تكفي عما يرام!.

ولكن ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أمر بكلا الدائن والمدين، أن يكتب الأوّل ما له والآخر ما عليه، ذكراً في مذكرته عنده، ثم ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كتابة مشتركة بينهما، فيها ما لهما وعليهما، «ليكتب بالعدل - كاتب بالعدل» عدلاً في الكاتب وعدلاً في الكتابة أن يكتب عدلاً لأصل الدين ومقرراته بينهما، وصراحاً في الدين بمخلفاته، دون أن يتسرب إليه احتمال إبطال حقٍ له على أية حال.

فذلك «العدل» يجب أن يحافظ على حق من له الحق ومن عليه الحق دون إبقاءٍ لأي احتمال قد يبطل حقاً أو يرخيه.

ذلك فليكن الكاتب بالعدل فقيهاً في الكتابة العادلة ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ كتابة عن علمٍ عادل وعدل عالم ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ الكتابة وعدلها، لا كما تهواه نفسه.

وهل تجب الكتابة على الكاتب بالعدل كما تجب على المتداينين؟ ظاهر الأمر هو الوجوب مهما كان كفائياً في الكاتب وعينيّاً عليهما، إلّا أن له الأجرة إن طلبها، حيث الوجوب الكفائي ليس لزامه عدم الأجرة كما في سائر المكاسب والتجارات والأعمال لمختلف العمال.

ثم ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وهو المدين، والإملال هو الإلقاء على

الكاتب ليكتب كما يقول، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ من أصل الدين وأجله وكيفية ردِّه إلى صاحبه.

فالأصل المفروض في هذه الكتابة الثانية هو إملال المدين، إملالاً للدين على الكاتب إقراراً لما كتب وإملال التوقيع تصديقاً لما كتب وكتبه الكاتب بما أملل، ولماذا الإملال فقط على الذي عليه الحق؟ لأن عليه كتابة الوثيقة دون الذي له الحق، فهو الذي يملل على كاتب العدل اعترافه بالدين ومقداره وشرطه وأجله، خيفة الغبن عليه إن أملل الدائن، فقد يزيد في الدين أو يقرب الأجل، أو يذكر شروطاً لصالحه شخصه، والمدين - وهو في موقف الحاجة والضعف - قد لا يملك معه إعلان المعارضة رغبة في الحصول على الدين، إذاً ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولكن ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا. . .﴾.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ. . .﴾:

هنا ﴿وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ بديل عن كتابته هو وعن إملاله كتابة الكاتب بالعدل، ولأنه لا ولاية إلّا على القاصر فليكن هذه الثلاثة قصوراً يتطلب الولي بالعدل، إذاً فكيف يستدين القاصر دون ولي ثم على وليه أن يملل بديلاً عنه؟.

﴿وَلِيُّهُۥ﴾ اللامح في ثابت الولاية، دليل أنه استدان بإذن وليه وعلى رعايته، فليملل وليه بالعدل كما أذن له.

فالسفيه الذي لا يؤمن على إملاله - إذ لا يحسن تدبير أموره - هو بحاجة إلى ﴿وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ حفاظاً على حقه كمدين، فلا يملل زائداً على ما عليه.

والضعيف الذي ليس سفيهاً خفيف العقل، ولكنه خفيف الهمة أم

خفيف المعرفة في الإملال لصغر أو جنون أو ما أشبه، هو أيضاً بحاجة إلى ﴿وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

والذي لا يستطيع أن يملل على رشده في العقلية والمعرفة، لا يستطيع إذ لا يعرف الكتابة، أم هو مريض لا يسطع عليها على معرفته كالأبكم أو معقود اللسان، هو الثالث في هذا الحقل في الحاجة إلى ﴿وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

فالأمر الذي لا بدّ منه هو إملال الدين بالعدل، فإن استطاعه الذي عليه الحق فهو عليه، وإلّا ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ...﴾:

وترى الشهادة هنا تختص بمن يملل وليه بالعدل تكملة للثقة بذلك الإملال؟ و﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً...﴾ تعمم الشهادة لكل تداين، مهما كانت فيما يملل الولي بالعدل أهم وأقوم.

ثم ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ تشترط الإيمان في هذه الشهادة، ومن ثم ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ تشترط الثقة وهي أعم من العدالة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ...﴾:

وهذا النص يختص هذه الشهادة برجلين مرضيين، ثم ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ وأما «أربع نساء» فلا، حيث إن وحدة البديل دليل اختصاص البديل بما اختص.

وهل يكفي يمينٌ عن شاهد أو يمينان عن شاهدين؟ الظاهر لا، لحصر الآية الشهادة هنا في رجلين أو رجل وامرأتين، ثم وليس اليمين شاهداً، فإذا لم تقبل شهادة النساء، فاليمين أحرى بعدم القبول، والرواية القائلة بقبول اليمين مردودة بمخالفة الآية.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾:

أترى الضلال هنا النسيان؟ وليست الأنثى أنسى من الذَكَر ولا الذكر أذكر من الأنثى! ثم الضلال يقابل بالنسيان: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1] أم هو ضلال العصيان؟ ولا يناسبه ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾! قد يعني الضلال هنا كلا النسيان والعصيان، حيث الأنثى هي أنسى من الذكر وأعصى مهما كانت ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فإن عوامل التقوى فيها أضعف، وبواعث النسيان والعصيان فيها أقوى، فإذا انضمت الأخرى إلى الأولى فقد تذكر إحداهما الأخرى، فتصبحان كذكر واحد ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ ولا يجوز تذكير شاهدٍ الآخر إلّا في امرأتين حيث هما بديلتان عن رجل، فكأنه ذكّر نفسه.

ثم وأسباب النسيان والتناسي في النساء عدة قد تشملها كلها ﴿أَن تَضِلَّ﴾:

كقلة الخبرة بموضوع التعامل، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابساته، ومن ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء، فتذكرها الأخرى، تعاوناً تجعلهما - على وثاقتهما - كرجل واحد مرضي في الشهادة، ذكراً لكل الملابسات في حقل التداين.

وكالانفعالية المتغلبة على العقلية في قبيل الأنثى، وهي صالحة لوظيفة الأمومة للطفولة الضعيفة، فعليها أن تكون شديدة التأثر وسريعة التلبية لحاجيات الطفولة، وذلك من فضل الله وعطفه على الأمومة والطفولة حفاظاً على الحيوية التربوية الصالحة.

والشهادة بحاجة إلى تجرد صالح من كل الانفعالات، والطبيعة المنفعلة

(١) سورة طه، الآية: ٥٢.

هي كماهية في كل الحقول دون اختصاص بالطفولة، ووجود امرأتين مكان واحدة ضمانة عن تفلتات الانفعالات والانحيازات غير العادلة.

ذلك! ومن ثم التأكيد الأكيد على كلا الكتابة والشهدا..:

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟...﴾:

أولاً لتلقي الشهادة، وثانياً لإلقائها حين الحاجة إليها، فكما أن كتابة العدل واجبة على أهلها كفائياً، كذلك الشهادة بطرفيها، بفارق أن إلقائها عيني وتلقيها كفائي.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ...﴾:

فصغير الدّين وكبيره سيان في فرضي الكتابة والشهادة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟...﴾:

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الكتابة المزدوجة ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من تركها ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ فكل من الكتابة والشهادة تؤيد زميلتها، وتزيل الريبة في الحق بأصله وملحقاته.

ذلك، فإن لم تكن ريبة فلا حاجة إلى كتابة وشهادة، اللّهم إلّا حفاظاً على الدين بموت المدين، وقد تكفي فيه كتابة.

وكل ذلك ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ...﴾ فلا كتابة في ﴿تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ وإنما الشهادة قضية الأمر: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وتراها مفروضة في كل صغيرة وكبيرة؟ وهي غير ميسورة بطبيعة الحال حتى في الكبيرة!.

طبعاً هي في تجارة كبيرة، حفاظاً عن الريبة بعدها، وصداً عن دعوى

كلّ من المتعاملين نكران المعاملة عن بكرتها، أم نكران تسليم أو تسلم لعوض أو معوض.

وترى حين تكون ﴿تِجَـٰرَةً﴾ خبراً للمداينة المستفادة من ﴿تَدَايَنتُم﴾ فهل إنّ التجارة الحاضرة مداينة حتى تستثنى منها؟.

كلّا! وإنما هي استثناء منقطع، يقطع حكم الكتابة والشهادة بهذا النمط في غير المداينة، قطعاً لإثباتهما في كل مداينة دونما استثناء، وهذا مما يؤكد استجرار ذلك الحكم الحكيم في كل مداينة، ضمن معاملة أخرى أم بصورة مستقلة كقرض وسواه.

فالكتابة والشهادة هما على أية حال لا تعنيان إلّا الحفاظ على الحقوق والأموال إذاً:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ...﴾

وقد تعني ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ كلا الفاعل والمفعول، حيث تنهى الكاتب والشهيد عن الإضرار بمن كتب له أو عليه، كما تنهى المتداينين والمتبايعين عن الإضرار بكاتب أو شهيد، ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ مضارة، من أي الطرفين ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: خروجاً بكم عن طاعة الله إلى معصيته، والمضارة هنا تعم المادية والمعنوية والعملية، فلا مضارة في ذلك الحقل الأمين الذي يحافظ على مصالح المسلمين.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾:

إن العلم الحق هو الذي يعلمنا الله إياه، ولكن تقوى الله تزيدنا علماً، كما أن طغوة الله تزيدنا جهلاً، ومهما كان ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ معطوفاً على ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ دون أن تفرّع عليها، إلّا أن نفس العطف هنا مما يعطف ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ بـ ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ برباط أكثر مما لم تتق الله، وكما قال الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] وقد قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه علم ما لم يعلم»[2].

هذا وقد تكون الواو هنا حالية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ الحال أنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ فاتقوه فيما يعلمكم فلا تجاهلوا ولا تخالفوه فيما علمكم.

أم وللاستئناف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ «وَ» على أية حال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ فيما تتقونه أم لا تتقونه، ولكن التقوى تزيدكم علماً وفرقاناً، فلأن الله علمكم ما تتقونه فاتقوه، ثم يعلمكم مزيداً إن تتقوه.

ولأن تقوى الله ليست إلّا عن علم بشرعة الله، فليست هي التي تعلمنا شرعة الله، بل تزدادنا معرفة بالله وبخفايا أسرار الشرعة أصولاً وفروعاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾[3] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٧٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ... وفيه أخرج الترمذي عن يزيد بن سلمة أنه قال يا رسول الله ﷺ إني سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوّله آخره فحدثني بكلمة تكون جماعاً، قال: اتق الله فيما تعلم، فيه أخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «من معادن التقوى تعلمّك إلى ما علمت ما لم تعلم والنقص والتقصير فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم».

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٤، ٥.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

إذاً فتقوى الله بادئة بالعلم بشرعة الله، ثم العمل بها حسب المستطاع، ثم الله يجعل لنا فرقاناً ونوراً ويسراً ويشرح صدورنا للإسلام!.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾:

«رهان» جمع رهن وهو من المحبوس بدلاً عن الدين وأصله الدوام فإنه يديم مال الإنسان بمثله ويستوثقه.

ثم ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ هي من فروع التداين بدين إلى أجل مسمى، لا و﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ إذاً ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ هي بديلة عن الكتابة، من أموال منقولة وغير منقولة، فالشهادة إذاً ثابتة اللّهم إلّا ألّا تجدوها كالكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ تنوب عنها كما نابت عن الكتابة.

ففي حقل الدين كتابةٌ وشهادة، ثم رهانٌ مقبوضة بديلةً عن الشهادة والكتابة، مهما ذكرت بدليتها عن الكتابة ولم تذكر هي عن الشهادة، فإن اضطرارية البديل تحلق على فقدان الشهادة.

إذاً فمشروعية ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ لا تعدوا فقدان الكتابة أو الشهادة إلى حاضرها، ثم هذه الأمانة تؤدى عند الاطمئنان، سواء أكان دون كتابة شهادة، أم بعد التداين، فليس من الواجب في التداين ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ ولا من المسموح قبوله إلّا بديلاً عن الكتابة أو الشهادة غير الموجودة، كما ولا يجوز التصرف في ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ حيث التصرف في الأمانة خيانة فيها، اللّهم إلّا إذا رضي صاحبها دون اشتراط في أصل الدين.

ومن شرط الرهان أن تكون مقبوضة لنص الآية، ف«لا رهن إلا مقبوضاً»[1]

---

(١) هي موثقة محمد بن قيس كما في التهذيب ٢: ١٦٦.

حيث القصد هو الاطمئنان، وقد يصدق القبض بقبض سند الرهانة، وقد يشكل حيث الكتابة حاصلة قبل، ورهان مقبوضة هي بديلة عن الشهادة، ولا تفيد كتابة بعد كتابة، ولكن:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ حيث القصد من رهان مقبوضة هو الاطمئنان، فلا رهان عند الاطمئنان، وتكفي كتابة الدين عما بعد الموت، فلا تعني الكتابة والشهادة، ورهان مقبوضة بديلها، إلّا الاطمئنان، قضية واجب الحفاظ على الأموال على أية حال، ولا تسقط الكتابة عند الأمان حيث يقسطه الموت والكتابة تثبته، والشهادة أثبت، وليس الأمن مما ينوب عن كتابة وشهادة، حيث لا يؤمن بدونهما الارتياب بنسيان أو تشكك في قدر الدين أو أجله.

ثم ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إبقاء الأمانة عنده عند الاطمئنان، أم والتصرف فيها، حيث الأمانة تؤدّى عند الطلب ككل، وهي تؤدى عند الاطمئنان في الدين.

ثم وفي وجه آخر يُعنى مع الأول ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ في التداين «فلا شهادة ولا رهان مقبوضة» بل ولا كتابة إلّا حفاظاً على الحق بعد موت من عليه الحق، وقد تكفي الكتابة عنده، ولكنه ضعيف لا حجة فيه حيث الأمن ليس سياجاً على الارتياب.

﴿فَإِنْ أَمِنَ . . . فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ وهو المدين ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ وهو الدين ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فلا ينكره أو ينقص منه.

إذاً فالأمان - في حقل الدين - من أيٍّ كان، ينسخ وجوب الكتابة والإملال والشهادة والرهان المقبوضة.

وقد يربو الأمان كل هذه الوثائق، فهي أوثق منها كلها، ويبقى الأمان

بعد موت من عليه الحق وتكفي عنه كتابةٌ ما في هذا البين، تكون وثيقة تثبته لدى الوارث.

ذلك! فتأويل آية الدين عن ظاهر الوجوب المؤكد إلى الرجحان شَينٌ، حيث ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ تبين موقف الوجوب وحكمته، والأصل الواجب هو الحفاظ على الأموال بأية وسيلة مشروعة عاقلة، وليس من المشروع اشتراط التصرف في رهان مقبوضة اللّهم إلّا أن يسمح فيه صاحبه دون مشارطة فإنها رباً لمكان الزيادة على الدين فيه.

إذاً فلا دور للرهن المتعود بيننا شرعياً، أن تُقرض مالاً وتأخذ بديله رهناً، اللّهم إلّا إذا انحصر الاطمئنان بالرهان، ثم لا يجوز التصرف فيه بمشارطة، إلّا بإذن بدائي من صاحبه، ثم لا يجوز إبقاء الرهان عنده حين يأمن كأصل، أم يأمن بوثاق أخرى.

ثم ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ هنا قد تشهد يوم سقوط الشهادة بالأمن ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ حيث القلب هو الآمر الناهي بالنسبة لكل فعل جانحي أم جارحي، وكتمان الشهادة بالقال صادر عن كتمانها بالقلب، فإنما الآثم هو القلب وليس اللسان إلّا آلة إذاعة عما في القلب، إذا ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ حين يقلب الحق إلى الباطل.

مسائل عدة حول ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾:

١ - لا دور لرهان مقبوضة كأصل لأنها مختصة بأصحابها، فلا يكلفون بإقباضها إلّا عند حاجتهم إلى ديون غير مأمونة، فحين تنوب عنها وثائق أخرى ومستندات أحرى فلماذا - إذاً - رهان مقبوضة.

٢ - إذا اختص الأمان بالرهان، أم لم يرض الدائن إلّا بها، فلا يحل - إذاً - أن يتصرف فيها إلّا بإذن صاحبها، شرط ألّا يشارطه في أصل الدين، وألّا يتبناه فيه، فإنه من أبرز مصاديق الربا.

ثم ولا تختص الرهان بفقد الكاتب سفراً، بل تعم فقد الأمان مهما حضرت كتابة وشهادة في سفراً وحضر، فإن الرهان هي آمن الأمان، ولا سيما في هذا الزمان الكلب الذي لا تفيد فيه كتابة الدين وشهادته، وقد يتكلف الدائن صرف ردح بعيد من الزمان وقدر من المال قد يربوا أصل الدين ثم ولمّا يحصل على حقه إذا ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٞ﴾ هي الأصل في الأمان، ولكنها تكتب ويشهد عليها حفاظاً على الحقين، وإزالة للارتياب من البين.

٣ - شرط القبض في الرهان يخرج الأموال المشاعة حيث لا يمكن قبضها، اللّهم إلّا بقبض مستنداتها، وهي لا تنوب عن أصل الرهان، وتكفي كتابة أصل الدين عن سند الرهان.

٤ - إذا أمن الدائن مديونه لم يحل له إبقاء الرهان عنده، اللّهم إلّا إذا رضي به صاحبه دون مشارطة، كما لا يحل أخذ عند الأمان، فإنه محدود بغير حالة الأمان.

٥ - يجوز للراهن التصرف في رهنه ما لم يخرجه عن قبض المرتهن، أو يسقطه عما يقابل دينه، لأنه - بعد - ماله إذ لم يبعه، ولم يخرجه عن ملكه، فإنما هو وثيقة، تجوز فيها التصرفات غير المنافية لكونها وثيقة.

٦ - لا يجوز للمرتهن التصرف في الرهن إلّا بإذن الراهن، دون أن يكون شرطاً يقابل الدين، ويجوز له كل تصرف فيه للحفاظ عليه كسقي الدابة وعلفها، وله حق النفقة من الراهن، ولا تجوز له التصرفات غير المغيرة له إلّا بإذنه لأنه ملكه ولم ينتقل إلى المرتهن حتى يعامله كأنه ملكه، لا انتقال العين ولا انتقال المنفعة، وإنما هو أمانة مضمونة وثيقة لدينه.

٧ - يجوز للمرتهن اشتراط بيع الرهن عند حلول أجل الدين، بل قد

يجب استيفاء لحقه، حيث المنع مانع له من الانتفاع من البديل كالأصيل، فلا مال له رغم أن له المال.

هذا - ولكنه - يبيعه أميناً، أو يمتلكه أميناً.

٨ - إذا لم يشترط البيع عند حلول الأجل، تطلّب حقه عنده، فإن أجّل أو ماطل جاز له بيعه، أو رهنه عند ثالث للحصول على حقه، شرط الحفاظ على حق الراهن.

٩ - لا يجوز للراهن بيع رهنه قبل رد الدين، أم إجازة المرتهن، أو ائتمانه الراهن، حيث الرهن في هذه الثلاثة وثيقة لازمة عند المرتهن، له حق إبقائه عنده حتى يستوفي دينه عيناً أو ائتماناً.

١٠ - لأن الرهن أمانة عند المرتهن فلا يضمن بتلف أو نقص إلّا بتقصير أو تفريط، إذ ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[١] وكما في صحيح جميل «عن رجل رهن عند رجل رهنا فضاع الرهن فهو من مال الراهن ويرتجع المرتهن عليه بماله»[٢].

ولكن الآية قد لا تشمل إلّا الأمانة المجردة دون الرهان الوثيقة، فالمرتهن محسن إلى نفسه في الرهان، دون الراهن، والصحيح معارَض بالمثل[٣] فالحكم هو الضمان على الأشبه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩١.

(٢) الفقيه باب الرهن تحت الرقم (١).

(٣) هنا روايات متعارضة في الضمان وعدمه وكلها مطلقة تشمل صورة التفريط وسواها، مهما كان مورد البعض منها التفريط دون تقييد للضمان بالتفريط.
فمن الأخبار الثانية خبر محمد بن قيس عن الصادق عن الباقر عليهما السلام: قضى أمير المؤمنين عليه السلام في الرهن إذا كان أكثر من مال المرتهن فهلك أن يؤدي الفضل إلى صاحب الرهن وإن كان أقل من ماله فهلك الرهن أدّى إلى صاحبه فضل ماله وإن كان الرهن يسوى ما رهنه فليس عليه شيء (الفقيه باب الرهن تحت رقم ٢١) ومثله موثق ابن بكر عن الصادق عليه السلام (الكافي ٥: ٢٣٤ والتهذيب ٢: ١٦٤).

١١ - نكرر هنا شرط القبض في الرهان وهو نصُّ الآية، والموثق على ضوئها متناً، وحسب الرواة سنداً أن «لا رهن إلا مقبوضاً»[١] ولا وجه فيها للتقية لأنها توافق نصّ الآية، مهما وافقت أيضاً فتوى المعظم من العامة[٢].

١٢ - ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ حسب النص مختصة بالدين، فلا رهان - إذاً - للعين، وإنما الشهادة عند عدم الأمن في ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

١٣ - عقد الرهن لازم من قبل الراهن حتى أداء دينه، وجائز من قبل المرتهن إذ ينحل إذ ينحل إذا أمن الراهن.

ذلك هو الحكم الأمين المتين في حقل الحفاظ على الأموال، وهكذا تنكشف حكمة هذه الإجراءات كلها، ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع ودقة أهدافه وصحة إجراءاته، فإنها - ككلّ - الصحة والدقة والثقة والطمأنينة، دونما تساهل في أمر الدّين كما لا يتساهل في أمر الدِّين، فإنه رأس الزاوية في مخمسة النواميس: ديناً وعقلاً وعِرضاً ونفساً ومالاً، والشرائع الإلهية تتبنّى الحفاظ عليها على درجاتها في كافة الأحكام.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾:

هذه تلحيقة حقيقيةٌ بالذكر بعد ما ذكر طوال السورة من براهين الأصول الثلاثة وفروع كالصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والحيض

(١) هي موثقة عن أبي جعفر عليه السلام كما في قلائد الدرر ٢: ٢٨٥.

(٢) ومن الغريب ذهاب حملة من أصحابنا كالشيخ في الخلاف وابن إدريس ومال إليه في المختلف والمسالك، ومن العامة مالك، إلى عدم اشتراط القبض، وهم محجوجون بنص الكتاب والسُّنة.

والطلاق والعدة والصداق والخلع والإيلاء والبيع والربا والرضاع والإنفاق والمداينة أمّاهية من أحكام فرعية تحلّق على أعمال الجوانح والجوارح، وهنا ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تحلق مِلكه ومُلكه تعالى على كل الكائنات عن بكرتها، ظاهرها وخافيها بكل ما فيها، ثم الأنفس المكلفة بما كلفت ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من صالح وطالح ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ منها ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وقد تختص المحاسبة بالسيئات: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾[1] كما وأن ﴿فَيَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾ دليل الاختصاص حيث الحسنات لا غفر فيها ولا عذاب.

ولكن المحاسبة هنا تعم العسير واليسير حيث الطالحات لا تنحصر في العسير: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)﴾[2].

و﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الطالحات قد تعم سوء العقيدة والنية والعزيمة وسائر الطوية، وإبدائها يعم التحدث عنها والعملية الناتجة عنها، فهو إذاً ثالوث السوء، كما خير ما في أنفسكم أيضاً ثلاثة، ولكن «في» قد تلمح بأن «ما» هي من الملكات النفسية دون الخواطر الطارئة من النيات السيئة التي لا يخلو منها إلّا القليل.

فهنا ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ تعني - على القدر المعلوم - النية المرتكنة الطالحة غير البادية، فـ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] وليست النية عملاً وليس ترك النية السيئة في وسع الإنسان فـ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

(١) سورة الطلاق، الآية: ٨.
(٢) سورة الانشقاق، الآيات: ٧ - ٩.
(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.

وُسْعَهَا﴾(١) (٢) ثم البادية بالتحدث عنها وهي عوان بين النية والعملية، محسوبة مما كنتم تعملون، ثم البادية بواقع المنوي، وهو أصدق مصاديق ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والأخيران هما بين ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ حسب المكفرات المقررة وسواها، وقد يروى عن رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»(٣).

ذلك! وأما السيئة العقيدية فهي داخلة في نطاق الكفر، وفيها ما يناسبها من عقوبة، فمهما لم تشملها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد تشملها الآيات المندِّدة بسوء العقيدة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فـ ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ خيراً وشراً هو المصدر الأصيل لما تبدونه، وإنما استثني من العذاب نية الشر غير البادية، ثم المثوبة والعقوبة تعمان كل ما في أنفسكم، والعمل المفروض على القلب هو الإقرار والمعرفة كأصل «وهو

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٧٤ - أخرج أحمد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] إلى آخرها، فيه أخرج عبد بن حميد والترمذي عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] قلنا: أيحدث أحدنا نفسه فيحاسب به لا ندري ما يغفر منه ولا ما لا يغفر منه فنزلت هذه الآية بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] أقول: «نسختها» تعني قيدتها بغير حديث النفس والنية وكما قيد مثل الآية ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

(٣) المصدر أخرج سفيان وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:...

رأس الإيمان»[١] «وهو أمير الجوارح الذي به يعقل ويفهم وتصدر عن أمره ورأيه»[٢].

فالآية - إذاً - من أشمل الآيات تجويزاً للعقوبة على سيئات الأنفس، مهما خرجت الطارئات أم لم تخرج، ثم الآيات الحاصرة للعقوبة ببادية السيئات، والسيئات العقيدية، تخرج النيات السيئة مهما كانت ركينة، ولكنها قد تطوى بطيات السيئات العقيدية، حيث المؤمن لا تركن في نفسه النية السيئة.

وقد تعني ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إخفاء فيما يبرز عن الآخرين أم إبداءً، وكلاهما عملٌ لما في الأنفس.

فالعبارة الصالحة للمحتمل السالف «إن تبدوا أم لم تبدوا» حيث الإخفاء ليس إلّا لكائن في النفس، فلا يعني إخفاءه إلا إخفاءه في العمل.

هذا! وكما أن ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هي ضابطة ثابتة، فليست لتقيد هذه الآية بغير النيات السيئة، فإن التكليف بما فوق الوسع خارج عن نطاق العدل، فهي ضابطة تحلق على كل الأحوال والأعمال لكافة المكلفين.

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٠١ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: فأما ما فرض الله على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله من نبي أو كتاب فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النّحل: ١٠٦] وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] وقال: «الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» وقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ . . .﴾ [البَقَرَة: ٢٧١] فذلك ما فرض الله عزّ وجلّ على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو رأس الإيمان.

(٢) المصدر فيمن لا يحضره الفقيه قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية «وفرض على القلب وهو أمير الجوارح . . .».

وقد يكون المعنيان معنيَّين، ثم المحاسبة الأخروية تقيد بغير النيات، مهما يؤاخذ الناوي بها في الأولى بمختلف المؤاخذات، كالأمراض وأشباهها، وكقسم من الختم على القلوب كُدرة ككدرتها[١].

وأخيراً نقول: المحاسبة هي أعم من المؤاخذة، ولا ريب أن حساب تارك الخواطر السيئة يختلف عن حساب المبتلى بها، سواءً في الأخرى والأولى، فالله يحاسب الآخرين بسيئاتهم أكثر من الأولين، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[٢].

فالخواطر الحسنة تحسن الحساب مهما لم يُعمل بها، والخواطر السيئة فيها سوء الحساب مهما لم يعاقب بها، إذاً ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ تعم كل درجات الغفر دون فوضى جزاف، وإنما هو بحساب، كما ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعم كل دركات العذاب في غير النيات السيئة، ولا سيما غير المرتكنة في النفوس.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾:

هذه والتي تليها تمثلان تلخيصاً وافياً لأعظم قطاعات السورة، ختاماً

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٧٥ - أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أمية أنها سألت عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: هذه معاتبة الله العبد فيما يصيبه من الحمّى والنكبة حتى البضاعة يضعها في يد قميصه فيفقدها فيفزع لها ثم يجدها في ضبينه حتى أن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير.

وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم به».

(٢) سورة الرعد، الآية: ٨.

تاماً يليق تلحيقاً لتفاصيل السورة برمتها، ويا لها رباطاً أليفاً بما بدأت ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ...﴾[1] حيث الأولى تحمل تفاصيل ذلك الغيب كأجمل إجمال، وفي السورة له تفاصيل مبسّطة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ من وحي القرآن والسُّنة، بعدما كان مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله، وذلك الإيمان لم يكن بعد نزول القرآن بفترة قريبة أم بعيدة كما في غيره من المؤمنين، فإنما هو إيمان حال نزول القرآن وكما كان ينتظره قبله.

ومن ثم هو إيمان مباشر كل كيانه عبداً ورسولاً دون وسيط، وليس وسيط الوحي في جلّه - ودون كله - وسيطَ الإيمان، إذاً فهو قمة الإيمان، ورأس الزاوية في كل درجات الإيمان، لا فحسب بالنسبة لسائر المؤمنين بهذه الرسالة، بل وبالنسبة لكل المرسلين فإنه «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» و«أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» ! وهنا «من ربه» تلمح إلى هذه الحالة أن ربُّه رباه بربوبية خاصة لابقة لائقة لنزول ذلك الوحي العظيم، ثم وربّه رباه ثانية بما أنزله إليه من وحي الرسالة الختمية فـ ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[2] - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[3].

ذلك هو الإيمان الرئيسي لرأس الزاوية الرسالية، وعلى ضوئه وبدعوته ودعايته.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾:

فالإيمان بالله - وهو قاعدة التصور الإيماني - وقاعدة كل الحركات

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

الإيمانية - يعم أصل الألوهية ووحدانيتها، على ضوء الفطرة والعقلية السليمة أصالة وإجمالاً، وعلى ضوء الوحي تكملة وتفصيلاً.

ثم الإيمان بالله حقه يتطلب الإيمان بملائكة الله كحملة لوحي التكوين والتشريع، فليس الله ليوحي إلى الكل دون وسيط.

والإيمان بملائكته الصادرين عنه يستلزم الإيمان بعصمتهم وأمانتهم وأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١).

والإيمان بملائكته طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مصدر الإيمان، حيث يخرج به الإنسان عن نطاق الحواس الحيوانية إلى ما وراءها من غيب الربوبية والوحي ووسائطه الملائكية، فحين يلبي الإنسان - بفطرة وعقلية - دعوة الغيب بإيمان، إذاً يُؤمَن عن إصابته بالخلخلة والاضطراب، تحرُّراً عن محدود الشهود باللّامحدود من الغيب.

ثم الإيمان بالملائكة يتطلب الإيمان بكتب الوحي التي تحمله الرسل الملائكية، وعلى أضواء «كتبه» الإيمان برسله، حيث الوحي هو الدليل على رسالتهم، وليست سائر الآيات الرسالية إلّا براهين بيّنة على صدقهم في ادعاء الوحي، فكتب الوحي متقدمة على رسل الوحي لأنها هي رسالتهم والدليل على محتدهم الرسالي.

ومن المقالات الإيمانية الصالحة بين رعيل الإيمان ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إيماناً ببعض وتكذيباً ببعض، أم تفرقة تنافي وحدة الرسالة من المرسل الواحد العليم الحكيم.

ذلك! مهما كان ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهم درجات عندنا

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

كما عند الله، ولكنه لا يتطلب تفريقاً بينهم، أم تفرقة لهم فيما يحملون من رسالات الله، فهم - ككل - حملة وحي الله كما أوحى، مهما اختلفت مادة الوحي وشاكلته بينهم، وكما تختلف لكل واحد منهم حسب الحكمة الربانية لصالح المرسل إليهم.

قالوا ﴿لَا نُفَرِّقُ... وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ما أنزل إليه من ربه ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله وأطعنا الرسول، وعلّ الفارق بين ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ المحذوف عنها ﴿وَقَالُواْ﴾ وبين ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا...﴾ أن الأولى حكاية لسان الحال وإن لم يخل عنه قال، والثانية هي لسان القال الحاكي عن لسان الحال.

وقالوا: نرجو ونطلب وننتظر ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أن تغفر ذنوبنا الطارئة، وأن تغفر ما يهجم علينا منها حتى لا نقترفها ﴿وَإِلَيْكَ﴾ لا سواك ﴿الْمَصِيرُ﴾ فحسّن لنا ربنا المسير إلى ذلك المصير.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ توحي بأن سلب التكليف فوق الوسع هو قضية الألوهية العادلة الحكيمة، إذاً فليس حدَثاً بعد ردح من التكليف قضية التماس وسؤال من المؤمنين ألّا يكلفهم الله فوق وسعهم فأجاب، بل هي ضابطة ثابتة على مدار زمن التكليف في كافة الشرائع الإلهية عن بكرتها.

وتراها هي من قالة المؤمنين؟ ولا يصدرون في الأحكام إلّا عن الرسول! أو من قالة الرسول؟ ولا يصدر إلّا عن الله! فهي من كلام الله مهما قاله الرسول والمؤمنون.

فـ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] - ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢، وسورة الأعراف، الآية: ٤٢، وسورة المؤمنون، الآية: ٦٢.

آيات خمس مصوغة بصيغة واحدة حكماً ربانياً يحلّق على كل نفس في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، دون اختصاص بمؤمني هذه الرسالة.

ثم الوسع هو ما دون الحرج والعسر، أن يسع الإنسان دون تضيُّق ولا تحرُّج أن يحقق التكليف، دون أن يأخذ كل طاقاته دون إبقاء.

والوسع يعم العقلي والمعرفي والعملي، فردياً أو جماعياً، مهما كان بمقدمات مختارة قصّر فيها فخرج عن الوسع حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.

و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ كتكليف بدائي ﴿نَفْسًا﴾ على أية حال ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وأما الذي ترك التكليف الموسع، فتضيّق بذلك، فهو مؤاخذ بالترك الأوّل والتضيّق التالي الذي خلّفه وانتج ترك الواجب، كمن واصل في العصيان باختياره السيئ حتى ران على قلبه ما كان يكسب ثم ختم على قلبه ومات على الكفر، فهو معاقب بذلك الكفر مهما كان تركه عسيراً أم مستحيلاً، لأنه من مخلفات ترك اليسير من التكليف حتى أبتلي بالعسير.

وأما المستضعفون ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴿٩٩﴾﴾[1] حيث لا يستطيعون الاهتداء وهم قاصرون، وأما المقصرون منهم في البداية ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ إذا كان تقصيراً خفيفاً طفيفاً يصفح عنه عند ذي الصفح.

فلا يشترط الوسع - كأصل - إلّا في أصل التكليف، وأما العسر أو الحرج الناتجان عن سوء الاختيار فلا يرفعان التكليف عن أصله.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ في وسعها ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ في وسعها وهذه هي

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

فردية التبعة، ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة به، ف﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)].

ولماذا ﴿كَسَبَتْ﴾ في الصالحات كأمر يسير، ثم ﴿اكْتَسَبَتْ﴾ في الطالحات كأمر عسير، معاكسة في واقع العسير واليسير، حيث الصالحات عسيرة والطالحات يسيرة، فهنا ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾ كما في نظائرها:

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾[(٢)] - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[(٣)]؟.

هذه المعاكسة ليست إلّا في قياس الحالة الحاضرة الظاهرة في الصالحات والطالحات، وأما الباطنة فلا معاكسة فيها، حيث الصالحات هي يسيرة المصير مهما كانت عسيرة المسير، والطالحات هي عسيرة المصير مهما كانت يسيرة المسير.

بل والطالحات هي حمل على النفس في الأولى كما في الأخرى، في الأولى لأنها تخلُّفة عارمة عن قضية الفطرة والعقلية السليمة والشرعة الإلهية، وأنها تخلّف هنا معيشة ضنكاً:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[(٤)]، وكما في الأخرى ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾[(٥)].

وأما الصالحات، فهي رغم التكلف فيها فإنها يسيرة في ذلك المثلث و﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٦)] معنية ذاتية: فطرة وعقلية وشرعية، وأخرى عرضية

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة النور، الآية: ١١.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.
(٤) سورة طه، الآية: ١٢.
(٥) سورة طه، الآية: ١٠١.
(٦) سورة الشرح، الآية: ٦.

هنا حيث تصلح الحياة الدنيا، وثالثة في الأخرى خلوداً في رحمات الله ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١)!

وإذا كانت التبعة فردية، دون أن ينفع هنالك مال ولا بنون. إلّا من أتى الله بقلب سليم، فحق للمؤمنين - إذاً - أن ينطلق من قلوبهم دعاء خافق واجف، ألا وهو:

سلبيات ثلاث وإيجابيات ثلاث تُصلح حالهم وكل بالهم في حالهم ومآلهم، تقديماً لسلبيات ثلاث:

١ - ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ . . .﴾:

والمؤاخذة السلبية هنا تعم الأولى والأخرى، في خطإ أو نسيان، وترى الإنسان مؤاخذ بالخطإ والنسيان؟ وهما خارجان عن الوسع، فإنما المعصوم بعصمة الله هو الذي لا ينسى أمراً ولا يخطأ فيه، ثم مَن دونه قد ينسى أو يخطأ! فما هو دور ذلك الدعاء بعد ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾؟!

الخطأ والنسيان هما اثنان، ثانيهما ما هما من حصائل التساهُل والتغافل تقصيراً، والأول قصور والإيمان قيد الفتك على أية حال، فعلى المؤمن النّبهة الدائبة لكيلا يتورَّط في ورطات الخطإ والنسيان، لذلك ترى العارف بقذارة - في ثوبه أو بدنه - ممنوعةٍ في الصلاة، إذا نسيها وصلى معها، كانت الإعادة عليه واجبة، مهما لم يؤاخذ بنسيانه كذنبٍ، فإنما يؤاخذ بالإعادة، وكذلك في باب الأخطاء كما نرى مؤاخذات فيها دون العقوبة، أم ومعها إذا تجاوز طورها في حقل المعرفة والعبودية.

فالخطأ والنسيان عن قصور ذاتي لا مؤاخذة فيهما إذ ليسا من العصيان،

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

وهما عن تقصير بتناسٍ وتساهلٍ يخلِّفان الخطأ والنسيان، يُسأل فيهما عدم المؤاخذة هنا.

ولكنهما في تقصير معَّمد أولاً وأخيراً عصيان لا مرد له إلّا بتوبة أم شفاعة أماهية من مكفرات، فإنهما يحلقان على كل عصيان عقيدي أو عملي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[2].

وليس المؤمنون يتبجحون بالخطيئة، إعراضاً عن أمره تعالى ونهيه ابتداء، فإنما هو الخطأ والنسيان اللذان يحكمان الإنسان حين ينتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه ولا حِوَل عنه، أو الطوارئ المقصرة غير العامدة.

وقد تعم ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ التقصيرين فيهما، وهذا استغفار عنهما، و﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إلّا أن بينهما فارقاً هو عدم المؤاخذة في التقصير الأوّل كضابطة، ثم عدمها في الثاني شرط التوبة الصالحة، ورفع الخطأ والنسيان كما استكرهوا عليه في متواتر الأثر[3] يعنيهما في التقصير الأوّل.

وقد تعني ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ مثلث الخطإ والنسيان، مهما كانت درجات، فالقاصر منهما يسأل عدم المؤاخذة فيهما تخضعاً وتأدباً كما في ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾[4] والمقصر المتعمد يدعو فيه دعاء التوبة، والعوان بينهما يسأل ترك المؤاخذة فيه كضابطة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٧٦ عن النبي ﷺ: «قال: إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه»، رواه عنه أم الدرداء وابن عباس وأبو ذر وثوبان وابن عمر وعقبة بن عامر وأبو بكر والحسن والشعبي.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١١.

وترى ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ خاصة في إجابتها بأمة الإسلام؟ علّها تختص في الخطإ والنسيان العوان، إذ يجوز فيهما المؤاخذة، فهي - إذاً - من الإصر الذي كان على بني إسرائيل(١).

٢ - ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا. . .﴾:

والإصر هو الحِمل الثقيل، وقد يشمل هنا التكليف الإصر والعذاب الإصر كما كان في بني إسرائيل، فقد عذّبوا بما حولوا قردة خاسئين وما أشبه، كما وحرم عليهم طيبات أحلت لهم جزاء بما عصوا وكانوا يعتدون: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ. . .﴾(٢).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾(٣) وكتب عليهم أن اقتلوا أنفسكم جزاء عما خضعوا لعجل السامري، وحرم عليهم السبت.

وليس من التكليف الإصر عليهم ما لا يطاق وهو كرّ على ما فرّ منه من قذارة كما يروي الحديث المختلَق «إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم البول

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٠٦ عن الاحتجاج للطبرسي في الآية عن النبي ﷺ في حديث . . . فزدني قال تعالى: سل: قال ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله عزّ وجلّ: «لست أو آخذ منك بالنسيان والخطإ لكرامتك عليّ وكانت الأمم السالفة إذا نسوا ما ذكروا به فتحت عليهم أبواب العذاب وقد رفعت ذلك عن أمتك، وكانت الأمم السالفة إذا أخطأوا أخذوا بالخطإ وعوقبوا عليه وقد رفعت ذلك عن أمتك لكرامتك علي . . .».

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٦٠، ١٦١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

قرضوا بالمقاريض»[(١)] وهذا يقتضي - دوماً - عند البول إخراج الدم من موضعه وما أصابه، وألّا يبقى آلة البول عندهم حيث المقاريض تقضي عليها عن بكرتها.

ولقد وصُف الرسول ﷺ بواضع الإصر والأغلال عن هذه الأمة المرحومة كما في الأعراف:

﴿... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾[(٢)].

وكما قال ﷺ: بعثت بالشريعة السهلة السمحاء.

٣ - ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ...﴾:

وترى كيف يُدعى ربنا ألّا يحملنا ما لا طاقة لنا به؟ والتكليف بما لا

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٧٧ عن عبد الرحمن بن حسنة أن النبي ﷺ قال: ... وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت دخلت عليّ امرأة من اليهود فقالت: إنّ عذاب القبر من البول، قلت: كذبت قالت: بلى، قالت إنه ليقرض منه الجلد والثوب وأخبرت رسول الله ﷺ فقالت: صدقت.

وفي نور الثقلين ١: ٣٠٦ عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي ﷺ - في تتمة الحديث السابق - فقال النبي ﷺ: «إذا أعطيتني ذلك فزدني فقال الله تعالى له: سل، قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] يعني بالإصر الشدائد التي كانت على من قبلنا فأجابه الله إلى ذلك فقال تبارك اسمه قد رفعت عن أمتك الآصار التي كانت على الأمم السالفة، كنت لا أقبل صلواتهم إلّا في بقاع معلومة من الأرض اخترتها لهم وإن بعدت وقد جعلت الأرض كلها لأمتك مسجداً وطهوراً، فهذه من الآصار التي كانت على الأمم قبلك فرفعتها عن أمتك، وكانت الأمة السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة قرّضوه من أجسادهم وقد جعلت الماء لأمتك طهوراً فهذا من الآصار التي كانت عليهم فرفعتها عن أمتك...».

أقول: قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفُرقان: ٤٨] وقول الله أحرى بالقبول من هذه القيلة المختلقة على الرسول ﷺ فقد أنزل الله من السماء ماء - منذ أنزل - طهوراً دون اختصاص بأمة دون أخرى!.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

يطاق خلاف الرحمة، وقد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1] دون تمييز أمة عن أمة، لأنهم كلهم عباده، المستحقون رحمته!.

قد تعني هذه الدعاء ما تعنيه ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ تثبيتاً للثابت في حق الله، تذللاً أمام الله، وكأننا لا نستحق الحكم بالحق.

أم تعني الطاقة دون الحرج، فـ ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ هي الشاقة من التكاليف، التي كانت على سالف الأمم؟ إلّا أن نفس الجنس المستغرِق لكل طاقة لا يناسبه!.

أم إنها الطاقة في تحمل العذاب يوم الدنيا كما فعل بالذين من قبلنا؟ وعلَّها هية، أو أن الثلاثة كلها معنيّة مهما كانت درجات.

والطاقة من الطَّوق، وهو هنا طوق التكليف أو العذاب المتحمّل، فالطاقة هي الحالة المتحمّلة، فـ ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ هي غير المتحمّلة مهما كانت مقدورة، حيث تستأصل كل القدرات، فهي والحرج متماثلان، وكما أنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2] كذلك ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ بفارق أن الثانية تعم العذاب هنا كما التكليف.

ذلك - وإلى إيجابيات ثلاث في الدعاء، هي ختام السورة.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

وعلّ الفارق بين هذه الثلاثة أن العفو هو عن الذنب ألّا يعذّب به، وقد يعفى عن ذنب هكذا وهو باق بصورته يوم يقوم الأشهاد، وهو عذاب نفسي بعد السماح عن سائر العذاب.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

إذاً فـ ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ غفراً شاملاً لذنوبنا، أن تستر عليها بعد ما عفوت عنها.

ثم ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ درجة ثالثة بعدهما، ألّا يكتفى بالعفو والغفر، بل ويرحمنا بمزيد من فضله وكما قال الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ في وجه من الوجوه المعنية منها.

كل ذلك نتطلبه منك ربنا لأنك ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ لا سواك، فلسنا لنسأل إلّا إياك، ولا أن سؤلنا يختص بالأخرى، بل وفي الأولى:

﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نصرة في الدارين، رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

ذلك وقد ينطبق على هذه حديث رفع التسعة، المروي عن النبي ﷺ: «رفع عن أمتي تسعة أشياء الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يطيقون وما لا يعلمون وما اضطروا إليه والحسد والطيرة والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لا ينطق بشفه»[(١)].

فالأوّلان مستفادان من الأولين ﴿إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ والمرفوع فيهما هو المؤاخذة كما في نص الآية، لا رفع كلما يتعلق بهما من تكاليف إيجابية أو سلبية، أو أحكام تكليفية أو وضعية.

والثالث من ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا﴾ وليس فقط رفع المؤاخذة، بل هو كل تحميل أوّله تحميل التكليف، ثم الستة الباقية من ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾ فإنها كلها من الإصر، اللّهم إلّا ما فيه تقصير ولا سيما الكثير، كالمقصر عن تعلم ما يتوجب عليه من أحكام، والمضطر إلى محظور باختيار أو

---

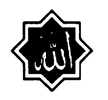
(١) نور الثقلين ١: ٢٥٢ في التوحيد بإسناده إلى حريز بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ...

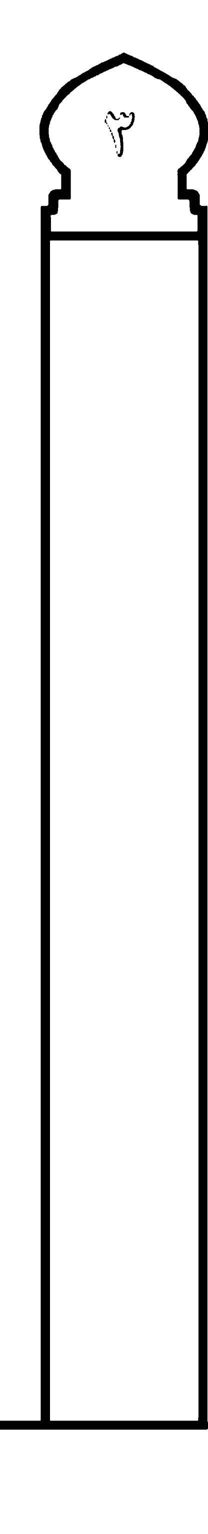
تساهل، والحاسد إذا حسد، أمّا ذا مما له فيه الاختيار، اللّهم إلّا ما تغلَّب فيه الاضطرار.

فالجهل التجاهل، والنسيان التناسي، والخطأ التساهي، والاضطرار بالاختيار، والتحاسد التباغض وما أشبه، كل هذه مؤاخذ عنها ومعاقب بها، وإنما المؤاخذة المسلوبة وهي المعاقبة المعفوة هي في غير العمد والاختيار، وكما رفع كل إصر وما لا يطاق، حيث الشرعة الإسلامية سهلة سمحاء.

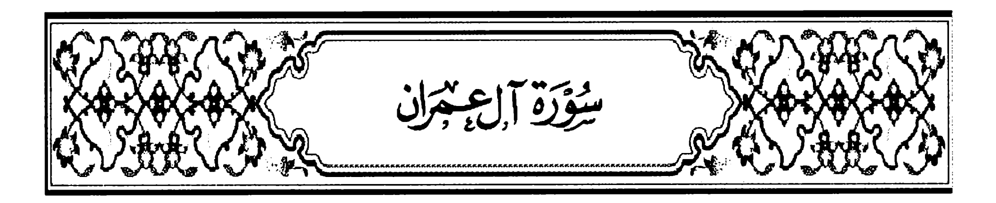
وكما رفعت المؤاخذة عما رفعت عنه أصالة، كذلك فيما يفرضه المكلف على نفسه ناسياً أو خاطئاً بنذر أو عهد أو يمين، ومثله كل إصر وغير مطاق فكذلك الأمر، فمن يفرض على نفسه - بأي فارض من الثلاثة - أنه إذا نسي أو أخطأ فعليه كذا وكذا، فلا عليه أن يتركه، أو فرض على نفسه ما يجهل خلفيته الصعبة الملتوية، أو حاضره وغائبه، أو هو إصر أم ما لا يطاق، فلا عليه أن يتركه، حيث لا ينعقد أيٌّ من الثلاثة في غير ما يصح فرضه عليه بأصل الشرع، فكل عسر وحرج وإصر وما لا يطاق، وكل جهل ونسيان وما أشبه، مرفوع عن أمة الإسلام كما رفع الله، محدداً بحدود الكتاب والسُّنة.

تمت سورة البقرة بتوفيق الله الملك العلام، اللّهم وفقني لتكميل الفرقان بحق من أنزلته عليه.





سُورَة آل عِمْرَان



مدنية وآياتها مائتان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

سُميت هذه السورة بـ «آل عمران» لأنهم من أبرز السمات المستعرَضة فيها بين عرض الرُسل والرسالات في مختلف المجالات المعرقلة عجلتها، المكدَّرة أجواءها.

تستحضرُ هذه السورة صورةً وضيئةً من ردحٍ زمني مدني للحياة الإسلامية قويت فيها شوكة المسلمين، وبطبيعة الحال عارضتها الشائكة ضدّ الإسلامية من ثالوث الإشراك والتهوّد والتنصر، فهي تحمل عرضاً للشبكات والاشتباكات والملابسات والعقبات التي أحاطت بهذه الحياة لحدٍّ كأن قارئيها يعيشون الحياة نفسها بحذافيرها وأظافيرها.

وقضية الهيمنة القرآنية - الكاملة - هي مواجهة كلّ عرقلة وشائكة ليقود المسلمين في خطواتهم بين كلِّ الأشواك والمصائد والأحابيل والعقابيل.

ففي عرضِ الحالة الحاضرة لنزول القرآن في عَهْدَيْهِ وما عرضتها من معارضات ضدَّها، وحلول ربانية لمسكتها، عرضٌ لكلّ الحلول بمعارضاتها في كلِّ مستقبل للحياة الإسلامية، حيث الدعوة القرآنية خالدة على مرِّ الزمن بمدار الضمانات الوقائية للكتلة المسلمة ما تمسكوا بها.

وقد تكون هذه السورة نازلةً كترتيبها الآن، حيث الرباط الوطيد بين آياتها يُنادي بذلك الواقع، إضافةً إلى كون الأصل في آي السور كلِّها نزولها كما رُتبت إلَّا بدليل يدل على خلافه، ولم يرد في الأثر أن آيات عمران نزلت في غير جوِّها أم غير ما هي الآن من ترتيبها، فقد توافق وتجاوب تنزيلُها وتأليفُها.

﴿الٓمٓ ۝١﴾:

هي كما في البقرة وعديدة سواها من المفتتحات بها وبأَضْرابها، هي من مفاتيح كنوز القرآن، فصَّلنا طرفاً طريفاً من فصل القول حولها في البقرة وسواها فلا نُعيد.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾:

تَجِد تفصيل البحث عنها في آية الكرسي هناك فلا نُعيده هنا.

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾:

﴿نَزَّلَ﴾ بالحق ﴿عَلَيۡكَ﴾ بالحق ﴿ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ﴿مُصَدِّقٗا﴾ بالحق ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ بالحق، فهو مخمس من الحق تنزيلاً ومَنزلاً ومُنزلاً وتَصْديقاً ومصدّقاً: مُصاحباً الحق وبسبب الحق، معانٍ عشرة كلها معنية على درجاتها دونما خليط من باطل، ولا زوال لحقه خلاف سائر الحق قبله، فهو الحق المستمر الخالد دونما نسخٍ أو تحويرٍ خلافاً لكلٍّ حق قبله.

والكتاب المُنزَّل هنا هو القرآن المفصَّل النازل نجوماً قضيةَ مختلف الحالات المقتضية والحاجيات.

و﴿مُصَدِّقٗا﴾ حالَ أنها حال للكتاب، كذلك هي حال للرسول المخاطَب في ﴿عَلَيۡكَ﴾ فكما: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾[1] كذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾[2].

فـ ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لا تختص - فقط - بكُتُبِ الوحي، بل وتعمُّ رُسُلَ الوحي بآياتهم الرسولية والرسالية، فكما القرآن يُصدِّق ما بين يديه من كتابات الوحي بآياتها الرسالية، كذلك رسول القرآن مصدِّقاً لما بين يديه من رسل الوحي بآياتهم الرسولية، كما وكلٌّ من الرسول والقرآن يصدقان كلًّا من رُسُل الوحي وكتابات الوحي.

ودور تصديق القرآن لما بين يديه من كتابات الوحي هو واقع التجاوب بين وحيه ووحيها، فلو لم يكن القرآن وحياً لم يكن ليصدّق سائر الوحي لواقع الاختلاف بين وحي السماء ووحي الأرض.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

وكيف ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ دون «ما خلفه»؟ وكل الرسل والكتب هي خلف القرآن ورسوله!، لأن قرآن محمد ومحمد القرآن هما استمراران لما قبلهما من رسول وكتاب، مكمِّلان لهما ومُهَيْمنان عليهما، فليسا هما خلف القرآن ونبيه في الكيان مهما كانا خلفهما في الزمان، فحق التعبير - إذاً - كما هو: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كقارئ لهما وقال ومصدق إياهما، فهما - إذاً - أمامهما في الاتجاه، مهما كان القرآن ورسوله أمامهما في التوجيه.

ثم التصديق لما بين يديه منحصر بما أنزل بوحي الله، منحسر عما سواه لمكان سابق الذِّكر للكتاب، والنبي ليس ليصدق إلّا النبي، ولا كتاب الوحي إلّا مثلَه دون ما يناقضه أم ليس بمحتواه من حيث الوحي، إلّا تصديقاً لصادق الواقع ولكنه ليس تصديقاً رسالياً، و﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا تعني الرسالي والرسولي، فـ ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ رسولاً وكتاباً ليس إلّا خالص الوحي مثله، فإن في تصديق المختلَق تكذيباً لنفسه وتصديقاً للمتضادين!، ولا يعارض تصديقُه لما بين يديه نسخه لقسم من أحكامه حيث النسخ بيان لأمد الحكم السابق وليس تكذيباً لوحيه، ولا يعني تصديقُ القرآن لما بين يديه إلّا تصديقَ وحيه دون تطبيقه المطبَق المطلق، قضيةَ ضرورة النسخ لقسم من الأحكام السالفة حتى في شُرْعة واحدة فضلاً عن شرائع عدة.

وقد بيّن نطاق التصديق في قسم من آيه كـ ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾(١) و﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾(٢) كما والقرآن بيان لما اختلف فيه أهل الكتاب من الكتاب دسّاً وتحريفاً وتجديفاً:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾(٣) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٤.
(٤) سورة النمل، الآية: ٧٦.

وكما يصرح في عشرات من آياته أن أهل الكتاب حرَّفوا من كُتبهم قسماً من جهات أشراعها ومن أهمها البشائر الواردة فيها بحق هذا الرسول ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1] فقد حرّفوا بشائره لفظياً ومعنوياً كما حرفوا منها أحكاماً وقصصاً تحمل أحكاماً أخرى: ﴿... يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾[2] و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ...﴾[3] ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[5].

وقد يعني تكرار التصديق لما بين يديه أنه ليس بِدعاً من الرسل، ولا أن كتابه بِدعٌ من الكتب، تقريباً وتشويقاً لأهل الكتاب أن يصغوا إلى ذلك الجديد الذي هو استمرار للقديم، سلسلة موصولة بين الله وخلقه على مرِّ الزمن الرسالي.

ذلك، ولكي يقارنوا بين الكتابين فيعرفوا أن القرآن وحي - وبأحرى مما عندهم - أو ينظروا إلى البشارات المودوعة في كتبهم بحق هذه الرسالة الأخيرة، متحللين عن كلِّ تحريف وتجديف.

ذلك ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بوجه يعم كافة الرسل بكتبهم، ثم ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ خاص بعد عام لاختصاصهما بينها بأهمية خاصة، وأنهما المعروفان منها في الحقل الكتابي دون ما سواهما من كتاب غابر لم يبق له على أثر إلّا فيما شذ وندر.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ مفرداً (١٢) مرة في القرآن لمحة لامعة على تحرُّفه إذ أصبح أناجيل لا تنسب إلى السيد المسيح عليه السلام اللّهم إلّا ما لا خبر عنه حيث دُفن في مقبرة التاريخ المسيحي.

والقرآن لا يصدق إلّا الإنجيل النازل على السيد المسيح عليه السلام دون الأناجيل التي ألفها جماعة آخرون وهي متعارضة مع بعضها البعض، وأخرى مع صادق الوحي، وثالثة مع الفطرة والعقلية والواقعية السليمة[١]!.

﴿. . . مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ كلّ ذلك رسولاً ورسالة:

﴿مِن قَبۡلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾:

فكل ما أنزل من قبل ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ و﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ كيانه هدىً للناس، كما ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾.

والفرقان - ككل - هو الفارق بين الحق والباطل بواقعه المبرهن وأصدق مصاديقه هو القرآن، فقد ذكر أولاً بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وأخيراً ﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ مما يدل أنه هو الأول والأخير، فكل كتابات السماء تقدمات لذلك الكتاب، كما أن كلّ رسل السماء تقدمات لذلك الرسول.

ومهما كان كلّ رسول فرقاناً بنفسه وبآيات رسالته، ولكنه لم يكن فرقاناً بكتابه، فهذا الرسول فرقان بكتابه كأفضله، فإنه آية خالدة رسالية ورسولية على مدار الزمن الرسالي، وما هكذا أي كتاب بين يديه!.

---

(١) للاطلاع على حال الأناجيل راجع كتابنا (المقارنات) وقد جاء شطر من عديد الأناجيل في الفرقان ٢٧: ١٧٦ - ١٧٧.

ومهما شمل ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ المنزل هنا كلّ فرقان مع الرسل دون كتاباتهم، فالمصداق الأعلى والأجلى للفرقان هو القرآن، كما وهو الرسول فإنه من المنْزل كما القرآن: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴿١١﴾﴾[1].

وطالما القرآن المفصل منزّل تدريجياً، ولكن المحكم منه - النازل ليلة القدر - منْزل دفعياً فهو: فرقان أول، ثم المفصل منه فرقان ثان منْزلٌ، لأن كلّ نازل منه في نجمه فرقان، فهو - إذاً - فرقان جملة وتفصيلاً، إنزالاً وتنزيلاً، لا مثيل له في كتابات الوحي عن بكرتها.

فذكر الفرقان هنا بعد القرآن تعظيم للقرآن وتعميم للفرقان لكلّ رسول أنه لا يأتي إلّا بفرقان، وفرقان القرآن يمتاز عن سائر الفرقان بما يفرّق بين أصيل الوحي فيما بين يديه عن دخيله، وأنه برهان لرسوله رسولياً ورسالياً، خالداً على مرّ الزمن، بل لا يزداد إلّا ظهوراً وبهوراً، وأنه المقياس الأصيل لما يروى عن المعصومين عليهم السلام تصديقاً لما وافقه ورداً لما خالفه.

ذلك! وما أشبه من ميزاته المنقطعة النظير بين كلّ فرقان لكل بشير ونذير، فإنه شرعة بأكملها وآية رسالية ورسولية بأكملها، قضية خلود الشرعة بآيتها ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2].

إذاً فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي مجموعة في ذلك الفرقان، ومنجَّمة في سائر الفرقان: أنفسية وآفاقية: رسلاً ورسالية ورسولية، كفراً عن تصديقها، وستراً مكذباً أو متجاهلاً عن دلالاتها الصادقة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ﴾ وفاقاً لشد الكفر وعدّه وجزره ومدّه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن يتألب أو يتغلب على رسالات الله وفرقانه.

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾:

﴿شَىْءٌ﴾ هنا في سياق النفي تشمل كلّ ما يستحق اسم الشيء، واقعاً - وهو حق الشيء في مثلث الزمان - بإمكان وقوعي ومصلحي، أم مُمكناً ذاتياً لا يستحق التكوين حسب الحكمة العالية، وأما المستحيل فليس شيئاً بأي معنى حتى تشمله ﴿شَىْءٌ﴾ فإنما الله يعلم استحالته حقه ونحن نعلمها على هامش علمه.

ثم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تعبير مكرور في القرآن عن كلٍّ كائن على طول خطّ التكوين، ظرفاً لواقع ﴿شَىْءٌ﴾ ومظروفه، دون إبقاءٍ لكائن إلّا وهو شامله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾:

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[1] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2] ولا أنتم الناس فحسب، بل و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[3] لكل صورة، ولا يخلو أي خلق من صورة هي منه تعالى كخلقه سواء.

﴿هُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ بالصورة الإنسانية بجزئيها الروحية والبدنية، روحية عامة هي الروحية الإنسانية ككل، المشتركة بين الكل، وأخرى خاصة حيث تختلف الأرواح من جهات عدة قابلية وفاعلية واستعداداً أماهيه، وبدنية عامة مشتركة وهي الهيكل الإنساني المشترك بين الكل، وأخرى خاصة هي مختلف الصور والشاكلة ظاهرة وباطنة، وكل هذه الأربع داخلة في نطاق ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ هنا وفي سواه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٨.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

﴿صَوَّرَكُمْ﴾ حيث ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[(١)] في جزئيه فلا أفضل منه نوعياً اللّهم إلّا فضيلاً مثله وهو القليل: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[(٢)].

وأرحام النساء، مهما كانت خلقية، أم مصطنعة إن أمكنت ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا ما يشاؤه سواه ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في أيّ من اختصاصات الألوهية كالخلق والتصوير والتدبير والتقدير ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ألوهيته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيها، فلا يغلب ولا يخطأ أو يجهل أو يغفل.

هنا ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ كما هناك ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[(٣)] تحمل مختلف الصورة الروحية والبدنية للإنسان، فليست هي بمشيئة الوالدين - اختياراً أم دون اختيار - أو علم الأجنة، إنما هي بمشيئة الله وحده لا شريك له.

هنا نتحدث قليلاً عن الصورة الجسدانية الملموسة، فقد قضت الحكمة الربانية في خلقه أن يُركّب كلّ شخص إنساناً وسواه بصورة مختلفة عن الآخر رغم التشابه الواقع بين شخص وآخر.

ولقد بيّن علماء الوراثة قريباً أن احتمال التشابه التام بين شخصين هو بنسبة واحد من الرقم عشرة مسبوقاً بأربعين صفراً (١/ ١٠٤٠) وهذه حقاً استحالة حسابية منطقية!.

ذلك! لأنه - حسب تقديرنا - عندما ينصهر الحيوان المنوي مع البويضة - وكل منهما يحمل ربع مليون «ناسلة مورثة» تقريباً - لا يقدر أحد

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الانفطار، الآية: ٨.

إلّا الله أن يتنبأ بالشكل الذي سيكون عليه مستقبل الجنين البيولوجي، والتي تحكمها هذه المورثات، وقد يرجع الجنين في نَسَبِهِ - أي ميزاته البيولوجية - إلى أبعد الحدود، وربما إلى جدِّنا الأول وكما في حديث الرسول ﷺ عندما سأل رجلاً ما ولِدَ لك؟: ما عسى أن يولَدَ لي إما غلام وإما جارية، قال: فمن يشبه؟ قال الرجل: يا رسول الله ﷺ ما عسى أن يُشبه إما أباه وإما أمه، فقال ﷺ: لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كلَّ نسب بينها وبين آدم، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ قال: شكّلك.

ذلك! ورغم أن علم الوراثة باستطاعته نفي الأبوة عن طفل إذا تعارضت فئة دمه مع فئة دم والده - وهذه حالات نادرة - كأن تكون فئة دم الوالدين من فئة (A) وفئة دم الطفل من فئة (B).

رغم ذلك لا يستطيع التأكد بأبوَّة الوالد لطفله، فعلم الوراثة لا يستطيع الجزم بذلك أبداً، ومن هنا نعرف طرفاً من البعد العلمي العظيم في التشريع الإسلامي من خلال قول الرسول ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». حيث يحصر المعول عليه في إثبات نسب الطفل لوالده كما بينه علم الوراثة اليوم.

ذلك، وأما أنصار الانتخاب الطبيعي وتطور المخلوقات الحية بعوامل البيئة والمناخ، من الذين أرجعوا اختلاف الألوان في الجنس البشري والمخلوقات الحية للمناخ والطبيعة، أما هؤلاء فسقطت هرطقتهم هذه الخواء أمام اكتشافات المورثات التي تحكم اختلاف الألوان في المخلوقات.

فلماذا سكان الولايات المتحدة الأمركية من الزنوج لم تتغير ألوان بشراتهم بفعل المناخ وهم في مناخ مختلف عن افريقيا منذ مئات السنين؟ وكذلك بالنسبة لسكان جنوب أفريقيا من البيض.

أجل لا ننكر أن للبيئة والمناخ تأثيراً بحول الله وقوته، ولكننا ننكر أن يكونا هما الأصل الأصيل في اختلاف الصور والألوان، فإنما ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾! وإليكم مثالاً ماثلاً بين أعيُننا «بصمات الأصابع» كما تبدو في أواخر الشهر الثالث من حياة الجنين ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[1] حيث لا تتشابه البصمات إلَّا في التوأم التام الصحيح المُتأتي من بويضة ملقحة واحدة، سبحان الخلاق العظيم!.

وتلك هي الصورة المختلفة بين الناس، ثم المتحدة بينهم تشتمل على ثلاثة عشر هي: الطبائع - الأركان - الأخلاط - الجواهر - الطبقات - الأعمدة - الحبال - الخزائن - المسالك - الأنهار - الأبواب - الحُراس - العمودان، فكل شخص من الإنسان هو بمفرده كمدينة سبحان الخلاق العظيم!.

١ - فالطبائع هي الحرارة - البرودة - الرطوبة - اليبوسة.

٢ - والأركان الأصلية أيضاً أربعة هي: النار والهواء والماء والأرض، والعلم الآن جعلها مركبات من عناصر تبلغ زهاء (٧٥) أم وتزيد.

٣ - والأخلاط أربعة هي: الصفراء والدم والبلغم والسوداء، مهما زاد عليها العلم ما زاد.

٤ - والجواهر تسعة هي: عظم - مخ - عصب - عِرق - دم - لحم - جلد - ظُفر - شعر.

٥ - والطبقات عشر هي: رأس - رقبة - صدر - بطن - جوف - حِقو - ورِكان - فخذان - ساقان - قدمان.

٦ - والأعمدة هي (٢٤٨) وهي العظام.

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٤.

٧ - والحبال: (٧٥٠) حبلاً هي الرباطات الممتدة المشدودة على العظام وهي الأعصاب.

٨ - والخزائن الإحدى عشر هي: الدماغ - النخاع - الرئة - القلب - الكبد - الطحال - المرارة - المعدة - الأمعاء - الكليتان - الأنثيان.

٩ - والمسالك والشوارع والطرقات في العروق الضوارب (٣٦٠).

١٠ - والأنهار هي: الأوردة (٣٩٠).

١١ - والأبواب الاثني عشر هي: العينان - الأذنان - المنخران - السبيلان - الثديان - الفم - السرة.

١٢ - والحراس هي الحواس الخمس: السمع - البصر - الشم - الذوق - اللمس.

١٣ - والعمودان هما الرجلان.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾:

آية فريدة في القرآن تقسّم آياته إلى محكمات ومتشابهات، تنديداً بالذين يتبعون ما تشابه منه، وتمجيداً بمبتغي محكماته، والمستفسر لمتشابهاته بها، وتجهيلاً لتأويله ككلٍّ وعلّه للكلّ، فيحق لنا أن نسبر أغوارها لنحصل على صراط مستقيم في تفسير آي الذكر الحكيم.

هنا اثني عشر سؤالاً يُطرح حول آية التقسيم هذه، للإطاحة بكلّ تقولة عليها على ضوء أجوبتها الصالحة.

١ - هل هذه الآية محكمة يصُح التمسك بها في ذلك التقسيم ومعرفة كلّ قسيم، أم متشابهة؟.

٢ - ثم ذلك التقسيم الثنائي حاصر، أم هناك قسم أو أقسام أُخر من الآيات؟ كالمجملات!.

٣ - كيف التوفيق بين آية التقسيم، وثانية تدل على أن القرآن كله محكم: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1] وثالثة تدل على أنه كله متشابه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ...﴾[2].

٤ - كيف جمع فيها بين ﴿هُنَّ﴾ ضمير الجمع، وبين ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفردة، فجعل الواحد صفة للجمع؟ وهذا فتٌّ في عَضُدِ البلاغة وثلمٌ جانب الفصاحة!.

٥ - ما هو المحكم والمتشابه والفرق بينهما بصورة محكمة غير متشابهة؟.

٦ - كيف تكون المحكمات أمًّا للكتاب؟.

٧ - ما هو اتباع المتشابه المنهي عنه؟.

٨ - بماذا تفسَّر المتشابهات وكيف تفسّر؟.

٩ - ما هو الوجه في اشتمال الكتاب على المتشابهات وهي مسرب الشبهات؟.

١٠ - من هم الراسخون في العلم؟ وهل هم يعلمون تأويله أم لا يعلمون؟.

١١ - هل التأويل يخص المتشابهات أم يعمّ المحكمات؟.

١٢ - ما هو الفرق بين التأويل وتفسير المتشابه؟.

١ - قضية الوحدة في هذه الآية من حيث التقسيم إذ لا ثانية لها،

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

والتأمل فيها حقها، أنها محكمة، وإلّا لفسد التقسيم وأصبح القرآن كله متشابهاً حيث لا يفهم الفرق بينهما على ضوء آية التقسيم، فهي قطعاً في مقام بيان التقسيم، فلو كانت متشابهة - ولا محكمةَ غيرها تفسر هي بها - لعاد القرآن كله متشابهاً، وبطل علاج التشابه المدلول عليه لها، ولم يصدق: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] وسقط الاحتجاج بواجب التدبر فيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2] وليست الحاجة إلى التدبر مما تجعل الآية متشابهة وإلّا أصبحت كلّ النظريات متشابهة.

هذا وواقع الاختلاف في آي القرآن إحكاماً في بعض وتشابهاً في أخرى، مما يصدق حق التقسيم وأنه بيان لواقع ملموس.

٢ - «منه» قسيم أول «وأُخر» قسيمٌ منه ثانٍ فهما - إذاً - قسيمان اثنان، ولو كان فيه ثالث لكان حق التقسيم في هذه اليتيمة أن يذكر كما ذكرا، فإن في تركه إجمالاً في التقسيم وإبهاماً لكل قسيم.

ثم التقسيم إلى قسيمي السلب والإيجاب هو حاصر على أية حال، والتشابه والإحكام راجعان إلى وصفي المدلول باللائح والخفي ولا ثالث بينهما أياً كان.

وقيلة القائل إن المجمل ثالث لا هو محكم ولا متشابه - لأنهما المقصود دلالتهما على معنى، ولا يقصد من المجمل مجمل المعنى - إنها غيلة وحيلة على الذكر الحكيم، إذ لا مجمل في القرآن بهذا المعنى، فكل لفظة فيه تعني ما يصح أدبياً من المعنى المراد، إن عاماً فعام وإن مطلقاً فمطلق أو نصاً أو ظاهراً فهما لا سواهما، محكمة أو مُتشابهة.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

فقد يعني المُجمل ما أجمل فيه المعنى دون بيان رغم كونه معنياً، فهذا فتٌّ في عَضُدِ الفصاحة وثلمٌ في صرح البلاغة، تُنخّى عنه ساحة الذكر الحكيم لأنه أبلغ بليغ وأَفْصَح فصيح، فكيف يليق به هكذا تعبير فضيح!.

أو يعني ما لم يُعن منه أي معنى؟ وذلك لغوٌ في الذكر الحكيم!، أو عنى منه معنى ولم يَعن معنى آخر، فغير المعنى - إذاً - خارج عن مقسم التقسيم وهو الدلالة، ومن ثم فإن كان لائح المعنى وإن بتأمل وتعمُّل فهو من المحكم، وإن كان عميق المدلول على وضوح الدلالة فهو من المتشابه الذي يفسره المحكم، وإن لم يُعن منه ما تعنيه فهو خارج عن المقسم، وقد تجمع الأقسام الثلاثة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1] فهي مُحكمة من حيث عدد الأيام والمخلوق فيها، ومُتشابهة من حيث معنى الأيام، ومُجملة من حيث عدد السماوات.

٣ - إحكام الآيات كلها يعني الحكمة العالية الربانية المُعمَّقة فيها دلالة ومدلولاً وتوفيقاً مع الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة، وتطبيقاً لها مُحلّقاً على كلّ متطلبات الحياة الإنسانية والإيمانية، فلا مدخل فيها لباطل، وهذا إحكام للقرآن في كلِّ مراحله.

ولكنه محكمة الآيات وجاه تفصيلها كما في الآية نفسها وهو إحكامٌ قبل تفصيل، أنها أحكمت في نزولها الأول على قلب الرسول ﷺ في ليلة القدر، فالمُحكمات والمُتشابهات في مرحلة التفصيل كلها محكمات في مرحلة الإحكام.

وأما ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ فقد يعني تشابهاً لا يقابل هذا الإحكام، فهو تشابه آياته كلها للمعني من المحكم النازل ليلة القدر، وتشابهها مع بعض البعض

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

في قوامة التعبير لأعلى قمم الفصاحة والبلاغة، وتشابهها بتلاؤمها مع بعض البعض حيث يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض، ورابع هو تشابهها مع بعض في التدليل على وحيها آيات بينات من عند الله العزيز الحكيم، وخامس تتشابه فيه مع قضية الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة على مدار الزمن، وكذلك كلّ تشابه هو قضية كونها من عند الله ذا نسق واحد في جزالة النظم وإتقان الأسلوب في كلّ حقول الهداية إلى الصراط المستقيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

فهذه وتلك تقرِّر أن إحكاماً وتشابهاً يُحلِّقان على القرآن كله، وآية التقسيم تقسم تفصيل الكتاب المتشابه إلى محكم ومتشابه، عنايةً منهما غير ما يُعنى فيهما، ومنها إحكام المدلول حيث يتضح لبساطته، ثم تشابهه - على وضوح الدلالة - لعلوّ المعنى وتشابه اللفظ مع ما يُعنى منه غير ذلك المعنى، لا قُصوراً في الدلالة، إنما لعلوّ المعنى.

٤ - لو قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لذهب البال والخيال إلى أن كلَّ واحدة منها هي أمٌّ لكل الكتاب، رغم أن كلّاً أمٌّ لمتشابهها الخاص، أم جملة منها لجملة أخرى، دون أن تكون كلُّ واحدة أمًّا للكتاب، فلا أن كلّ محكمة أمّ لكلِّ المتشابهات، ولا لأي متشابهة لا تناسبها، وإنما لكلِّ متشابهة أمّ، واحدة أم زائدة في كلٍّ من المحكمة والمتشابهة، فصالح العبارة عن القبيلين في مختصر التعبير ومحتصرة: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ توحيداً للأم المحكمات وسائر الكتاب المتشابهات، فقد قوبل جمع المتشابهات بجمع المحكمات فعبر عن كلٍّ بصيغة الإفراد ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكما الأم واحدة كذلك الكتاب المعني منه كلّ المتشابهات.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

إذاً فمجموعة الأمهات هي كأم واحدة لمجموعة المتشابهات، فهي أصل للمتشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها ويستثار دفينها، وبذلك سُميت أمُّ الإنسان أمًّا لأنها أصله الذي منه طلع وعنه تفرع وهي - بعد - المرجع في كلّ سُؤل وحاجة.

وقد تشابه هذه الآية آية ابن مريم وأمّه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[(١)] فإن المعجز فيهما آية واحدة على عديد ظرفها، فإنها وُلدت من غير بعلٍ وهو وُلد دون أبٍ ولا فصال بينهما في تكوُّن هذه الآية، إذ ليس كلّ واحد دون هذه الصلة الولادية آية خارقة.

كذلك ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنها ككلٍّ أمٌّ للكتاب كلِّه، فليست كلُّ واحدة منها أمًّا للكلّ، ولا أن كلَّ واحدة من المتشابهات وليدة لكلٍّ من المحكمات فإنما ذلك من تقابل الجمع بالجمع.

ولأن الكتاب يعمُّ محكمه إلى متشابهه، فهن - إذاً - أمٌّ لأضرابها المحكمات كما هي أمٌّ للمتشابهات حيث المحكمات تفسر بعضها بعضاً كما تفسر المتشابهات.

وإنما عبّر عن المحكمات بضمير جمع العاقل ﴿هُنَّ﴾ لأنها بتفسيرها المتشابهات كأنها عاقلة حكيمة، وهي حقاً هيه لأنها صادرة من خالق العقل والحكمة لتعقلنا فنعقلها، ورغم أن المتشابهات كما المحكمات حكيمة عاقلة، ولكن علّو المعنى وقصور العاني في مداليلها تجعلها بحاجة إلى محكماتها، فكأنها ليست بذلك العقل الحكيم وهي من خالق العقل الحكيم، وليس السلب إلّا من القاصرين في تفهمها، دون قصور في دلالاتها، فآي الذكر الحكيم كلها حكيمة ولا يعني التقسيم إلّا مختلف الافهام في تفهمها.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

٥ - هل المحكمات هي الدالات على معانيها المقصودة دونما تكلُّف أو تخلف عن نصوصها أو ظواهرها؟ فالمتشابهات هي غير الدالات نصاً أو ظاهراً، حيث يشتبه المرادات فيها بغيرها فيتحيَّر الناظر إليها حتى يستفسرها بمحكماتها؟.

وهذا قُصورٌ في دلالة المتشابهات، فهو - إذاً - فتٌّ في عَضُدِ الفصاحة، وثلمٌ في جانب البلاغة، وتخلُّفٌ عن واضح البيان وناصع البرهان، والقرآن هو أبين بيان وأوضح برهان!.

في الحق إن التشابه هنا ليس تشابُهاً دلاليّاً بل هو تشابه مدلولي يخلّفه علوُّ المعنى عقلياً أو علمياً أو معرفياً رغم واضح الدلالة لغوياً وادبياً، وآخر هو من مخلّفات لفظية التشابه لغوياً والمعنى مختلف كما تتشابه صفات إلهية بصفات خلقية باختلاف المعاني خلقياً وخالقيّاً، فلا تشابه إلّا قضية قصور المستدل الخاوي عن قمة معرفية دون الدال البالغ أعلى القمم الدلالية، فلا تجد في القرآن، ولا مرة يتيمة، يراد من نص خلاف نصّه، أو من ظاهر مستقر خلاف ظاهره، فإنما هو تشابه في ألفاظ هي حكيمة المعاني ومحكمتها لأهليها، وعلوٌّ في المعاني لا بدَّ لتفهمها من علوٍّ يناسبه في المعرفة.

وحين نقتسم محتملات الأقسام للتشابه - أياً كان - في القرآن، نجد اثنين وأربعين محتملاً بضرب سبع في سبع.

فقد يتشابه المعني من آية بغير المعني منها لقُصورٍ في التعبير، إجمالاً أو إبهاماً أم قصداً لخلاف النص أو الظاهر، وهذا خارج عن المعني من ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ فتسقط سَبْعٌ من المحتملات.

أم أن الدلالة واضحة نصاً أم ظهوراً مستقراً ولكن اللفظ يتشابه مع مثله خُلُقياً وخالقياً، وهذا تشابه مدلولي لفظياً وليس دلالياً لغوياً.

وفي ذلك التشابه قد يكون تشابهٌ معنوي في المعني من الآية، عقلياً أو علمياً أو معرفياً أو حسياً أو واقعياً، وهي مُضافة إلى الأول ست تضرب في ست فالمحتملات الصحيحة - إذاً - ست وثلاثون، تترك مكرراتها والبقية الباقية صالحة.

ومن التشابه الواقعي أن المحكمة المنسوخة تتشابه المحكمة غير المنسوخة، فيزول تشابهها بالناسخة، كما التشابه علمياً وعقلياً ومعرفياً وحسياً يزول سناداً إلى المحكم في هذه الأربع دلالة من نفس الآية وسائر المحكمات التي هي في مغزاها ومرماها.

فالمحور الأصيل في ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ هي المتشابهات لفظياً إذ ترجع إلى محكمات فيزول بذلك تشابهاتها، وأما سائر التشابه فهو زائل بنفس الآية الصريحة أو الظاهرة في خلافها علمياً أو عقلياً أو حسياً، اللهم إلّا تشابه النسخ فلا يزول إلّا بالرجوع إلى الآيات التي بالإمكان نسخها إياها فيتأكد أنها محكمة أو منسوخة.

فهنا صفات وأفعال تختص بالله فلا تشابُه فيها على أية حال، وهناك أُخرى تختص بمن سوى الله فكذلك الأمر.

ثم هنالك ثالثة هي مشتركة لفظياً بين الله وخلقه، متباينة معنوياً وواقعياً، كالشيئية والوجود والعلم والقُدْرَة والسمع والبصر واليد والقدم والمجيء وما أشبه، ففيها وفي أضرابها يشتبه المعنى على الجاهل به، استجراراً لمعانيها في المخلوقين إلى الخالق سبحانه، أو استجراراً لمعانيها في الخالق إلى المخلوقين.

ومن أسهل السُّبل في تفسيرها إرجاعها إلى محكمات قرآنية كـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾[1] و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[2] و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ

(١) سورة الشورى، الآية: ١١. (٢) سورة فصلت، الآية: ٥٤.

يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[١] وأضرابها من محكمات. . . أو محكمات عقلية أو علمية أم معرفية متزودة من محكمات قرآنية أماهيه، يزول بها ذلك التشابه العارم الناتج عن قصور العقلية الإيمانية أو العلمية دون أي قصور دلالي في لغة القرآن[٢].

فالمتشابهات القرآنية في الأكثرية الساحقة هي في أسماء الله وصفاته وأفعاله حيث يؤتى بها في لغات مشتركة الاستعمال بينه وبين خلقه، فلا بدَّ من تجريدها عن المعاني الخَلقية عن بكْرَتِها، والإبقاء على المعاني الخالقية، وذلك هو المعني من تسبيحه سبحانه بحمده، أن ننزِّهه فيما نحمده بألفاظ متشابهة عما لا يليق بساحته، ولا سبيل للتعريف بصفاته سبحانه - المشتركة لفظياً بصفات خلقه - إلّا استعمال نفس الألفاظ المشتركة، ثم علينا تجريدها عن معانيها في الخلق.

ومهما كان القرآن كلّه فرقاناً لأهله، ولكن المحكمات البينات في أنفسها هي فرقان للمتشابهات[٣] تفرِّق المعنيّات الإلهية بمشتركات الألفاظ، عن المعنيات الخلقية أم أية تشابهات في سائر الحقول العقلية والعلمية

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) مثالاً على التشابه العلمي آيات حركات الأرض كآيات الكفات والراجفة والذلول والجبال الأوتاد وأضرابها، حيث الألفاظ لا تشابه فيها، وإنما العلم غير البالغ زمن نزولها يعمل في تشابه بين حق المعنى وباطله، فالعلم يرجّح باطله وهو سكون الأرض، والنص يرجّح حقه وهو حركات الأرض، فيحمل النص - قضية العلم أو الحس الخاطئ - على غير النص، وهكذا العقل غير الناضج، حيث يعقل أمراً بقصوره فيعتقده ثم الآية الصريحة أو الظاهرة في خلاقه يظن أنها متشابهة قد يرجح حكم العقل عليها فتؤول على خلافها.

(٣) في الكافي عن ابن سنان عمن ذكره قال سألت أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أو شيء واحد؟ قال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به، وفيه عن القمي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام: الفرقان كل أمر محكم، وروى العياشي عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن الفرقان؟ قال: القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون والفرقان المحكم الذي يعمل به وكلّ محكم فهو الفرقان.

أماهيه، ومما لا ريب فيه أن الآيات الأحكامية - كقدر معلوم من القرآن - هي من الفرقان المحكم[١].

ولا يعني إحكامها عدم الحاجة إلى التدبر فيها وتفسير بعضها ببعض، بل يعني عدم التشابه مدلولياً إذ لا تشابه فيها لفظياً، مهما كانت عميقة المعاني، غالية المعالي.

إذاً فـ «المحكم ما يعمل به والمتشابه الذي شبه بعضه بعضاً»[٢] فـ «المتشابه ما اشتبه على جاهله»[٣] وكون المنسوخات من المتشابهات كما في مستفيضة تعميم للمتشابه المدلولي إلى التشابه تكليفياً، حيث الجاهل بالمنسوخ يحسبه - على الدلالة المحكمة - أنه حكم ثابت لا حِوَل عنه.

وحق القول في المتشابه - هو ككل - تشابه غير المراد بالمراد، تشابهاً عقلياً أو علمياً أو معنوياً أو واقعياً، والأخير هو تشابه المنسوخ، وقبله تشابه الأسماء والصفات الإلهية، والأولان هما في حقول القصور في العلوم والعقول وكما يروى «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»[٤] مهما فسرها محكماتها، أو هي محكمات مدلولياً، إلّا أن قاصر العقل والعلم قد يهم تأويلها إلى ما يوافقهما كالآيات الصريحة في حركات الأرض ودورانها أمّا شابهها من آيات تحمل معارف غامضة عقلياً أو علمياً.

---

(١) الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج البخاري في تاريخ بغداد بسند أن النبي ﷺ قال في خطبته: أيها الناس قد بيَّن الله لكم في محكم كتابه ما أحلَّ لكم وما حرَّم عليكم فأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه وآمنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه واعتبروا بأمثاله.

(٢) العياشي عن أبي محمد الهمداني عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٣) العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام وفي الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه أن رسول الله ﷺ قال - إلى أن قال -: فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به.

(٤) كما في الدر المنثور عن ابن عباس رضي الله عنه.

فالمحكمات - إذاً - هي غير المنسوخات، ولا المتشابهات معنوياً ولا علمياً ولا عقلياً ولا معرفياً ولا حسياً، فهما تختلفان حسب الاستعدادات والقُدُرات العقلية والإيمانية والعقيدية، دون أن تكون آيات محكمات في مخمسة الجهات للكلِّ، وما سواها مُتشابهات لهم.

فكم من آية هي محكمة لمستفسر عنها مُتشابهة لآخر، أم هي محكمة في بعض ألفاظها مُتشابهة في الأخرى، كما ومنها ما هي محكمة واقعياً إذ لم تنسخ، ولكنها مُتشابهة لفظياً، أو محكمة لفظياً ومُتشابهة عقلياً أو علمياً أو معرفياً، وهكذا الأمر في أضرابها من إحكاماتٍ وتشابهات في مربعة الجهات.

ذلك ما تهدي له آية التقسيم وروايات تفسرها كما هيه، فسائر التعاريف - إذاً - بين قاصرة ومُقصِّرة، مُفْرِطة أو مُفرِّطة، أو أنها من التفاسير الجانبية غير المحلقة على مربعة الجهات في المحكمات والمتشابهات.

ومن أغربها أن المحكمات هي الحروف المقطعة وغيرها متشابهات! معاكسة صريحة لمدلول آية التقسيم، فإنها أحق أن تكون من المتشابهات، بل هي من أعضلها، وهي أوفق الظروف الملتوية للتأويلات: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

وإذا كانت غير الحروف المقطعة متشابهات ككل، والمقطعة هي من أغمض المتشابهات، إذاً فأين القرآن البيان، وكيف واجب التدبر في القرآن؟!.

هذا! وقد يصح القول أن الحروف المقطعة لا هي من المحكمات ولا المتشابهات، فإنها لا تدل وضعياً على معنى، فلا مداليل لها فضلاً عن كونها محكمات.

ولئن أدخلناها في المتشابهات فهي من أوغلها في التشابه حيث لا تفسر

بمحكمات في القرآن، فقد يصبح القرآن محكماً كله - كما عند أهله الذين يعيشونه معرفياً عِلْمياً وعَمَلياً حياتهم - يصبح محكماً في حقل التفسير - ككلّ - مهما بقي مُتشابهاً في ساحة التأويل، ولكن الحروف المقطعة لا تفسير لها ولا تأويل إلّا لأهله الخصوص وهم الرسول ﷺ وذووه المعصومون عليهم السلام فالمتدبِّرون في القرآن حقَّه، الراجعون في تفسير متشابهاته إلى محكماته سليماً ناصعاً، وفوقهم الرافعون ستار التشابه بالقمة العقلية والعلمية والإيمانية، هم لا متشابه لهم في آي القرآن في ساحة التفسير، مهما تعاضل عليهم أمر التأويل، فإن أهله الخصوص أيضاً لا تحليق لهم في تأويله كلِّه، فضلاً عمن دونهم!.

٦ - وكيف تكون المحكمات أُمُّ الكتاب دون أمهات الكتاب؟.

حيث الأُم هُنا هي الأصل الذي يرجع إليه ويُعتمد عليه في حاجيات الطفولة، فالمتشابهات بحاجة إليها في تبيين معضلاتها وإزاحة التشابهات عنها وليست كلّ واحدة من المحكمات بانفرادها أُمَّا لكلِّ المتشابهات، بل هي بأجمعها أمٌّ لها بأجمعها، جَمْعاً أمام جَمْع، فهي - إذاً - أُمٌّ واحدة للمتشابهات مهما كانت كلّ من المحكمات أمًّا لما تناسبها من متشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها وتستثير دفينها، كما وهي أُمٌّ لمحكمات من أضرابها حيث الكتاب تعمّه كلّه ما يحتاج المستفسر في تبيانه إلى بيان يفسر.

وهكذا تكون الفاتحة أُمَّ الكتاب ككل، لأنها إجمالة بجملتها عن تفصيل الكتاب، مهما كانت كلّ من سبعها المثاني أُمًّا لفصيل من التفصيل.

كما وإن ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ دون آيتين، لأن آية كلٍّ لزام آية الأخرى خارقة في الولادة، فابن مريم آية ولادةً عنها دون والد، ومريم آية توليداً له دون والد، فهما - إذاً - آية واحدة وهكذا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ. . .﴾ تتلاقى منهما في فاقد الصلب المتعوّد في الولادة، وهما فيه مشتركان.

٧ - اتباع المتشابه - المذموم الضائق - هو اتباعه على تشابهه دون إرجاع صالح إلى محكمة تحميلاً، وإنما لمتهوسات الآراء على المتشابه دون رجوع إلى ركن وثيق، ولا لجوءٍ إلى برهان رفيق دقيق، فإن اتباعه على تشابه دون تفسير صالح ولا طالح غير ممكن، وإنما يتبع المعنى الثابت صالحاً وغير صالح، وهذا هو الذي يثير الفتنة عِلْمياً وعَمَلياً وعقيدياً، وأما اتباع المشابه بعد إرجاعه إلى محكمه فليس اتباعاً للمتشابه حتى يحظر عليه، ثم وفي اتباع المتشابه هكذا واقعٌ رائغ زائف في بُعدْين اثنين هما:

١ - ابتغاء الفتنة و٢ - ابتغاء تأويله، هما ظاهرتان من زيغ القلب وتقلُّبِهِ عن ناصع الحق وناصحه إلى ناعق الباطل وفاضحه، وفي ثالوث: الزيغ وابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، يبرز في المسرح كلّ إدغال وتدجيل، استدلالاً بالكتاب ضدّه لصالح الأهواء والأباطيل.

ففي اتباع المتشابه على تشابهه فتنة في كلّ الحقول، وفي ابتغاء تأويله إلى ما تهواه الأنفس فتنة على فتنة، فإن ذلك التأويل عليل حيث الأصل الذي يتبناه - وهو اتباع المتشابه - عليل، فلا يروّي الغليل ولا يبصر الكليل، رغم أن القرآن شفاءٌ لما في الصدور ورحمة لذات الصدور: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] ومنهم - كأنحسهم - هم الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ذلك هو الاتّباع المرفوض لما تشابه منه، دون تفسيره بمحكمه أم أياً كان من صالح التفسير استنطاقاً لآليات بنظائرها، ودخولاً في حقولها وحظائرها من أبوابها دون ظهورها.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

أجل و«من ردَّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم. . . وإن في أخبارنا مُتشابهاً كمُتشابه القرآن فردوا مُتشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا مُتشابهها دون محكمها فتضلوا»[١]، ودون أن يؤمن بها على تشابهها لمن لا يستطيع على رجعها إلى محكمها.

و﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ قد يعمّ المتشابه في نفسه، إلى ما جعل متشابهاً رغم إحكامه، ثم تحميل ما يتحمل عليه، وهو من أنحس الاتباع لما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وليس ضربُ القرآن بعضه ببعض - المندَّد به في المأثور - إلّا ضرب التضارب، دون ذلك التفسير التقارب، فكلّ تفسير ينتج تضارباً بين الآيات هو من ضرب القرآن بعضه ببعض ضرب الدّقِل، وكل ما ينتج تقارباً بينها دون تحميل عليها إلّا ما تتحمله، فهو من صالح التفسير، وهو تفسير القرآن بعضه ببعض ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٢] فهنا تفسير لفظي للقرآن متشابهاً وغير متشابه، ثم تفسير باطني لهما، ومن ثم تأويل، ولا بدَّ لكلٍّ من دليل، فمفسر المتشابه لفظياً دون دليل، ثم تأويلياً دون دليل، أنه جامع زيغاً على زيغ وفتنة على فتنة، حيث التأويل كلّه في نفسه متشابه لأنه غير مسنودٍ إلى لفظ متشابه أو محكم، بل هو الأوّل معنوياً إلى مبدإٍ أو نتيجة، فهو مخصوص بمن يحيط علماً بمبادئ القُرآن ونتائجه.

فكل اتِّباع للمتشابه - على تشابُهه - هو من زيغ القلب، ثم اتِّباع الحُكم ذاتياً أم بعد الرجوع إلى المحكم هو من استقامة القلب، شرط عدم تحميل الآراء الجارفة عليها على إحكامها.

---

(١) عيون الأخبار حدثني أبي قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي حيون مولى الرضا عليه السلام عنه عليه السلام قال: . .

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

فقد يُجعل المحكم مُتشابهاً ثم يُحمل عليه رأي مزيف، وذلك من اتباع المتشابه رغم إحكامه، أو يُجعل المتشابه متّبعاً على تشابهه بنفس التحميل، فكذلك الأمر.

وأما أن يُتبع المحكم على إحكامه، أو يتبع المتشابه بعد قلبه محكماً - اتباعاً في مثلث العلم والعقيدة والعمل أم يتبع المتشابه إيماناً دون تفسير: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فذلك هو الرسوخ في العلم على درجاته.

إن تأويل المتشابه - إيضاحاً لمعناه - يختص بالله، حيث المحكمات تفسر المتشابهات، كما أن تأويل القرآن - ككل - مختص بالله فإنه الذي يعلم مِن التأويل مَن هو أهله كالراسخين في العلم بمختلف درجاتهم.

وعلى أية حال فكلّ تأويل - لأنه خارج عن مدلول اللفظ وراجع إلى غامض المعنى - إنه يحتاج إلى دليل من صاحب المعنى، قد يبينه في سائر كلامه كالمحكمات بالنسبة للمتشابهات، فهو عام لأهل القرآن الخصوص ككل.

أم يبيّنه بإلهام أو وحي وهما يختصان بأصحابهما الخصوص، أم لا يُبينه إلّا يوم القيامة، أم ليس ليُبينه إطلاقاً وهو التأويل المخصوص بعلم الله تعالى شأنه.

ففي مربع التأويل نجده واقعاً غيبياً مُرتبطاً بالمعنى المفهوم من القرآن، لا يعلمه إلّا الله، أم والراسخون في العلم بتعليم الله.

وبالنظر الدقيق إلى آيات التأويل نعرف مدى صدق هذا البيان، فلا تجد فيها ولا أية إشارة إلى تأويل الألفاظ كما يهرفون بما لا يعرفون، بل هو مُثلث التأويل في النشآت الثلاث الأولى والبرزخ والوسطى، تأويلاً عِلْمياً أو واقعياً.

فتأويل كلّ ما فعله خضر لم يكن تأويلاً لكلام إذ لم يكن منه فيما

اختلفا إلّا العمل، إرجاعاً له إلى مأخذ أو نتيجة لا يظهران في مظهر الأعمال.

وتأويل الرؤيا ليوسف هو إرجاعها إلى واقعات لا تظهر من هذه الرؤيا إلّا لمن علّم علم التأويل.

وتأويل القرآن، بروزاً له في حقوله يوم القيامة ليس إلّا للحاضر يوم القيامة ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(١) - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ . . .﴾(٢).

إذاً فعلم التأويل ككلّ هو من علم الغيب المخصوص تعليمه بالله، وليس ليُعلم من نص الدلالة اللفظية أو ظاهرها، وإنما يتبنى المعنى تدليلاً من الله وهو يهدي السبيل.

والتأويل - في قول فصل - من الأوّل، فهو الإرجاع، إرجاع معنى الآية إلى واقع مجهول أياً كان، تخطياً عن المعلوم، وليس تفسير النص أو الظاهر إلى خلافهما تأويلاً إلّا في اصطلاح مُستحدث لا أصل له لغوياً ولا قرآنياً.

وللتأويل مآلات ثلاثة لا يعول - فيما يؤول إليها - إلّا بدليل قاطع، فإنه من أوصاف المعنى - الخفية - دون اللفظ، فلا يرجع اللفظ إلّا إلى معناه المنصوص أو الظاهر، ثم ليس لتأويل المعنى إلى واحدة من الثلاثة أي دليل من اللفظ أو المعنى.

إذاً فكلّ متشابه له تأويلان اثنان، تأويل للمعنى إلى واقع المراد، وتأويلٌ له إلى واحدة من الثلاثة، فالأول ميسور لأهله إرجاعاً للمتشابه إلى

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

محكمه أم تدبراً في نفس المتشابه ليزول عنه تشابهه، والثاني غير ميسور إلّا لمن علمه الله.

وللمحكم تأويل واحد هو الثاني، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ راجعٌ إلى الثاني لكل محكم أو متشابه.

ومن أقرب التأويلات لمحكمات أو متشابهات هو واقع الأثر لمثلث العلم والعقيدة والعمل بالقرآن في حياة التكليف وقد كشفت عنه النقاب آيات انعكاس الأعمال علمياً وللمتقين عينياً.

ثم التأويل المأخذ ربانياً، والمآل في الأُخرى ربانياً، هما مجهولان إلّا لمن عرفه الله وعلّمه.

فمّما يعلِّمه الله صالحَ عباده المرسلين تأويلُ الأحكام، قدر ما يُقْدرهم على استنباط جزئيات الأحكام من مصادرها الربانية.

ومما لا يعلّمه تأويلُ الحقائق المحكية عنها بالقرآن، قدر ما عند الله، فإنه مخصوص بالله، ولا يخص تأويل القرآن بمتشابهه بل ويعمّ محكمه، مهما كان الأول أعضل.

وزيغ القلب هنا لا يعني زيغه في كلّ الحقول لمكان «زيغ» منكراً، الشاملة لكلّ زيغ، فقد يزيغ علماً دون زيغ في إيمان، أم يزيغ إيماناً وليس له علم حتى يزيغ، أو يزيغ علماً وإيماناً فواويلاه، وثالث هذا الثالوث هو رأس الزاوية في الزيغ الذي يسبب كلَّ فتنة في اتباع المتشابه والتأويل.

٩ - وجه اشتمال الكتاب على متشابهات بجنب المحكمات موجَّه في معنى التشابه والإحكام كما بيّناه، فليس التشابه أمراً قاصداً في قصورٍ دلالي وإجمالٍ متعمَّد حتى ينافي بيان القرآن، بل هو كأصل مما لا بدّ منه في عرض المعارف الإلهية ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، وفي عرض المنسوخ كما

الناسخ، وهو كهامش على ذلك الأصل طبيعةُ الحال في مختلف الإدراكات والاستعدادات لحدٍّ تصبح آية محكمة عند جماعة متشابهةً عند آخرين، حيث المتشابه - في أوضح تعريف به - ما اشتبه علمه على جاهله، والتشابه في كلّ حقوله هو لزام الكُتب العلمية على الإطلاق، فضلاً عن القرآن الذي يحمل كلّ ما تحتاجه البشرية إلى يوم القيامة - إلَّا ما بالإمكان أن يحصل عليه - ففي حقل التشريع الكافل لكافة الحاجات يستحيل عدم التشابه لكافة المكلفين قضية اختلاف الفاعليات والقابليات والاستعدادات في تفهم الكلام.

والمشكلة العويصة إنما هي المتشابهات التي لا تفسير لها حكيماً صالحاً ولا نجد هكذا التشابه في القرآن عن بكرته، فإن لكلٍّ متشابهة من آياته محكماً قد تكون هي نفس المتشابهات بإمعان النظر وإجالة الفِكَر، اللهم إلّا المتشابهات التأويلية التي ليس على أهل القرآن تأويلها، لأنه راجع إلى الراسخين في العلم، أم لا يعلمه إلّا الله حيث يختص علمه بالله.

١٠ - وأما الراسخون في العلم وموقفهم من علم التأويل إيجابياً وسلبياً، فلأن الرسوخ في شيء هو التمكن فيه بلا تزعزعٍ وتزلزلٍ تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّانة، فالراسخون في العلم - إذاً - هم المتمكنون فيه الذين لا يختلفون في علمهم ولا يتخلفون.

والعلم يعمّ علم المعرفة وعلم العقيدة وعلم الإيمان والأخير أثبت مهما كان الأولان من أثافيّه وأسّه وأساسه، فقد يثبت الراسخ في علم المعرفة والعقيدة ولا ثبوت له في علم الإيمان والثابت في علم الإيمان ثابت - لا محالة - في علم المعرفة العقيدة على أية حال.

ومن الأوّلين - وهم الأدنون في صنفي الراسخين - علماء أهل الكتاب دون المعصومين: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[١] فإنهم من الذين هادوا، هوداً ورجوعاً إلى الإيمان بالله علماً وعملاً صالحاً بعد سؤال الرؤية جهلاً وعملاً طالحاً، وساحة العصمة القدسية براء من الجهل والجهالة على أية حال، فهم من دون المعصومين عليهم السلام.

والراسخون في العلم في آية التقسيم قد يشمل الأوّلين على هامش الآخرين، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومون عليهم السلام هم أفضل الآخرين، كما أن الأولياء دون المعصومين هم أفضل الأولين، فليس ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ هنا ليختص بالآخرين فضلاً عن أفضلهم[٢].

والتفسير بهم ليس إلّا من جري التأويل لأصدق مصاديقهم في العلم والايمان، و﴿ٱلْعِلْمِ﴾ هنا بمناسبة المورد هو العلم بالقرآن، وهو بصورة طليقة لائقة طليقُ العلم به في مثلّثه: معرفة وعقيدة وإيماناً قلبياً، وكلٌّ منها قد تكفي للخروج عن «زيغ» الذي يدفع إلى اتّباع المتشابه، مهما كان الزيغ في العلم قد يدفع إلى اتباع المتشابه كزيغ العقيدة والإيمان، فلا بدّ إذاً من رسوخ في الإيمان كأصل، ومن ثمَّ رسوخ في العقيدة التي هي لزام الإيمان، ورسوخ في علم المعرفة.

وأفضل الراسخين في العلم هو أفضلهم في هذه الثلاث، ثم الراسخ في علم الإيمان - على مراتبه - ومن ثمَّ الراسخ في المعرفة - على مراتبها[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٢) الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة ووائلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عفَّ بطنه وفَرْجَه فذلك من الراسخين في العلم».

(٣) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام، وفي النبوي صلى الله عليه وآله وسلم أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه =

ومما يُشْعرنا أنّ أصل العلم هنا هو الإيمان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١] حيث الخشية هي من مخلّفات الإيمان قدره، فقد يكون عالماً عقلياً ومعرفياً وليس له ذلك العلم الإيمان الذي يخشى به الله، فهو - إذاً - العلم الخاشي.

ثم الواو في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ كما تتحمّل العطف، إنهم يعلمون تأويله كما الله مهما اختلفت الدرجات، كذلك الاستئناف، أنهم لا يعلمون تأويله كله، فما علموا منه فهو، وما جهلوا منه اعترفوا بجهلهم والإيمان به كما علموا منه كما في العلوي عليه السلام حيث سأله رجل هل تصف لنا ربّك نزدد لهُ حبّاً ومعرفة فغضب عليه السلام وخطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد الله بما دلّك عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من معرفته فأتمَّ به واستضىء بنور هدايته فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذ ما أوتيت وكُن من الشاكرين وما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الهداة أثره فكلّ علمه إلى الله ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين واعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السُّدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كلّ من عند ربنا فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه (عن كهنه) منهم رسوخاً[٢].

= إلّا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب (الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .).

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) في النهج والاحتجاج في كلام لعلي عليه السلام في ذم القضاء السوء - إلى أن قال -: وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه - فذكر الآية ثم قال: - وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تُحصى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تُكشف الظلمات إلّا به.

ففصل القول هنا في الراسخين في العلم أنهم يعلمون من تأويل القرآن ما علمهم الله دون مَن سواهم، ويجهلون ما اختص الله بعلمه من التأويل، ومما يعلمونه تأويل الأحكام تأويلَ المبدأ والختام، فلهم في تأويل مبادئ الأحكام استنباط غير المنصوص في القرآن سناداً إلى تأويل المنصوص، وليس لغير المعصومين ذلك التأويل اللهم إلَّا القليل الذي له دليل أو العليل الذي لا يروّي الغليل.

فالمنزلة الوسطى والطريقة المُثلى في موقف الراسخين في العلم من علم التأويل هي ألّا يخرجوا من علم التأويل جملة، ولا يدخلوا فيه جملة، بل هم عوان بينهما، يعلمون منه ما علمهم الله من واجب المعرفة الواجبة لأئمة الأمة، ولا يعلمون ما اختص الله بعلمه.

والمستفيضة في حصر الراسخين في العلم في المعصومين تعني أفضلهم وأعلاهم، كالتي تحلق لهم علم التأويل حيث تعني غير ما اختص الله بعلمه منه[١].

إذاً فحصر الوقف عند اسم الله تعالى باستئناف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ إخراج لهم عن أن يعلموا شيئاً من التأويل من جليلٍ أو قليلٍ، اطلاعاً لطلعه واستنباطاً لغامضه ووامضه واستخراجاً لكوامنه، حطاً لهم بذلك عن رتبة استحقوا الإيفاء عليها واطلاع شُرُفها، فإن الله تعالى قد أعطاهم من نهج السبيل وضياء الدليل ما يفتحون به المُبْهَم ويصدعون به الظلم، امتيازاً لهم كقادة عن سائر الأمة مقودين، وعلمهم بقسم من ذلك التأويل مُسْتَمَدٌّ من علم الله، فلا معنى للوقوف بهم دون منزلتهم، والإحجام عن إيصالهم إلى أقصى هذه المنزلة السامية.

---

(١) في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم.

ثم الوقف عند ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ توفية للاستثناء حقه بإدخال المعصومين فيه، مزية لهم عمن سواهم بعلمٍ من التأويل، معرفة بمداخله ومخارجه، وسلوكاً لمحاجه ومناهجه المباهج.

والمنزلة العوان - الوسطى - بين المنزلتين هي اللائقة بهم، اللابقة لهم، تنزيلاً لهم عن ساحة العلم بالتأويل ككلٍّ مساماةً لله وعوذاً بالله، وترفيعاً لهم عن قاعة الجهل به ككلٍّ مساماة لسائر الأمة وعوذاً بالله.

فحصالة القول هنا وأصالته أنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لا سواه، حيث يراد تأويله كلُّه بأسره دون إبقاء، فإن معرفة كُنْهِ الذات والصفات والأفعال الربانية وعلم الساعة وما أشبه خاصة بالله.

كما أنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ بفارق أنهم لا يعلمون كلّ التأويل و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ هو من الدليل على جهلهم بقسم من التأويل، بل ما علمهم الله فإنهم لم يعلموا ما علموا من التأويل إلّا بما علمهم الله القدر الصالح لقيادة العصمة وعصمة القيادة[1].

وقد يوسع نطاق ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ تقابلهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فكما الزيغ دركات كذلك الرسوخ في العلم درجات.

وكما أن أفضل الراسخين هو الرسول ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام كذلك أرذل الزائغين هم الذين جعلوا القرآن عضين، يعطفون القرآن على الرأي حين يعطف هؤلاء الرأي على القرآن، ويعطفون الهدى على الهوى حين تُعطف الهدى على الهوى.

---

(١) الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلّا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب.

فكل تفسير أو تأويل للقرآن بعيد عن جادة الصواب هو من زيغ القلب، كما أن صالح التفسير والسكوت عما لا يعلم من تفسير أو تأويل، ذلك من الرسوخ في العلم.

١١ - ولا يخص التأويل هنا تأويل ما تشابه منه بل والمحكمات، حيث التأويل يعني المأخذ بدائياً والمآل نهائياً، ولقد فصلنا القول فيه في مدخل التفسير فلا نُعيد، والجدير بالذكر هنا أن للمتشابه تأويلين وللمحكم تأويل واحد، مهما كان لكلّ بطون.

١٢ - كما وقد سبق البيان في الفارق بين التأويل وتفسير المتشابه.

ويا للراسخين في العلم من خنوعٍ وخشوعٍ في جَنْبِ الله في دُعاء السلب والإيجاب:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾:

وترى أن إزاغة القلب هي من الله ولا سيّما بعد إذ هدى، وخاصة بالنسبة للراسخين في العلم؟ إنها من العبد حين يَزيغ فيُزيغ الله قلبه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وإن كان بعد إذ هدى، وأما الراسخون في العلم فدعاء السلب لهم تعني أنهم لا يملكون في أنفسهم هدىً لولا تثبيت من الله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[2] لا سيّما وأن الراسخين هنا تشمل مع المعصومين سواهم، الذين هم في خطر الزيغ من أنفسهم فالإزاغة من الله.

فقد تعني هذه الدعاء لهم ككلّ: أدم لنا ألطافك وعصمتك وهُداك ولا تَكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً، ولا تَبْتلِنا بأمر إمر يثقل علينا القيام به

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

والخروج إليك من حقه فتزيغ له قلوبنا، فهي - إذاً - كمثل ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾(١).

وقد تعني الإزاغة ترك التوفيق عن زيادات الهدى بنقصان الاهتداء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(٢) فقد سألوه - إذاً - أن يلطف لهم بكثرة الخواطر وقوة الزواجر في فعل الإيمان حتى يقيموا عليه طيلة أعمارهم ولا يتركوه في مستقبلهم فيستحقوا بتركه وفعل الكفر - بدلاً منه - أن يزيغ الله تعالى قلوبهم عن الثواب، فاعلاً بهم مستحق العقاب.

وقد تعني - لا سيّما بالنسبة للمعصومين - خضوعهم واستكانتهم بإنابتهم إلى الله على أن ترك الإزاغة حاصل لهم لرسوخهم في العلم، فهي كما ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾(٣) وهو ليس ليحكم إلّا بالحق.

وإنما اختص القلب من بين الجوانح والجوارح بتلك الدعاء لأنه شريف الأعضاء جانحة وجارحة، فإنه قلب الروح وهي عمّاله وتحت إمرته، فإذا اهتدى القلب اهتدت، وإذا زاغ زاغت واحتدت(٤).

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ رحمة خاصة لدنية تَعْصِمُنا عن الزيغ أياً كان من دركاته، حيث الرحمة تعني كلّ درجاتها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١١٢.
(٤) الدر المنثور ٢ : ٨ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: اللّهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت: يا رسول الله ﷺ إنّ القلوب لتتقلب؟ قال: نعم ما من خلق الله من بشر من بني آدم إلّا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فإن شاء الله أقامه وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، قلت: يا رسول الله ﷺ ألّا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال بلى قولي: اللّهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني.

وإنما تطلبوا إيجاب الرحمة بعد سلب الزيغ لأن هذا السلب لا يُغني عن ذلك الإيجاب، فقد يكون عواناً بين سلب الزيغ وإيجاب الرحمة فهو من المستضعفين الضالين، كما الزائغون من غير المغضوب عليهم والمرحومون هم من المهتدين إلى الصراط المستقيم، فلذلك ثني هنا الإيجاب بعد السلب تكملة للهدى.

فقد تنضم دعاء السلب والإيجاب هذه من الراسخين في العلم في خِضَّم كلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث التعلق بكل ما سوى الله زيغ، والتعلق بالله هدى ورسوخ في العلم وبينهما عوان.

أو يقال هناك زيغ في القلوب وهنا رسوخ في العلم وبينهما عوان لم يذكر وهو القلب السليم غير الراسخ فيه العلم، فلا هو يفسر المتشابهات زائغاً ولا هو يعلم تفسيراً أو تأويلاً صالحاً، كالعوام من المؤمنين الذين لا يفهمون القرآن.

ومن اتباع المتشابه الجدال والمراء فيه ونثره نثر الدقل تأولاً له على غير تأويله وتراجعاً فيه ضرباً لبعضه ببعض، كما يروى متظافراً عن رسول الله[١].

(١) الدر المنثور ٢: ٥ - أخرج جماعة عن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ [آل عِمرَان: ٧] فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم - ولفظ البخاري -: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله باحذروهم - وفي لفظ لابن جرير - إضافة: والذين يجادلون فيه، وفيه عنه ﷺ قال: إن في أمتي قوماً يقرأون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله، وأنه خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض - قال -: وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به، وفيه أخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود: إن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد وإن القرآن نزل من سبعة أحرف حلال وحرام ومحكم ومتشابه وضرب أمثال وآمر وزاجر=

وزيغ القلب يعمُّ جانب الإيمان إلى جانب العلم والعقل، فكل ضيق للإنسان يتطلب ضيقاً في فهم القرآن.

نظرة ثانية إلى آية التقسيم:

﴿هُوَ ٱلَّذِي...﴾ تحصر إنزال الكتاب ككلٍّ في الوحي، فليؤمن المؤمن به كلِّه - بما لا يفهمه إلى ما يفهمه - دون تقحم في المتشابه ما لم يجد لتأويله صالح السبيل، أو وفي محكمه صالح التأويل.

= فأحلّ حلاله وحرّم حرامه واعمل بمحكمه وقف عند متشابهه واعتبر مثاله فإن كلًّا من عند الله وما يتذكر إلّا أولو الألباب، وفيه أخرج ابن جرير ونصر المقدسي في الحجة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: نزل القرآن على سبعة أحرف المراء في القرآن كفر ما عرفتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.

وفيه عن ابن عباس قال: إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفقٍ نجا ومن أوغل فيه بعنفٍ غوى أخبار وأمثال وحرام وحلال وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء وإياكم وزلة العالم.

وفي نور الثقلين ١ : ١٣٣ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: ثم إن الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل وقسماً لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه ولطف حسّه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام وقسماً لا يعرفه إلّا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم وإنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار لمن ولاه أمرهم فاستكبروا عن طاعته تعززاً وافتراءً على الله واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جلّ اسمه ورسوله ﷺ.

وفي تفسير العياشي عن سماعة بن مهران قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أكثروا من أن تقولوا ربنا لا تزغ... ولا تؤمنوا الزيغ، وأصول الكافي عن هشام بن الحكم قال قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ربنا لا تزغ... حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها، أنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ولا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدقاً وسرّه لعلانيته موافقاً لأن الله لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهر منه وناطق عنه.

ومهما اشتمل القرآن على مُتشابهات على ضوء المحكمات، فالأصول الدقيقة للعقيدة وأحكام الشرعة ككل هي من ضمن المحكمات التي لا تشابه فيها.

أجل ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أُمًّا للمتشابهات - لا لأنفسها أيضاً مهما كان من الكتاب - فالإضافة إذاً ليست لامية بل هي بتقدير «من» أمٌّ من الكتاب كما إن المتشابهات وُلدٌ من الكتاب والكتاب يجمعهما، حيث يستثار بها دفائن مدلولاتها، وأمًّا لمبتغي المعرفة عن أصل الشرعة والشرعة الأصيلة في حقلي الأصول والفروع.

ذلك - فأما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق الناصع الناصح، وضلال عن سوي الصراط فطرياً وعقلياً وواقعياً، هم أولاء الأنكاد يتركون الأصول الواضحة التي تقوم عليها العقيدة والشرعة والمنهاج العملي والعقيدي والعلمي للحياة، ويجرّون وراء المتشابه الذي لا يفهم بظاهره البدائي، يتبعونه على تشابهه، تأويلاً عليلاً كليلاً دونما أي دليل، حيث يختلقون فيه مجالاً للفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الأفكار، نتيجة الاقتحام فيما لا مجال لتأويله اللهم إلّا لأهله أم عن سبيله الواضح ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

ولأن التأويل من الأول: الرجوع، فهو الباطن مأخذاً ومرجعاً للمحكمات كما للمتشابهات، فمن التأويل ما يعلمه من لطف فهمه وهم الأولياء، ومنه ما يعلمه المعصومون فمنه تأويل الأحكام فإنهم سناداً إلى مآخذها ونتائجها يستنبطون فروعاً أخرى لا تدل عليها ألفاظها.

ومنه ما لا يعلمه إلّا الله كالحقائق الأصيلة - مآخذ ونتائج - للقرآن، فإن مصدره غيب عمن سوى الله فلا يعلمه إلّا الله، فذلك مثلث من التأويل ولكلٍّ أهله.

ويقابلهم في تلك المواجهة المضلّلة ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ حيث يعتمدون على المحكمات كأصول، ثم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا في السُّدد المضروبة عليهم من تأويله، وأما إرجاع المتشابه إلى محكمه استيضاحاً لمعناه، أم إزاحة للتشابه بالتدبر اللائق فيه، فهما ليسا من اتباع المتشابه حتى يدخلا في زيغ التنديد، بل هما مما أمر به أهل القرآن أن يدّبروا آياته فيتذكر أولو الألباب: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ ناتجةَ الرسوخ في العلم ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ دون السطحيين القشريين الذين تخدعهم قُشور من العلم، فيخيَّل إليهم أنهم يعلمون كلّ شيء، وأن لهم الاقتحام في خضم السدد المضروبة المتشابهة من علوم القرآن العظيم، فيقابلون كلام الله - المطلق المحلق على كلّ العقليات والفطريات والواقعيات العلمية - يقابلونه بما صاغتها لهم عقولهم وعلومهم المحدودة، سامحين لأنفسهم كلّ تأويل فيما تشابه منه دون أي دليل على أنهم الجديرون بإدراك كلّ غامض.

وأما أولو الألباب فهم يذكرون أنهم مطلق الجهل أمام علم الله المطلق، يعتقدون كلّ وامض اتضح لهم بتدبر وتفكير فيعملون به، ويؤمنون بما تشابه منه ولم يتضح لهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ محكماً ومتشابهاً - متشابهاً ومحكماً ﴿كُلٌّ﴾ منهما دون فارق ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ - ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ . . .﴾:

نظرة ثالثة إلى آية التقسيم فيها نتيجة البحث عنها بصورة مجملة:

المستفاد من آية التقسيم أمور تالية:

١ - تقسيم القرآن إلى محكمات ومُتشابهات حاصر فيما تعني دلالته من

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

آيات، دون الحروف المقطعة التي هي برقيات رمزية تخص الرسول ﷺ وذويه المعصومين، ثم لا إجمال ولا إبهام فيما يُراد دلالته محكمة أم متشابهة.

٢ - ليس التشابه في المُتشابهات من الناحية الدلالية فإنه خلاف الفصاحة والبلاغة الساذجة فضلاً عن القمة العليا لأعلى درجات الإعجاز في القرآن، وإنما التشابه الذي يزول بالتأمل في المُتشابهة أو بالرجوع إلى محكمها هو التشابه اللفظي كالأسماء والصفات المشتركة الاستعمال بين الله وخلقه، ثم الواقعي كالمحكمات الأحكامية المنسوخة حيث تتشابه الثابتة غير المنسوخة.

وأما التشابه المعرفي والعلمي والعقلي والحسي، فيما يختلف النص أو الظاهر المستقر مع هذه الأربع، فليس مقصوداً في ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ فإنه من المحكمات لفظياً وواقعياً ولا بدّ من الرجوع إلى نفس الآية واتباع دلالتها الظاهرة رفضاً لخلافها في هذه الحقول الأربعة.

والآيات المتشابهات بصورة عامة هي (٣٦) قسماً بضرب التشابهات الست في نفسها، تخرج منها المكررات والباقية بين ما تضمنه الآية وما هي متشابهة من جهات أخرى.

٣ - التشابه والإحكام أمران نسبيان في القرآن حسب مختلف الاستعدادات والتأملات، فلا متشابهة إطلاقاً لأهل بيت الرسالة صلوات الله عليهم أجمعين، وكلها متشابهة لمن لا يعرف اللغة العربية وبينهما عوان.

٤ - زيغ القلوب الذي يخلِّف اتباع ما تشابه منه يعم الزيغ العلمي والعقلي والعقيدي لمكان «زيغ» دون «الزيغ» واتباع ما تشابه منه بين مستحيل ومحظور ومحبور، فالأول هو اتباعه على تشابهه دون تأويل صالحاً أو طالحاً، والثاني تأويله دون سناد إلى دليل، والثالث هو التأويل بصالح

الدليل، والاتباع يعم العلمي والعقيدي، والعملي فيما فيه عمل، فليس البقاء على التشابه دونما تفسير اتباعاً له، ولا اتباع ما تشابه بعد تفسيره الصحيح اتباعاً محظوراً، وإنما المحظور هو اتباعه بتفسير وتأويل عليل دخيل.

٥ - لا يعني التأويل تفسير النص أو الظاهر إلى خلافه رغم اشتهاره فإنه تأويل عليل للتأويل، إنما هو الإرجاع، تأويلاً للمتشابه إلى المحكم ليزول التشابه، ثم تأويلاً للمحكم إلى مبدئه ونتيجته هنا أم بعد الموت، ومن التأويل ما يختص بالله ككلٍّ غيب مختص به، ومنه ما يختص بالمعصومين كتأويل الأحكام فإنهم يعرفون مناطات الأحكام بما علمهم الله بالرسول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[1] فهو ﷺ يحكم بين الناس في كافة الحقول بما أراه الله، إراءة خاصة له بعد عامة القرآن، ومنها إراءة تأويلات الأحكام حتى يأهل للإفتاء في كلّ صغيرة وكبيرة بتلك الإراءة.

ومن التأويل ما يعمُّ أهل القرآن على درجاتهم، تأويلاً للمتشابه بنفسه أم بالرجوع إلى محكمه، أم تأويلاً لبعض الأحكام إلى مآخذها المنصوصة بالخصوص كتاباً أو سنة، أم مُتلقاة منهما بصورة قاطعة، كمأخذ الإسكار للخمر حيث يعمُّ التحريم إلى كلّ مسكر وإن لم يكن خمراً بالفعل، كمن يشرب العصير الكثير ثم ينام وجاه الشمس ثم يسكر.

٦ - الراسخون في العلم يعم كافة المؤمنين غير الزائغة قلوبهم مهما كانوا جهالاً لا يعلمون من القرآن حرفاً، مهما كان أفضل الراسخين في العلم هم الرسول والأئمة المعصومون من عترته عليهم السلام، وبينهما متوسطون.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

والواو في ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ في العلم تعني كلا العطف والاستئناف، عطفاً للتدليل على أن منهم من يعلم جانباً من التأويل، واستئنافاً للتدليل على اختصاص عامة التأويل بالله والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٩)﴾:

فاعترافة أولى لأولي الألباب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ جامعة لمثلث الإيمان بالتوحيد والنبوة وكتاب الشرعة ككلّ، وهنا ثانية هي تالية التوحيد في هندسة الإيمان أياً كان: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ...﴾.

ف ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً، هو هنا يوم الجمع، حيث يجمع فيه الناس نشراً وحشراً وحساباً وجزاءً وفاقاً ولا يظلمون فتيلاً.

وإنه جمع يجمع في خِضمّه كلَّ متطلبات الجزاء الوفاق لكلِّ عامل صالحاً أو طالحاً، ناساً وغير ناس، وما ذكر الناس هنا وفي كثير مثله إلّا لأنهم المحور الأساس في شرعة الله.

ومما يؤكّد ذلك الجمع ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أفيخلفه عجزاً أم جهلاً أم تجاهلاً أم بُخلاً أو ظُلماً، وساحة الربوبية براءٌ عن كلّ نقص لأنه «الله» و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ (١٠)﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بهذه الأصول الإيمانية وماتوا وهم كُفّار - كما تعينه ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في التالية - ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ يوم الجمع ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ بعدما أغنت عنهم في حياة الابتلاء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ﴾ لا سواهم ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حيث الكفار دركات أنزلها وأنذلها

رؤوس الكفر ودعاة الضلالة الذين هم وقود نيران الإضلال هنا، فهم - إذاً - وقود النار هناك، يتَّقِد بهم في النار هوامش الكفر المستحقين النار.

فلا وقود - إذاً - للنار إلّا رؤوس الكفر والضلال، كما لا نار هناك إلّا بروزاً لملكوت الأعمال.

فهم الناس في آية الوقود - الأخرى ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) وهم المخاطبون في آية الحصب:

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾(٢) وهم المعنيون بآيات الصلي: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾(٣).

فلأن مثلث الآيات في الوقود والحصب والصلي تعني المشركين والمكذبين بآيات الله فهم - فقط - المعنيون من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا ومن سائر الحصب والصلي هناك وهنالك، ثم من سواهم من الكفار يحرقون بوقودهم اللهم إلّا ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾(٤) إذاً فسائر ما يستحق به النار هي من فروع الشرك والتكذيب بآيات الله، أعني رؤوس الزاوية في الإشراك والتكذيب.

ولأن تلك النار - ككل - تطلع على أهلها من ذواتهم بأعمالهم فليس لهم الفرار عنها إلّا أن يفروا من أنفسهم الشريرة ولات حين فرار، وقد كان لهم أن يفروا منها يوم الدنيا مخالفة لأهوائهم واتباعاً لهدى الله، ولكنهم ماتوا بنيرانهم الجهنمية فليحرقوا بها، وذلك:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٣) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١١)﴾:

الدأب هو السير المستمر، وهو هنا يعم النشأتين، فآل فرعون والذين من قبلهم في دأبهم كانوا دائبين في الكفر والتكذيب بآيات الله وماتوا وهم كفار، فكذلك ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ في دار القرار كما كانوا وقود النار في دار الفرار ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ طبقاً عن طبق جزاءً وفاقاً ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ عدلاً، كما هو أرحم الراحمين ثواباً.

وقد تحتمل ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وجوهاً عدة علّها كلها معنية حيث يسعها أدب اللفظ وعناية المعنى.

فـ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول فاعله محذوف معروف هو الله: كسنته الجارية على هؤلاء وهؤلاء أخذاً لهم بذنوبهم في الأولى والأخرى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[١] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[٢].

أو أنه فاعل: كدأبهم في التكذيب برسل الله ورسالاته وآياته وكأنهم تواصوا به على طول خطّ الرسالات الإلهية.

أو كدأب العذاب في آل فرعون دأبه في هؤلاء الأنكاد الذين هم فراعنة في هذه الرسالة القدسية السامية.

أو أن الإضافة هنا لامية: كالدأب الذي لآل فرعون - منهم في تكذيبهم ومن الله في تعذيبهم - يكون الدأب في الذين كفروا من رؤوس الضلالة.

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

أو كدأبهم في أنه لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً عن عذاب الأولى فضلاً عن الأخرى.

فـ «دأب آلِ فِرْعَوْنَ» على أية حال تحلق على كلّ دأب منهم وفيهم وعليهم ومن الله في الأولى والأخرى طبقاً عن طبق ولا يظلمون نقيراً.



﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ

ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾:

هنا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قد لا يعني كافة الكفار حيث نزلت بعد انتصار المسلمين في بدر كما تعنيه ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ...﴾ فهم - إذاً - بقية باقية منهم في الجزيرة وهم اليهود كانوا يحسبونهم «الناس» الأقوياء لا يُغلبون وهم يَغلبون، فنزلت هذه الآية مُنذِّدة بهم مُهدِّدة لهم بغلَب بعد غلَب... ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1].

هذا - وقد تعني الكفار ككلّ أنهم مغلوبون على طول الخطّ كأصل

(١) الدر المنثور ٢: ٩ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم عذاب الله بما أصاب قريشاً فقالوا: يا محمد لا يغرنّك من نفسك إن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ [آل عمران: ١٢].

أصيل في التقاء فئتي الإيمان والكفر كما ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] وليس غلَبُ الكفار على المؤمنين أحياناً إلّا خطأً في قبيل الإيمان كما كان في حرب أُحد ما كان من تخلفهم عن أمر النبي ﷺ.

وهذه الآية من الملاحم القرآنية لا سيّما في خصوص يهود المدينة حيث غُلبوا كما قال الله في حرب بني قينقاع، وما كان لهم حول ولا قوة نقضاً لهذه الملحمة تجميعاً لقواتهم الهائلة مهما شرَّقوا أو غرَّبوا وزمَّروا وعربدوا، مما يدل على صادق الوحي في هذه الإذاعة القرآنية.

ولأنَّ الحشر هو إخراج جماعة عن مقرهم بإزعاج، إذاً فجهنم هي جحيم النار في دار القرار، مهما سبقتها جحيم البرزخ فإنها برزخ في ذلك الحشر الحاشر الحاشد ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي مهده الله لهم بما مهدوا له في أنفسهم في هذه الأدنى.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾: - الناس الأبطال -! ﴿ءَايَةٌ﴾ لغلَب المسلمين عليكم أو إمكانيته القريبة ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ في قتال حامية دامية ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي الضفة الإسلامية السامية ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ هم مشركو قريش، والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فيهم قلة فارسة، والمشركون ألف وفيهم كثرة فارسة، مما كان بطبيعة الحال يخلق لهم كارثة لقلة عَددهم وعُددهم، ولكنّما العدد الإيمانية الكثيرة سدَّت فراغ العُدَد الحربية اليسيرة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

ومما نصرهم الله في هذه المعركة الصاخبة أن ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ حيث تعني فيما تعنيه أن الكفار كانوا يرون المسلمين مثليهم رغم أنهم ثلثهم، مما يهين عزمهم ويفشّل حزمهم كما فعل.

وتلك الإراءة المعاكسة كانت من الجانبين لصالح المسلمين، فهنا ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ توهيناً لعزمهم، وفي الأنفال ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[١].

هاتان القلتان المرئيتان هما من الحِيَل الربانية لصالح الفئة المؤمنة إضافة إلى واقع الإيمان الصامد الذي لا يهدف لأصحابه إلّا إحدى الحسنيين ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بحساب دونما فوضى جزاف ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التأييد المديد ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وقد تعني ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ كلتا المعاكستين أن: يرى الكافرون المؤمنين مثلي أنفسهم، فهم إذاً ألفان ستة أضعاف العدد الواقع، ويرى المؤمنون أنفسهم مثلي الكافرين وكذلك الأمر، وهما معاً تشجيع للمؤمنين وتوهين للكافرين، وأما أن يرى المؤمنون أنفسهم مثلي أنفسهم (٦٢٦) وهم يرون الكافرين ألفاً فليس مما يشجع المؤمنين فضلاً عن توهين الكافرين.

فالأصل هنا في رؤية الكافرين أنهم يرون المؤمنين مثليهم رأي العين، وفي المؤمنين أنهم يرونهم قلة بجنبهم ويرون أنفسهم مثليهم رأي العين ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿زُيِّنَ﴾ مجهولاً لا بدّ له من فاعل، فهل هو الشيطان حيث التزيين هنا في مسرح التنديد مفصولاً عن حساب الله ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾؟ وليس خالق الخلق بزينته إلّا الله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[1]! وهنالك وَفْرٌ من الآيات تنسب زينة الحياة إلى الله ك: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2] - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[3] - ﴿... كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ... وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4]!.

نقول: هنا تزيين هو من فعل الله تحسيناً لخلقه كلًّا على حده: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[5] ولا تنديد فيه إذ لا إضلال.

وهُناك تزيين زيادة عن الواقع فيه إضلال وإدغال، وهو من فعل الشيطان بالنسبة لهؤلاء الذين يمشون على هواه، سواء أكان تزييناً للحياة الدنيا أكثر مماهيه أم تزييناً لأعمالهم السيئة حتى يروها حسنة، فهو من الشيطان إضلال ومن الله تعالى عقوبة على ضلال إذ يخلي بينهم وبينه يضلهم ويغويهم، يعدهم ويمنيهم ولا يعدهم الشيطان إلّا غروراً.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤.
(٤) سورة الأنعام، الآيات: ١٠٨-١١٠.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٧.

فهنا الله يُزين لهم أعمالهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[١] - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾[٢].

لا فحسب بل ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . .﴾[٣] فـ ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٤] مهما عنى التقييض والإرسال عدم الحيال بينهم وبين الشياطين حيث يكلهم إلى أنفسهم فهم يعمهون.

وأما حب هذه الستة المذكورة في الآية المتوحدة في حبِّ الشهوات فهي من الله تمشية لحياة الجسد، مطية لحياة الروح وبلية في مدرسة الدنيا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٥].

فذلك - إذاً - حبٌّ لذريعة الحياة العليا، أن يتذرع بها الإنسان إليها، ناظراً بها إليها، لا ناظراً إليها أصيلة، بل وسيلة إلى رؤية الحقائق في الأولى والأخرى.

ثم هو من الشيطان تركيز على الشهوات، وحصر للحياة في هذه الأدنى، أن يزينها أكثر مما هيه فيجعل الحياة الأخرى لاغية كأن لا حياة إلّا هذه الدانية وهنالك الطامّة الكبرى!.

وثالوث الشهوات - نساءً وبنين وأموالاً - هي أساس البلاء والهوة الجارفة لمن أبصر إليها فأعمته، وهي أساس الكمال لمن أبصر بها فبصرته.

ولأن شهوة الجنس تحتل الصف الأول من الشهوات نراها رأس

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة النمل، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٧.

الزاوية، وهي كما هيه أم المشتهيات، ثم من أهم حصائلها «البنين» وقد تعني هنا الأعم من البنات.

ثم مربعة الأموال التي تستخدم لأريحية الحياة التي تحتل رأس الزاوية فيها ﴿ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾، وهي ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ كرأس الزاوية في الأموال، ثم ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة وهي جيادها، ثم «الأنعام» وأخيراً «الحرث».

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتمتع بها فيها ويشتري بها الحياة الأخرى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ والثواب لمن جاز شهواتها وهي خامدة إلَّا عما يتذرع بها لما عند الله.

ومهما كانت الحياة الدنيا خيراً كمزرعة ومدرسة فالحياة الأخرى خير منها كمنتوجة صالحة:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)﴾:

﴿قُلْ﴾ يا رسول الهدى والداعية إلى كلّ خير ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فإنه شرٌّ من ذلك للذين طغوا عند ربهم، ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الحياة الدنيا إذ لم يتناسوا فيها - وهي حياة البُعد والحجاب عن الرب - إنهم عند ربهم وبمحضره فاتقوا.

فـــــ ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ - ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ - ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وأين ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الأخرى من ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الأولى، إذ تكشف الغطاء فيها كثواب دائب بما كشفت كما سعوا في الأولى.

وأين ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ - ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الأخرى من النساء عند ربهم في الأولى، ثم لا خبر هنا عن خصوص البنين والأموال لأنهما كما

النساء ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[١] وإنما يفرد بالذكر في عالم المضايقات ثم الأموال يوم الأخرى لا حدّ لها ولا حساب، وهي حاصلة هناك دون تحصيل.

وقد تعني ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ إضافة إلى الطهارة عن التدنس طهارة عن كلّ تنقُّص أنثوي من هرم وضعف وقبح في المنظر والمعشر، فهن يظللن مطهرات كما كن على طول خط الحياة.

ولماذا ﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾ للمؤمنين، لا وأزواج للمؤمنات؟ قد يعني اختصاص الذكر - إن كان - التجافي عن ذكر أزواج المؤمنات حفاظاً على كرامة العفاف! ولكنهن ذكرن في مسارح النكاح مرات عدة للدنيا، ولا عفاف عن الحلال حتى يعف عن ذكرهن في مسرح الزواج يوم الأخرى، وعلّ ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ تعمّ القبيلين كما ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ و﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا اختصاص في شيء من ذلك بقبيل الرجال، و﴿لِلَّذِينَ﴾ تغليب لجانب الرجال، و﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ اعتباراً بلفظ الجمع المكسر وإبرازاً أكثر لقبيل الرجال، فإن رغبة الرجال فيهن أكثر من رغبتهن فيهم.

إذاً فالنقلة الطفرة من ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ إلى ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نقلة قاصدة إلى بلورة الحياة الأخرى وركيزتها الأحرى، فجنّة الرضوان هي رضوان الجنات ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ من هم همّهم الشهوات هنا وهناك مهما كانت محلّلة مرغبة وكثير ما هم.

ومَن هم همّهم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقليل ما هم، وهكذا يؤدبنا ربنا ويخطو بنا من شهوات الدنيا إلى شهوات الآخرة، ومنها إلى أشهى الرغبات

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

الروحية ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾! وهو أكبر كما ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

هنا وهناك ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقابل كلّ الجنات وما فيها من كافة الشهيات، تدليلاً على أن قليلاً من رضوان الله خير من كثير من سائر الجنات، مهما كان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٢) فإن جنة الرضوان هي الأصل والأخرى من فروعها، كما الروح هو الأصل في الكيان الإنساني والجسم فرعه.

وقد يعني ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على ضوء رضوان الله عن العبد، رضوانَ العبد عن الله، ولأنه ذريعة لرضوان الله، كما ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾(٣).

وإنما عدِّي «رضوان» بـ ﴿مِّنَ﴾ حيث الأصل هو رضوان من الله عن عبده وليس العكس إلّا تقدمته.

ذلك، وإلى مواصفات للذين اتقوا عند ربهم في قال وفعال:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾:

هؤلاء الأكارم هم في خماسية من واقعية الصفات الإيمانية بعد قولة الإيمان وطلبة الغفران والاتقاء عن النيران، دروب ثمان إلى جنة الرضوان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٣) سورة البينة، الآية: ٨.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

والنصب في هذه الخمس على الاختصاص: أخصّ من القائلين ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ . . .﴾.

وهذه الصفات تحلق على كافة الصفات الإيمانية على الإطلاق، كما وتحلق كلٌّ منها على سائر الخمس، فالصابر في الله حقاً هو الصادق حقاً كما الصادق صابر، والقانت حقاً لله هو الصابر الصادق المنفق في الأسحار كما المنفق والمستغفر صابر صادق قانت.

ذلك - وفي كلّ صفة من هذه الخمس تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإيمان، ففي الصبر ترفُّع على الآلام دون انكسار وتراجع، ثباتاً على أعباء الدعوة واستعلاء على الشكوى.

وفي الصدق اعتزاز بالحق المطلق ومُطلق الحق في ظلاله، ترفعاً عن ضعف الكذب وكذب الضعف فما الكذب إلّا ضعفاً عن ناصع الحق اتقاءً عن ضررٍ أو اجتلاباً لنفع.

وفي القنوت لله أداءٌ - قدر المستطاع - لحقِّ الربوبية وواجب العبودية وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت الخنوع لله الذي لا قنوت لسواه.

وفي الإنفاق تحرّر من أسر المال بأسره، وانفلات من ربقة الشحّ، وإعلاءٌ لحقيقة الأخوَّة الإيمانية على شهوة اللذة الشخصية وتكافل بين الناس يليق بعالم الناس خروجاً عن عالم النسناس.

ومن ثم الاستغفار بالأسحار يلقي ظلالاً عميقة الندى، قريبة الهدى، كما وصيغة الأسحار راسمة ظلال فترتها قُبيل الفجر حيث يصفو فيها الجوُّ وتترقرق فيها خواطر النفس، تلاقياً حفيفاً بين روح الإنسان والكائنات ككلّ اتجاهاً إلى خالق الكون.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾:

هذه من غرر الآيات الجامعة لبراهين التوحيد، الجامعة لكلٍّ مداليل آيات التوحيد آفاقياً وأنفسياً، يجدر بنا أن نسبر أغوار البحث فيها كما سُبرت.

هنا سؤال يطرح نفسه بطبيعة الحال أن كيف يشهد الله لنفسه وطبيعة الشهادة أن تكون لإثبات الدعوى من غير مدعيها عند فقدان أي برهان عليها؟ وإلّا فلكلِّ مدعٍ أن يشهد لنفسه دون حاجة إلى سواه؟!.

هنا - بعد التأكد من معنى الشهادة أنها أداؤها عن حضور كامل وهو بالنسبة لله الحضور المحلِّق على كلّ محضر لتلقي الشهادة وإلقائه قبل خلق المشهود وبعده وبعد فنائه - هنا نقول أولاً: إن شهادة الله بوحدانيته قد تخص الذين يعتقدون في وجوده ثم هم به مشركون، وهم معترفون أنه الإله الأصيل وقد اتخذ لنفسه شركاء، فأفضل من يشهد لوحدانيته هو نفسه المقدسة، إذ هو الذي يعلم شركاءه لو كانوا، وهو الذي يتخذهم لو كان متخذاً لهم، فلمّا ينفي العلم بأن له شريكاً، وينفي اتخاذه لنفسه شريكاً، فتلك إذاً شهادة قاطعة على توحيده: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] - ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

فلأن اتخاذ الشركاء لله لا يُعلم - كأفضل مَعْلَم - إلّا من قبل الله

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

فـ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ هي أفضل شهادة لتوحيد الله وجاه من يفترون على الله أنه اتخذ لنفسه شركاء.

هذا - ولكن شهادة الله على توحيده ليست لتقف عند هذه فحسب، فإنه شهيد بكلِّ حقول الشهادة على ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ. . .﴾.

فقبل كلّ شهادة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ باسمه ﴿ٱللَّهُ﴾: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فـ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[1]؟ كلا يا ربنا حيث أجمع العالمون ملحدين ومشركين وموحدين على توحيد اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ لله فلم يسمّ به أحد إلّا الله، مهما اتخذوا من دونه شركاء، إذ لا يحملون اسم ﴿ٱللَّهُ﴾.

ثم ﴿ٱللَّهُ﴾ في ذاته القدسية يشهد ألا إله إلّا هو، فإن ذاته اللّامحدودة تحيل تعدّده، حيث اللّامحدود لا يتعدّد ولو كان مخلوقاً، وهو في الخلق لا محدودية نسبية، فالماء - مثلاً - دون أي تقيّد بزمان أو مكان أو ألوان ليس إلّا واحداً، ولا يتصور التعدد إلّا على ضوء اختلافٍ ما في أيٍّ من هذه المواصفات.

فاللامحدودية الإلهية - وهي حقها وحاقها - تحيل التعدد، فهو واحد لا بعددٍ ولا عن عددٍ ولا بتأويل عدد، و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] الآلهة إلّا الله مع الله، حيث العدد يحيل ألوهية المعدود أياً كان.

وصفاته - كذلك - ذاتية هي ذاته القدسية، وفعلية هي أفعاله، إنها لا محدودة فلا تعدد في الموصوف بها بنفس السند.

كما وأفعاله المنضدة المنتظمة دون تهافت وتفاوت، وبكلِّ تناسقٍ وتوافقٍ حيث ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[3] ذلك أيضاً دليل وحدة

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الملك، الآية: ٣.

الخالق الناظم الناسق، فتدبيره العجيب وصنعه اللطيف اللبيب وحكمته البالغة وقدرته الحالقة، كلّ ذلك دليل وحدة الصانع الحكيم القدير.

كما وشهد الله بما خلق في أنفسنا ودبر من فِطَر وفكِر وعلوم، فالفطرة شاهدة، والعقل شاهد، والعلم في كلّ حقوله شاهد، شهداء ثلاثة هي من الآيات الأنفسية إضافة إلى الآيات الآفاقية ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المدبرات أمراً، والحاملات رسالات الله على رسل الله، إنها تشهد بوحدة التدبير ووحي الرسالة التوحيدية ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تجد الرسالات الإلهية ملكاً يحمل خلاف التوحيد، أو يعمل في تدبير أمر الكون خلاف التوحيد.

وكذلك ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بالله، فـ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[١] ولا سيّما الرسل والنبيون[٢] وهم الرعيل الأعلى من أولي العلم بالله، فإنهم يزدادون على مثلث العلم لسائر العلماء علم الوحي الرسالي: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٣].

ذلك وأفضل الشهادات الربانية في حقل الكتب الرسالية هو القرآن:

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٢٣ في تفسير العياشي عن جابر قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ...﴾ فإن الله تبارك وتعالى يشهد بها لنفسه وهو كما قال، فأما قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فإنه أكرم الملائكة بالتسليم له بهم وصدقوا وشهدوا كما شهد لنفسه وأما قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]، فإن أولي العلم الأنبياء والأوصياء وهم قيام بالقسط والقسط العدل في الظاهر والعدل في الباطن أمير المؤمنين» أقول: قائماً بالقسط هي صفة لله لإفرادها دون الآخرين المجموعين، مهما حملوا القسط في شهادتهم بالوحدانية، اللّهم إلّا تأويلاً أو حملاً لقسطهم على هامش قسط الله.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

وهي بصورة عامة: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢].

هذا، وكذلك سائر أولي العلم، علماً بالله كما الموحدون، أو علماً بخلق الله، حيث العلوم التجريبية بأسرها - لو خليت وطباعها - تحيل أزلية المادة[٣].

إذاً فالكون بأسره - خالقاً ومخلوقاً، وفي كلّ حقوله - شاهد صدق بكلّ صنوف الشهادة ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا نكير لتوحيده تعالى إلّا نكير فطرته وعقليته وعلمه.

إذاً فـ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: ١ - باسمه ﴿ٱللَّهُ﴾، ٢ - وذاته، و٣ - صفات ذاته، ٤ - وصفات فعله، ٥ - ومن الفِطَر، ٦ - والعقول، ٧ - وبقرآنه، و٨ - ملائكته وسطاء في حمل التكوين والتشريع، ٩ - وأولو العلم الرسل ومن يحذو حَذْوهُم، ١٠ - وسائر أولي العلم حيث الصالح في ذاته يدل على وحدانيته تعالى.

فكل هذه الشهود العشرة هي من ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ منه أو من فعله شهادة عقلية أو علمية أو واقعية، وليست شهادات لفقدان البرهان.

ومهما دخِلت في سائر الشهادات خلاف العدل والقسط، ولكن الله في شهادته وفي ربوبيته ككلّ ليس إلّا: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ تشهد لقيامه بالقسط

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٣) تجد القول الفصل في شهادة العلوم لإثبات وجود الله وتوحيده في كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين» في فصله الخاص.

ألوهيته، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، كما وتشهد سائر الشهداء من الملائكة وأولي العلم، دون أي دَخَل ولا دَجَل أو دَغَل في الشهادة التوحيدية، فإنما هو قسط فوق العدل، وليس ظلماً دون العدل، ولا هي - فقط - عدل، فالقسط من أعدل العدل وأفضله، وهكذا تكون شهادة الله على توحيده: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فعزته الوحيدة غير الوهيدة، وحكمته الوحيدة الوطيدة تشهدان لتوحيده شهادة قاسطة.

تلك هي جملة براهين التوحيد المستفادة من هذه الغرة الكريمة، فكما أن وجود الله يملك كلّ البراهين المثبتة، كذلك توحيده وسائر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فإنه تعالى قائم بالقسط في كافة مسارح ربوبيته بمصارح آياته آفاقية وأنفسية دون إبقاء.

وها نحن نرى على مدار الزمن في التاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخي، أن الفترات التي حكمت فيها شرعة الله وحدها، هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط واستقامت حياتهم قاسطة، في حين نراها في الفترات المتخلفة عن شرعة الله ساقطة.

لذلك نرى آية الشهادة الإلهية - هذه - مع زملائها في لسان الرسول ﷺ «معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب»[١] وذلك لأنهن رافعات الحجاب عن وجه التوحيد كلّ نقاب.

---

(١) الدر المنثور ٢ : ١٢ - أخرج ابن السني في عمل يوم وليلة وأبو منصور الشجامي في الأربعين عن علي قال قال رسول الله ﷺ : وإنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران: شهد الله . . إن الدين عند الله الإسلام - وقل اللّهم مالك الملك . . بغير حساب، هن معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب يقلن يا رب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال: الله إني حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كلِّ صلاة - يعني المكتوبة - إلّا جعلت الجنة مأواه على ما كان فيه وإلّا أسكنته حظيرة الفردوس وإلّا نظرت إليه كلّ يوم سبعين نظرة وإلّا قضيت له كلّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وإلّا أعذته من كلّ عدوّ ونصرته منه.

أقول وفي المجمع روى جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ مثله.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾:

... في الحق ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الطاعة الحقة ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ لله خالصاً ناصعاً دونما خليط من هواك أم أهواءِ مَن سواك، والإسلام في كلٍّ شرعة هو الإسلام لله فيها دونما تخلف عنها قيد شعرة.

إذاً فالدين عند الله في الشرعة الأخيرة هو الإسلام فيها لله، دونما إبقاء على تهود أو تنصر، ولذلك سميت هذه الشرعة الإسلام اعتباراً بمضي أدوار سائر الشرائع في دوره، مهما كانت كلّ إسلاماً في دوره الخاص به، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(١) وهو إسلام الوجه لله بكل وجه في كلّ الأدوار الرسالية، وهو هذا الإسلام الأخير بعد مضي أدوارها.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذا الإسلام وهو أصله وأثافيّه ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ من قبل في كتاباتهم بشارات بهذا الإسلام، ومن بعد في القرآن العظيم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ في هذا الإسلام، ترسباً على شرعة الطائفية وطائفية الشرعة فكفروا بآيات الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بالنسبة لهؤلاء المنحرفين عن إسلام الوجه لله.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم أخصّ من أهل الكتاب، فالذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني، هم لم يؤتوا الكتاب علمياً معرفياً مهما أوتوه مبدئياً، ومن أدلة الاختصاص ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فلا يشمل ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾(٢).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

وهذا الإسلام الذي هو الدين عند الله، ليس فقط إقراراً باللسان فإنه ليس ديناً وطاعة، بل هو تبلور الإيمان وتمامه وكماله[١] دخولاً في جوّ السلم على ضوء الطاعة المطلقة لله.

فالإسلام هو أحسن دين مهما كان الإيمان ديناً وإسلام الإقرار - كذلك - ديناً في حقل الإقرار: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢] - ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣] - ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٤].

إسلام الوجه لله يشمل كلّ وجه في الإسلام وهو الدخول في السلم كافة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٥].

وهكذا يؤمر مؤمنو كلّ الشرائع الإلهية، وحين تنتهي إلى الشرعة الأخيرة فهي هي الإسلام فقط إلى يوم الدين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٦] والإسلام هو التسليم والتسليم هو

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٢٣ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: يعني الذي فيه الإيمان.

أقول: فما ورد من تفسير الإسلام أنه الإقرار وأنه قبل الإيمان، وأنه لا يشرك الإيمان والإيمان يشركه كلّ ذلك يعني الإسلام الأوّل لا الإسلام الذي بعد الإيمان ولا الأعم منه ومن الذي قبل الإيمان.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

اليقين واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل[١].

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أهل الكتاب وسائر الكفار في شرعتك هذه الجديدة الجادة ﴿فَقُلْ﴾ كلمة واحدة قاطعةً للحجاج ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ وأسلموا وجوههم ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ فأنتم إذاً أمثالنا مسلمون بشرعة القرآن، فقد بعث محمد ﷺ بالإسلام كسائر الرسل والنبيين عليهم السلام ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[٢] [٣].

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ وجوههم لله فأسلموا ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ المسلمين منهم والمتولين.

هنا إسلام الوجه لله يشمل كلّ الوجوه المقامة للدين حنيفاً في آية

---

(١) عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي ولا ينسبها أحد بعدي الإسلام هو التسليم. . .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) الدر المنثور ٢: ١٣ - أخرج الحاكم وصححه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله إني أسألك بوجه الله بم بعثك ربنا؟ قال: بالإسلام، قلت وما آيته؟ قال: أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤدّي الزكاة كل مسلم على مسلم محرم أخوان نصيران لا يقبل الله من مسلم أشرك بعدما أسلم عملاً حتى يفارق المشركين إلى المسلمين ما لي آخذ بحجزكم عن النار ألا إن ربي داعيّ ألا وإنه سائلي هل بلغت عبادي وإني قائل رب قد أبلغتهم فليبلغ شاهدكم غائبكم ثم إنكم تدعون مقدمة أفواهكم بالفدام ثم أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه قلت: يا رسول الله ﷺ هذا ديننا؟ قال: هذا دينكم وأين ما تحسن يكفك.

الفطرة، من الوجوه الروحية والحسية، فالإنسان - ومعه كلّ الكائنات - هو أمام الله وجه لا يخفى عليه منه خافية، والمطلوب منه أن يختار إسلام الوجه بكلٍ وجوهه لله، دخولاً في سلم الطاعة المطلقة لله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٢)﴾:

هنا ثالوث من أبعاد الكفر للبعاد عن شرعة الله وإسلام الوجه لله مهما كانوا كتابيين أم سواهم:

١ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحياً وصاحبَ وحي.

٢ - ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فالقتل بحق حق ولكن قتل النبيين ليس إلّا باطلاً لأنهم يحملون بلاغ الحق من الله، فقتلهم قتل للحق.

٣ - ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم حملة الرسالات بعد النبيين أياً كانوا[1].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإذا كانت بشارتهم العذاب الأليم فما هي - إذاً - نذارتهم، فإنما التعبير يشي بعمق العذاب لهم وتحليقه عليهم لحدّ لا بشرى لهم إلّا العذاب!.

---

(١) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: يا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله.

وفي نور الثقلين ١: ٣٢٤ في أصول الكافي بسند متصل عن يونس بن ظبيان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول قال رسول الله ﷺ: إن الله عزّ وجلّ يقول: ويل للذين يختلون الدنيا بالدين وويل للذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وويل للذين يسير المؤمن فيهم بالتقية أبي يغترون أم عليّ يجترون فبي حلفت لأُتيحن لهم فتنة تترك الحليم منهم حيران.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ إذ فسدت فبطلت، وذلك مأخوذ من الحبط وهو داءٌ ترم له أجواف الإبل فيكون سبب هلاكها وانقطاع آكالها، وهكذا تكون أعمال هؤلاء الأغباش قد تنتفخ وتتضخَّم في الأعين ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك، ثم ولا ينصرهم ناصر ولا يعذرهم عاذر، وقد أفردنا بحثاً مفصلاً حول الحبوط من ذي قبل فلا نُعيد.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

سؤال تعجيب وتأنيب، تعجيب للرسول والذين معه، وتأنيب بالذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وتراه نصيباً من وحي التوراة والإنجيل إذ حرفا عن جهات اشراعهما فلم يبق لهم منه إلّا نصيب عسيب؟ وقد أوتوا كأصلٍ كلّ الوحي في الكتابين!.

أم نصيباً من الوحي ككل، فما وحي سائر الكتاب بجنب هذا الكتاب المبين إلّا نصيباً ضئيلاً من الكتاب؟ و﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ حيث تعني الكتابين قد لا يناسبه!.

﴿نَصِيبٗا﴾ هنا قد تتحمل النصيبين ولكلٍّ وجه والجمع أوجه، وخلاصة القول أنهم ما أوتوا كلّ كتاب الوحي وهم يزعمونهم قد أوتوا كله ثم انقطع به الوحي، وتراهم إذا أوتوا كلّ الوحي فلماذا يتولى فريق منهم عن كتاب الله حين يدعون وهم معرضون؟.

هنا ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو كلّ كتابه تعالى، فليس - إذاً - نصيباً من الكتاب، وأعجِب بهم وهم لم يؤتوا إلّا نصيباً من الكتاب وهم لا يرضون بكتاب الله ككل وهو القرآن حَكَماً!.

وقد يعني ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ كلّ ما كتبه الله على عباده ومنه التوراة كما في

الروايات أن اليهود حوكموا - في أحكام عدة كتابية - إلى التوراة فتولى فريق منهم وهم معرضون[١].

ذلك، ولكن الآية ليست لتجمد على طائفة غابرة من اليهود غائرة في خِضَّم التاريخ، بل هي شاملة لكل مَن أوتوا نصيباً من كتاب الوحي هوداً أو نصارى أمن أشبههما، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، فإن ذلك التأبي والتولي شيمتهم وطبيعتهم الطائفية العارمة، لا يرضون عما عندهم بديلاً، ولا بما عندهم دليلاً إذا خالف أهواءهم! و:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ التأبي عن قبول الحق والتجرّؤ على الحق ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ . . .﴾ قيلتهم العليلة أنهم أبناء الله فلا تمسهم النار، ولو مستهم ف ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ عبدنا فيها العجل، وبذلك الضمان والأمان حرروا أنفسهم في كلّ تخلفة عن شرعة الله، فإنهم - على زعمهم - مثابون على أية حال، وليس عذابهم - لو كان - إلّا أياماً معدودات محتملات هي متحمّلات.

---

(١) في التفسير الكبير للفخر الرازي ٧: ٢٣٢ ذكر في سبب نزول الآية روايات ثلاث:
١ - أن رجلاً وامرأة زنيا من اليهود وفي كتابهم الرجم فكرهوا الرجم لشرفهما فتحاكموا إلى الرسول ﷺ لعله يكون عنده رخصة فحكم بالرجم فأنكروا ذلك فقال: بيني وبينكم التوراة فلما أتى ابن صوريا على آية الرجم وضع يده عليها فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله ﷺ فرفع كفه عنها فوجدوا الآية فأمر ﷺ برجمهما فغضب اليهود فأنزل الله الآية.
٢ - أنه ﷺ دخل مدرسة اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقالوا: على أي دين أنت؟ فقال: على ملة إبراهيم، فقالوا: إن إبراهيم كان يهودياً فقال ﷺ: هلموا إلى التوراة فأبوا ذلك فأنزل الله الآية.
٣ - إن علامات بعثته ﷺ مذكورة في التوراة فدعاهم النبي ﷺ إليها فأبوا فأنزل الله الآية.
أقول: هذه مروية في الدر المنثور باختلاف يسير مع الحفاظ على الأصول.

وهكذا ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فلا يبالون بما يعملون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم بمآلهم في أعمالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾ مع سائر الجموع يوم الجمع ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ في الشرائع الكتابية في ميزان العدل السوي ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ نفس ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، دون زيادة إلَّا في خير ولا نقيصة في كلٍّ من الشرِّ والخير ﴿وَهُمْ﴾ هوداً أم سواهم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ انتقاصاً عما كسبوا.

وحين ينحصر الوفاء بما كسبت، فهو المحور الأصيل، حيث ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].



﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾:

آية منقطعة النظير في مسرح المُلك والعزة والذلة سلباً وإيجاباً ننفد فيها من مُفرداتها إلى جملها فجملتها، لكي نحصل على مغزاها الصالحة، ذبّاً عما يخيَّل إلى الذين في قلوبهم زيغ من طالحة بشأنها والله من وراء القصد.

﴿قُلِ﴾ أنت يا رسول الهدى كحامل الوحي الأخير، و﴿قُلِ﴾ أيها التالي للذكر الحكيم مع الرسول، قولاً باللسان والأفعال والجنان، قولاً لازماً ودعائياً في مختلف الجموع ومحتشد المكلفين إلى يوم الدين.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ أمراً من الله أن نخاطب الله في كلّ الحقول والمسارح، بكلّ المصارح.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: «مالك» مِلكاً حقيقياً لا حِول عنه، دون المالكين سواه، فإنهم بملكهم مستودَعون فيما يُملّكون ومستخلفون فيما يملكون.

و﴿ٱلْمُلْكِ﴾ يعم المُلك ككلّ، زمنياً وروحياً، تكوينياً وتشريعياً، أم هو مُثلث مُلك المال دُولة[1] ومُلك المنال دَولة في حقلي القيادة: الروحية والزمنية، فمثلث المُلك المحلق على كلّ مُلك يختصه انحصاراً فيه وانحساراً عمن سواه إلّا من آتاه وديعة زائلة، فقد يستعمل الملك في مصطلح الذكر الحكيم في كلّ من الثلاثة.

وهنا ﴿تُؤْتِي﴾ دون «تهب أو تعطي» للإشعار بأن المُلك أياً كان ليس عطية ربانية فإن قضيتها البقاء دونما تحول ولا تحويل، ثم لا عطاء في المُلك غير الحق لو صح في المُلك الحق.

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٤ - أخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل قال: شكوت إلى النبي ﷺ ديناً كان عليَّ فقال: يا معاذ أتُحبُّ أن يُقضى دينك؟ قلت: نعم قال: قل اللّهم مالك الملك.

وفيه أخرج الطبراني عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ افتقده يوم الجمعة فلما صلّى رسول الله ﷺ أتى معاذاً فقال: يا معاذ ما لي لم أرك؟ فقال: ليهودي علي وقية من برّ فخرجت إليك فحبسني عنك فقال: ألا أعلمك دعاءً تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك فادع الله يا معاذ قل ﴿ٱللَّهُمَّ - إلى - بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تُعطي من تشاء منهما وتمنع من تشاء منهما ارحمني رحمة تُغنيني بها عن رحمة من سواك اللّهم اغنني من الفقر واقض عني الدين وتوفني في عبادتك وجهاد في سبيلك.

فإنما المُلك يؤتى إيتاءً، زمنياً أو روحياً أو مالياً، بحق أو بباطل، والتشريعي منها كله حق، لأنه شرعة من الدين ولا باطل في دين الله.

ولكن التكوين - وكلُّه حق - يعم تكوين الشر بما يختاره الشرير قضيةَ الاختيار للمكلفين.

فمن الملك الزمني: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[١] ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾[٢].

وهو بين حق كما للنبيين وسائر المعصومين الملوك، وباطل كما للفراعنة والنماردة، فليس الله بمؤتيهم الملك مرضاة له حتى يُحتج لبني أمية «أليس قد آتى الله عزّ وجلّ بني أمية الملك؟ حيث الجواب: ليس حيث تذهب إن الله عزّ وجلّ آتانا الملك وأخذته بنو أمية بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر فليس هو الذي أخذه»[٣].

وأين إيتاءٌ من إيتاء، إيتاء الله لأهله تشريعياً، ثم إيتاؤه لغير أهله تكوينياً بمعنى عدم منعه تسييراً، كما ﴿ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ وهو نمرود الطاغية في أحد وجهي الآية وهما معاً معنيان.

ومن الروحي: في وجه لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾[٤] وبكلِّ الوجوه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾[٥] فالرسالة الإلهية مُلْكٌ، بل هي أفضلها ومن ضمنها

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) نور الثقلين ١: ٣٢٤ في روضة الكافي بإسناده إلى عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: قل اللهم... أليس...

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٣.

الزمني: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[٢].

ذلك، وهو بين حق كما شرعه الله وقرره لأنبيائه وأوليائه، وباطل اغتصبه الذين احتلوا المناصب الروحية عن أصحابها الصالحين، فهذه خرافة مجازفة أن واقع المرجعية الدينية ليس إلّا بخيرة صاحب الأمر عجَّل الله تعالى فرجه، فكلُّ مرجع ديني - إذاً - هو نائبه المنصوب المرضي عنده.

فإن واقع الخلافة الروحية عن الرسول ﷺ كان واقعاً في الخلاعة اغتصاباً لتلك الخلافة فضلاً عن المرجعية الروحية زمن الغيبة ومن مُلك المِلك فإنه من المُلك، فكل ما يُملك يشمله المُلك، من دُولة ودَولة وقيادة روحية، حقاً أم باطلاً.

فقد يجتمع الإيتاءان تشريعاً وتكويناً كما في المُلك الحق في مثلثه أم مثناه أم موحّده كما في الصالحين.

وأخرى إيتاء تشريعي ولم يحصل تكوين، كالقيادة الزمنية للروحيين الصالحيين حيث تحول بينها وبينهم طغاة بغاة، ثم لا ينصرهم في معركتهم الصاخبة المؤمنون معهم قصوراً أو تقصيراً.

وثالثة تحمل الإيتاء التكويني دون التشريعي كمن يؤتى من هذه الثلاثة أم كلها دون حق شرعي، فليس الحصول عليها تغلباً على إرادة الله وتألباً عليها، وإنما هو تخلف عن شرعة الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٣] ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

كَيْدِى مَتِينٌ﴾(١) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾(٢)، وأصل الإملاء هذا من الشيطان ثم الله لا يحول بينه وبينهم فينسب إليه كما ينسب إلى الشيطان وبينهما بون الرحمن والشيطان:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾(٣) ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٤) ومن الجامع بين الأولين أم والثالث: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾(٥) ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(٦) - ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾(٧) ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(٨).

وذلك المثلث كما هو بين حق وباطل، وبين جعل تشريعي وتكويني، كذلك هو بين شخصي - كما في أشخاص الملوك - أو جماعي - كما في بيوتات صالحة أم طالحة أم عوان بينهما.

ثم ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ دون «تعطي» تعميم لعطية المُلك وهو الهبة الربانية في حقلي التشريع والتكوين، ولإيتائه لمن يؤتاه تكويناً في طالح المُلك زمنياً وروحياً، بمعنى ألا يحول دون وصول الطالحين إليهما أم إلى أحدهما، حين يحاولون بمختلف المحاولات والحيل الوصول إليه، والصالحون بمعزل عن المحاولات الصالحة لفصله عنهم وصولاً للقواد الصالحين إليه، حيث الدار العاجلة هي دار الاختيار دون إجبار، اللهم إلّا فيما لا تكليف فيه أو ما أشبهه.

إذاً فمشية الإيتاء تعم التكوينية المحلقة على صالح الملك وطالحه، والتشريعية الخاصة بصالحه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٨.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٧) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٨) سورة النساء، الآية: ٥٤.

فمهما كان الملك الظالم - روحياً أو زمنياً - هو المُتغِّلب على مُلكه والغاصب لما في يده، ولكنه تعالى ليس بمنعزلٍ عن إيجابه وسلبه، حيث الإرادة الإلهية المحلقة على كلِّ كائنٍ هي قضية التوحيد الأفعالي، فقد يحاول الظالم كلّ محاولة له ممكنة للوصول إلى حكم والله يحول بينه وبين مغزاه، أم يحاول بعض المحاولات والله لا يحول بينه ومغزاه، وكما يراه من الحكمة العالية.

وعلى أية حال ليس مالك الملك - كأصل - إلّا هو، ولا يؤتيه لأحد إلّا من يشاءه، دون جبر ولا تفويض، فإنهما تنقيص لساحته وتقويض، فله الحكم في كلّ الحقول دون انعزالية تامة تفويضاً، ولا إيجابية طامة جبراً، كما ويضل من يشاء ويهدي من يشاء ولا يظلمون نقيراً.

إنه ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أياً كان من الثلاثة بين تشريع وتكوين ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ منهم في صالح الحكمة الربانية امتحاناً بامتهان أم سواه، بإضفاء النِّعم عليهم، وإقرار الأموال الدثرة عندهم، وبما ترفدهم به من بنين وحفدة، وعديد وعُدّة، وإلزاماً لمن دونهم على طاعتهم متى أجابوا داعيك واتبعوا أوامرك، وحين يعدلون عن نهج طاعتك ويفارقون سواء محجتك نزعت منهم الملك، بأن تسلبهم ملابس نعمك وتجعل أموالهم وأحوالهم، دُولتهم ودَولتهم، غنماً ونفلاً لغيرهم من عبادك.

ذلك - وإيتاء الملك تشريعياً ككل يخص الصالحين فلا انتزاع له عنهم، اللهم إلّا نقلة لمُلك الشِّرعة عن قوم إلى آخرين بما بغوا وطغوا على صلاح رسلهم، كما انتقلت الشرعة الإلهية من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وإليكم نصاً من التوراة من الأصل العبراني بهذا الصدد تصديقاً للقرآن العظيم:

ففي سفر التكوين (٤٩ : ١٠): «**لُوءْ يا ثُور شِبْطِ مِيهُوداه ومحْوقِقْ مِبِنْ رِغْلايْو عَذْكِي يا بُوْء شِيلُوهْ وِلُوءْ يِقَهَتْ عمِيْم أو ثْري لِنْفِنْ عيروه**. . .».

«لا تنهض عصا السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم. . .».

فانتهاض السلطة من يهودا هو انتقالها من الشعب الإسرائيلي إلى غيرهم، وهو هنا «شيلوه» من غير إسرائيل، إذ لو كان منهم لما قوبل بهم في انتهاض السلطة عنهم إليه[1] وقد يندِّد بهم القرآن في ادعائهم الجوفاء أن النبوة منحصرة فيهم ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[2].

وقد ورد في الأثر أن نبي الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله هذه الآية[3] وذلك بعدما أمره ربه أن يسأله[4] ويروى عنه ﷺ أن اسم الله الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية[5].

ذلك! فليكن الصالحون على مدار الزمن ظروفاً لتحقيق مشيئة الله أن يؤتيهم المُلك تحقيقاً لشرعة الله في بلاد الله، دون تكاسل أو تعاضُل في أسبابه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[6].

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٥٣، ٥٤.

(٣) الدر المنثور ٢: ١٤ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ . . .

(٤) المصدر أخرج ابن المنذر عن الحسن قال جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد سل ربك قل اللّهم. . . ثم جاء جبرئيل فقال: يا محمد فسل ربك قل رب ادخلني مدخل صدق. . . فسأل ربه بقول الله تعالى فأعطاه ذلك.

(٥) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: اسم الله. .

(٦) سورة النجم، الآية: ٣٩.

فهناك تَوَفُّر شروط القيادة روحياً وزمنياً فيمن يحق له أن يقود الأمة، يجب تحصيلها كفائياً بينهم، وهنا محاولات عاقلة صالحة لسائر المؤمنين في سلب القيادة عن الطالحين وإيصالها إلى الصالحين، ففي نقض شرط أو نقصه هنا أو هناك الفرصة متاهة لمن يتربصون بهم دوائر السوء، لكي يجعلوا القيادة وحتى الروحية منها فريسة لهم بكل إدغال، وهنا ناقص الشرط أو ناقضه عن تقصير متخلف عن مشيئة الله وشرعته، قائداً أو مقوداً.

نجد النقص والنقض في عصور أئمة الدين المعصومين إذ لم يناصرهم المؤمنون كما يحب فاحتلت مناصبهم فاختلت موازين القيادتين روحية وزمنية.

ثم نجدهما في زمن الغيبة لولي الأمر تقصيراً جاهلاً أو متجاهلاً قاحلاً من قبل الأمة، ومن قِبلَ من تحق لهم القيادة، مهما بان البون بين القواد والمقودين في أبعاد التقصير أو القصور.

ثم المُلك قد يكون عزاً كما يرضاه الله، وهو نفسه ذل فيما لا يرضاه، كما الانحسار عن الملك ذل فيما يتوجب تقلده لصالح الأمة، وهو نفسه عز إذا لزم محاظير أكثر حظراً من تركه.

وكضابطة ثابتة في إيتاء الملك وسواه وإيتاء العز وسواه: الخير كلُّه بيديه والشرُّ ليس إليه إذ: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبيده أصل الخير كله بيديه والشرُّ ليس إليه إذ: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبيده أصل الخير في وصله وفصله، وليس الشرُّ إلَّا ممن يؤتاه مهما أمضاه ربنا تحقيقاً للمحنة في دار البلية - تكويناً - وهو لا يرضاه تشريعاً.

فمهما كان كلٌّ من الخير والشرِّ من عند الله، ولكن الخير منه والشرَّ من نفسك: ﴿... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾[١].

ومن خيره في تدبيره أمور الكون غير المختار كما يدبر الكائن المختار وفي رجعة أخرى إلى الآية نقول:

إن ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ تحلق الخير على كلّ أفعاله تعالى، إذناً في خير أو شرٍّ وعدمه في خير أو شرٍّ، فحين يريد فاعل تحقيق شره بما قدم له، والله يعلم ما يريد ويكرهه، فهلّا يريد الله هنا سلباً ولا إيجاباً وقد حرّمه؟ وهذا انعزال عن الربوبية! أم يريد سلباً والشرير يحقق شره رغم إرادة الله؟ وهذا تغلب على إرادة الله! أم يريد إيجاباً بعد ما أراده الشرير وقدم له ما أمكنه؟ وهذا هو الإيتاء الرباني لما حرّمه تشريعاً، فلو أنه أراد سلبه اضطر الشرير إلى تركه وخرجت حياة التكليف عن دور الامتحان، فهذه الإرادة الربانية - إذاً - خيرٌ وليست شراً.

نعم في دوران الأمر بين إرادة السلب والإيجاب في الشرِّ قضيةُ الحكمة الربانية تقديم الأهم على المهم، فإن كانت إرادة السلب أهم قدِّمت على الإيجاب كما في نار إبراهيم، وإن كانت إرادة الإيجاب أهم قدمت على إرادة السلب كما في الأكثرية الساحقة من الشرور الشخصية، فإنما يريد الله السلب في الشرور الجماعية التي فيها استئصال الحق بأهله عن بكرته كما في قصة إبراهيم.

ولا يعني «الخير كلّه بيديك والشرُّ ليس إليك» أنه لا يريد الشرّ وإن كانت إرادته خيراً، وإنما هو الشرُّ الذي هو يسببه دونما اختيار لأهله.

وفيما يسدُّ عن الشرِّ رغم توفر مقدماته الاختيارية، فقد يُجازى الشرير

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

حيث لم يكتفِ بالنية، فقد قدَّم ما لَه فيه إمكانية، فليُعاقب بما قدَّم مهما خفَّ عقابه إذ لم يحصل شرّه!.

أجل ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ فليس منه إلّا الخير مهما كان عندنا شرّاً وإيلاماً، فقد يمنع عن سلطة شريرة رغم توفر شروطها حفاظاً على الأهم في صالح الحكمة الربانية، أم لا يمنع تحريراً لاختيار السوء وإملاءً لصاحبه وآخر لآخرين قدموا له أم سكتوا أم لم يقصّروا، فكل الأفعال الشريرة لها واجهة شرّ هي شرارة الفاعل بعقيدته ونيته وعمليته، وواجهة خير هي تحقيق الاختيار وتعذيب المختار بسوئه وإملائه ومن ثم إبلاء الآخرين.

وقد يأتي الشر خيراً مما في تركه كما قد يأتي الخير شراً مما في تركه، فـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(١)!.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾:

آية الإيلاج هذه ونظائرها في سائر القرآن هي من أدلة كروية الأرض، فليست الآفاق لوقت واحد ليلاً ولا نهاراً، بل هي تقتسم إلى ليل بساعاته ونهار بساعاته وهما يتداخلان حسب مختلف الفصول كما يصلح في الحكمة العالية الربانية.

وهذه عبارة عبيرة لابقة لمحة عن كروية الأرض، أن ما ينقصه من النهار يزيده في الليل وما ينقصه من الليل يزيده في النهار، ولفظ الإيلاج هو أبلغ الألفاظ تعبيراً عن ذلك التناقص لأنه يفيد إدخال كلّ واحد منها في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة فيصبح جزءاً من الليل نهاراً وآخر من النهار ليلاً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

ذلك - وكما الإخراج للحيِّ من الميت وللميت من الحيِّ فاعلية حكيمة أخرى هي الأخرى مِن صالح التدبير.

وآية ثانية في مُتعاكس الإيلاج تشريع السماح في المعاقبة بالمثل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾[1] تمثيلاً للتشريع العدل بالتكوين العدل، إذ يولِجُ ليل العذاب في نهار الحياة الظالمة، كما يولِجُ نهارَ العذاب في ليل الحياة المظلومة.

وثالثة تمثيلاً للخلق والبعث بمُتعاكس الإيلاج: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[2].

فكما أنه يولج الليل في النهار، كذلك يولج ليل الموت في نهار الحياة، وكما أنه يولج النهار في الليل كذلك يولج نهار الحياة في ليل الممات، فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾! إذاً فمُتعاكس الإيلاج ينعكس - بطبيعة الحال - على واقع الحياة بعد الموت آجلاً، كما هو في واقع التشريع قبل الموت عاجلاً.

ذلك - وكما في إخراج الحيِّ من الميت وإخراج الميت من الحيِّ كشريطةٍ تُدار طول الحياة برهان لا مرد له على إمْكانية الإخراج الأول بعد الموت كما قبله، كإمكانية الإخراج الثاني واقعاً ملموساً في عاجل الحياة.

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

ذلك وكما يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر[١].

كما ومن إيلاج الليل في النهار حرمان أهل الله - أحياناً - عن السلطة الزمنية لتحقيق شرعة الله، ومن إيلاج النهار في الليل إيتاء غير الآهلين السلطة الزمنية اماهيه، وهما من الإيتاء التكويني دون التشريعي.

كما ومن إخراج الحي من الميت إخراج بلورة الإيمان في دولة الكفر، ومن إخراج الميت من الحي اخطاء السلطات الحقة فانتقالها إلى أهل الباطل.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في النشآت الثلاث، وليس ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فوضى جزاف، بل هو بحساب وتقدير عادل قاسط ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٢] فإنه: ﴿جَزَآءً مِن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[٣].

فالحساب هو المحاسبة مصدر حاسب، والمحاسبة المنفية لا تناحر ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ فإن حساب الحسابين مختلف.

فثابت الحساب هو الميزان العدل والفضل في رزقه سبحانه، وساقط الحساب هو الحدّ من فضل الله، إذ لا حد لفضله في مجالاته مهما حدّ عدله فيها حيث التجاوز عن العدل ظلم.

فرزقه بغير حساب لمن يشاء قد يعني عدم الموازنة بين الصالحات والمثوبات، وعدم الحدّ في المثوبات، وترك الحساب لصغائر السيئات

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٥ - أخرج ابن مردويه من طريق عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله ﷺ: لما خلق الله آدم عليه السلام أخرج ذريته فقبض قبضة بيمينه فقال: هؤلاء أهل الجنة ولا أُبالي وقبض بالأخرى قبضة فجاء فيها كلّ رديء فقال: هؤلاء أهل النار ولا أُبالي فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن ويخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: ٢٧].

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة النبأ، الآية: ٣٦.

وترك صغائر الحسنات، وما أشبهها من حساب لا يُناسب عميم فضله لأهله.

... لقد سبق ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ... بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ مما ينبهنا بواجب المحاولة الدائبة للحصول على حق الملك بفضل الله، وهنا يأتي واجب المفاصلة في آية ولاية بين كتلة الإيمان والكفر، وقد تختصران في ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾:

فهالة الإيمان تقتضي حالةً بين السلب والإيجاب في حقل الولاية كما في كافة الحقول، فعلى المؤمن مثلث السلب في ولاية الكفار، ثم مثلث الإيجاب في ولاية المؤمنين، وهما المعبر عنهما في حقل الفروع الدينية بالتولي والتبرّي، كلٌّ في كلّ الزوايا الثلاث إلّا في حقل التقية وهي الحفاظ على أهم الواجبين.

وليس فحسب المؤمن بل الإنسان أياً كان يعيش بين إيجابيات وسلبيات ثلاث، في نفسه وفي عمله شخصياً أو جماعياً، وعلى المؤمن تحقيق كلمة التوحيد إيجاباً في مثلثه وسلباً في ثالوثه.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾:

«الكافرون» هنا يعم ثالوث الكفر إلحاداً وإشراكاً وتوحيداً كتابياً.

والولاية المنهي عنها هنا هي مُطلق الولاية ما صدقت، حبّاً وعمل الحب وقوله، والسلطة الكافرة، ثالوث منحوس من ولاية الكافرين يجمعها التحبب والتودد إليهم كيفما كان.

والاتخاذ في الأصل هو القصد إلى أخذ الشيء والعزم عليه والتمسك

بـه والـمُـلازمـة لـه كـمـا ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[١] - ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[٢] - ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾[٣]: انقطاعاً إليها وإقامة على عبادتها، ففلتة الولاية قد لا يشملها الاتخاذ حتى تخلّف ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ فإنها من اللمم والسيئات غير الكبيرة المكفَّرة بترك الكبيرة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٤].

فالمتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يؤمنون بالله مهما ادعوه، فهم بين ملحد يوالي الكافرين ولا يوالي المؤمنين، أو مشرك يواليهما مع بعض.

وأما المتفلت في ولاية للكافرين في لفظة قول أم فعل خارجين عن الاستثناء، فلا يشمله ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

ثم ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعني من دون توحيد الولاية لهم كما ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[٥] في اتخاذ مَن سواه، فكما الإلحاد والإشراك في ولاية الله محظور، كذلك هما في ولاية أهل الله محظور، فإنها استمرار لولاية الله.

إذاً فولاية الكفار محظورة في مثلثها على أية حال، توحيداً لولايتهم دون المؤمنين - وهو إلحاد - فأنحس وأنكى، أم إشراكاً لهم بالمؤمنين في ولايتهم، فما صدقت ولاية الكافرين اتخاذاً لها فهي محظورة، إذ كما تجب ولاية الله الموحّدة دون إلحاد به فيها ولا إشراك، كذلك تجب - على هامشها - ولاية المؤمنين الموحدة، دون إلحاد بهم فيها ولا إشراك، فإن

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.
(٣) سورة مريم، الآية: ٨١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

ولاية المؤمنين من خلفيات ولاية الله، فلا تتخلف عن ولاية الله إشراكاً فيها للكافرين بالله.

فالمراد بالمنع هنا ليس أن يفردوا بالمُوالاة فلا تمنع مُوالاتهم معهم! بل هو المنع من اتخاذهم أولياء جملة وتفصيلاً، كما اتخاذ مَن دون الله آلهة يعني ضمهم إليه في الألوهية.

والنهي بات في ثالوث المثنى، وهما توحيد الكفار في الولاية أم اشراكهم بالمؤمنين فيها على أية حال وإن كان قليلاً ضئيلاً، فإن ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ تجتث كلّ دركات الولاية في ثالوثها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ كما المشرك بالله والملحد في الله ليس من الله في شيء، ﴿فِى شَىْءٍ﴾ من مربع الولاية حبّاً وعمل الحب وقوله وسلطانه، إذ لا يرضى من عباده إلّا توحيد الولاية له لا لسواه، وعلى هامشه أهل الله فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[1] - ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾[2] - ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ...﴾[4].

تلك هي المفاصلة القاطعة دون أية مُواصلة في ولاية بين كتلة الإيمان

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥١.

والكفر، لا شُذوذ عنها ولا استثناء فيها على أية حال، والولاية حباً وقولاً وعملاً وسلطة زمنية أم روحية، موحَّدة في أهل الله محبورة، محظورة في غير أهل الله ولا سيما قلبياً وسلطة روحية فإنهما لا يلائمان الإيمان على أية حال، وليست التقية إلّا في الثلاثة الوسطى على اختلافها في الحظر.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ومع العلم أن التقية لا موقع لها ولا دور إلّا في المظاهر، نعلم أن الاستثناء محصور فيها محسور عن الباطن، وهو المحبة القلبية والاعتقاد في ولايتهم وعقد القلب عليها، فهي إذاً تقية اللسان، لا ولاء القلب بل ولا ولاء العمل إلّا عند الاضطرار.

فكما يستثنى مورد الإكراه في الكفر وليس إلّا ظاهره: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] كذلك التقية في ولاية الكفار ليست إلّا فيما سوى القلب إكراهاً على المظاهر وقلبه مطمئن بولاية موحدة للمؤمنين.

فقد بقيت عند التقية الولاية الظاهرة إظهاراً للحب قولاً أو عملاً ثم ولاية السلطة، والاستثناء ظاهر في أولاهما، منقسماً إلى تقية الخوف على أية حال وتقية الحب جذباً لهم إلى الإيمان فيمن يرجى منهم، إذ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فما أمكن جذب الكفار إلى الإيمان بتوليهم في ظاهر الحال وعشرة الأعمال، فهو من تكاليف داعية الإيمان وقد يجب، وكما لهم كمؤلفة

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

قلوبهم حق من الزكاة الواجبة مهما كانوا أغنياء، كما ويسلِّم على الكفار بنفس السبب كما سلَّم إبراهيم عليه السلام على آزر من قبل أن يتبيَّن له أنه من أصحاب الجحيم.

وعند الإياس منهم فلا ولاية إلّا عند تقية الخوف على ما هو أهم من محظور الولاية نفساً وعرضاً وما أشبه.

وأما ولاية السلطة ولا سيّما الروحية فالتقية فيها أضيق من الأخرى، حيث السلطة الكافرة قاضية على خطوط الإيمان وخيوطه مهما كانت بصورة تدريجية، فلا تقية فيها على أية حال، اللهم إلّا إذا ترجحت ميزانية الحفاظ على النفس والنفيس على وجوب معارضة السلطة الكافرة، وحُرْمة الإبقاء عليها تظاهراً بالولاء، ولا دور لهذه الرجاحة إلّا في غربة غريبة للمؤمن، حيث لا يجد ناصراً له في دولة الكفر، ولا سبيل له للقضاء عليها أو معارضتها عملياً وقولياً، فقد يتربص المؤمن في دولة الكفر - حين لا يجد حيلةً لترك الموالاة، ولا وسيلةً للفرار إلى دولة أخرى - يتربص نظرة أن يأتي دور المعارضة على السلطة والقضاء عليها[١] وأية ولاية مسموحة بالنسبة للكافرين هي مقدرة بقدر الضرورة في تقية الحب والخوف، دون استرسال فيها كما في المؤمنين حيث الضرورات تقدر بقدرها.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فحذارِ حذارِ من ولاية الكفّار كما اتخاذ من دون الله آلهة، حيث الولاية هنا هي من فروع الإلحاد في الله والإشراك بالله، والمصير إلى الله يقتضي الصمود على ولاية الله وولاية أهل الله ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾، وترى كيف ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾؟ والله نفسه لا يتحذر لأنه عدل كريم!.

(١) للوقوف على تفصيل البحث حول موارد التقية راجع تفسير الإكراه ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

إنه يحذركم نفسه لمكانة عدله، فليس عذابه إلّا من خلفيات عدله تعالى، وعلّ ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ دون «عقابه» قصدٌ إلى خاصة عقابه الذي يأتي من قبله ويصدر عن أمره، دون الذي يجريه على أيدي خلقه، حيث العقاب على الوجه الأول أبلغ ألماً وأشد مضضاً.

ونفس الله هي ذاته سبحانه دون شيءٍ من كيانه إذ لا يتجزأُ، فهي من إضافة الكائن إلى نفسه، ولا تأتي لله إلّا مضافة دون إفراد.

هذا - ومن الولاية الظاهرة للكفار مخالطتهم التي تجركم إلى أهوائهم شئتم أم أبيتم، مخالطة قولية أو عملية هي الولاية الوسطى بعد المحبة وقبل السلطة الكافرة، التي كانت مجالة للتقية.

فإنها في غير تقية الخوف ككل، وغير تقية المحبة - في مجالاتها غير المحظورة - محظورة وقد نزلت فيما نزلت - بشأن الحظر عنها[١].

ولأن التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم فليراع فيها الأهم من المهم دونما فوضى جزاف، أن يُتقى بأس الكافر في خطر دخولاً في الأخطر، فإنما التعرض للهلاك حفاظاً على أدنى منه محظوراً هو خلاف التقية المحبورة[٢].

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٦ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمر وحليف كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم فأبى أولئك النفر فأنزل الله فيهم ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ. . .﴾ [آل عمران: ٢٨].

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلّا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين وذلك قوله: إلّا أن تتقوا منهم تقاة.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٢٥ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول =

فمن الإيمان حفظ الأوجب في الإيمان تفدية للواجب فيه كضابطة إيمانية صارمة، إذاً فـ «لا إيمان لمن لا تقية له»[(١)] كما وأن «التقية في كلّ شيءٍ يضطر إليه ابن آدم فقد أحلَّه الله له»[(٢)] و«التقية ترسُ الله بينه وبين خلقه»[(٣)] ولا ترس إلّا في المعركة ففي معركة الصدام بين الأهم والمهم دور للتقية دائر حفاظاً على الأهم، ولا بدَّ - إذاً - من تمييز الأهم في شرعة الله اجتهاداً أو تقليداً صالحاً.

فالتقية قد تكون واجبة حينما يُحافظ بها على الأهم المفروض، أم مُحرمة حينما يهدر الأهم فيُصْبِح المرفوضَ كتقية السحرة من فرعون الطاغية، وثالثة تتخير بين المحظورين وهما المتساويان وقد فرض أحدهما عليك، ورابعة يترجح أحد المحظورين برجاحة غير مفروضة.

فـ ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ لا تعني إلّا تقاة الأهم تركاً للمهم الواجب وهو ترك توليهم، إحرازاً للأهم الأوجب وهو ترك النفس إذا كانت أنفس من الواجب الآخر.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾:

= فيه لبعض اليونانيين: وآمرك أن تستعمل التقية في دينك فإن الله يقول ﴿لَّا يَتَّخِذِ... إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨] - وإياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك وأن تترك التقية التي أمرتك بها فإنك شائط بدمك ودماء إخوانك، معرّض لنعمك ونعمهم للزوال، مذل لهم في أيدي أعداء الدين وقد أمرك بإعزازهم.

(١) المصدر في تفسير العياشي عن الحسين بن زيد بن علي بن جعفر عن محمد عن أبيه عليهم السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا إيمان... ويقول قال الله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

(٢) المصدر عن جماعة من أصحاب الباقر عليه السلام سمعناه يقول: «التقية...».

(٣) المصدر عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «...».

أجل - وإنه لا فارق في علم الله بين ما تُخفونه في صُدوركم وما تُبدونه، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] بل وككلّ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ذلك، وأنه إمعان في التحذير والتهديد واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة التي يُساندها العلم والقدرة، فلا ناصر منها ولا عاذر، وإلى حاذر العذاب في تجسُّدِ الأعمال:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ علّها تعم مربع العقائد والنيات والأعمال والأقوال، إذ أفرد العمل بالذكر، حيث العقيدة والنية هما عمل الجنان والآخران هما عمل الأركان.

وعلّ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ على اختصاصها بعمل الأركان تطوي العقيدة والنية الصالحتين، حيث العمل قولاً أو فعلاً ليس خيراً إلّا بصالح العقيدة والنية.

ثم الوجدان هناك كما هنا هو وجدان نفس العمل بصورته وسيرته وصوته، المسجلة في مربعة المسجلات: أعضاء وأرضاً وملائكة وشهداء، كما فصلناه في آية الأسرى والزلزال ونظائرهما.

وكذلك ﴿عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ ولكنما الوجدان في خيره وشره لا يحلّق على كلّ خير وشرٍّ، وإنما الخير الباقي غير الحابط، والشرّ الباقي غير المكفر، كما استثنتها آيات التكفير والغفر والإحباط.

ثم الخيرُ هو بنفسه ثواب كما الشرُّ بنفسه عقاب، ف ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) سورة طه، الآية: ٧.

تَعْمَلُونَ﴾[(١)] حيث تبرز ملكوت الخير والشر، مهما كان جزاءُ الخير فضلاً وجزاء الشرّ عدلاً.

ولماذا ﴿تَوَدُّ . . . أَمَدًا بَعِيدًا﴾ في السوء ترجياً للمُفاصلة الزمنية البعيدة، دون المُفاصلة الواقعية وهي هي المخيفة قريبة أم بعيدة؟.

لأنه لا يجد هُناك مفراً عما عمل من سوءٍ حيث يراه لزامه على أية حال، فيترجى - لأقل تقدير - أمداً بعيداً، يرتاح فيه عن بأسه.

فالعمل السوءُ كالقرين السوءِ لا مفرَّ عنه ولا مفلت إلّا ترجّي البعد عنه لفترة كما: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ. . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[(٢)].

وعلّ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ هنا المُكررة بعد الأولى، تعني في كلٍّ معناه، فالأولى تحذير عن مُوالاة الكفار، والثانية تحذير عن كلِّ الشُّرور، إضافة إلى ما تحمله الثاني من شديد الحذر حين تبرز الأعمال كما عملت فلا مجال لناكرٍ أو عاذرٍ، وقد حذرت الأولى عن وبال الأولى.

ثم ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ تزويدٌ للخيرات في فضل الجزاء، ورأفة في عدله، إنه يعاقب أقل ما تستحقه العصاة، لحدّ لا يستوجب الظلم بحق المتقين.

ومن صالح الأعمال وركيزتها اتباع الرسول ﷺ على مدار حبِّ الله:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٨.

و«هل الدين إلّا الحب»[١] فإن الدين العقيدةَ والطاعةَ هو خلفية واقعية لواقع الحب، حيث الحب - ومكانه القلب - ليس دعوى باللسان، ولا هياماً بالوجدان، إلّا بما يظهر من الجنان على الأركان، وإلّا فهو حبٌّ جاهل، أم كاذب قاحل.

إن حبَّ الله في أية درجة من درجاته لا دور له إلّا بآثاره الظاهرة كما الباطنة، وهي اتباع الله، ولا موقع لاتباع الله إلّا باتباع رسول الله، إذ ليس الله ليوحي إلى محبيه إلّا الرسل، فإنما يحب الله من يحبه إذا اتبع رسوله الحامل لشروطات حبه ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فـ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢].

وإذا كانت لكم ذنوب ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بذلك الاتباع ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر سيئاتكم إذا تركتم الكبائر، ومن أكبر الكبائر التولي عن رسول الله مع الادعاء أنك تحب الله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٣].

فاتباع رسول الله على ضوء حبِّ الله هو الإيمان، والتولي عن رسول الله وإن كنت تدعي حبَّ الله هو من الكفر ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في محكم كتابه وفيما أمر من طاعة رسوله ﴿وَالرَّسُولَ﴾ رسالة من الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله ورسوله، أو طاعة الله أو طاعة رسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

هُنا ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ لا تتعلق إلّا بـ ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فالحبُّ الفاضي عن اتباع الرسول ﷺ هو حبٌّ لا يُتبع حبَّ الله وغفرانه، فإنه

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٢٦ في كتاب الخصال عن سعيد بن يسار قال قال أبو عبد الله عليه السلام: هل الدين إلّا الحب إن الله تعالى يقول: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ [آل عمران: ٣١].

(٢) في ظلال القرآن ١: ٥٧٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣١.

تعالى يحب من يحبه إذا اتبع مرضاته، بل وليس الحب إلَّا في اتباع مرضاته، والحب الفارغ عن مرضاته فارغ عن حبه ومرضاته، بل هو مجرد ادعاء جوفاء لا تحمل من الواقعية شطراً إلَّا الدعوى.

وإذا كان حبُّ الله لا يفيد إلَّا باتباع شُرْعته، فبأحرى لا يفيد حبَّ الرسول وذويه إلّا بنفس الاتباع، و«حب علي حسنة لا يضر معها سيئة» لا تعني - إن صحت - أنه الحبُّ فقط، بل لا تأتي معها سيئة حتى تضر، أو لا تضر معها الصغائر لأنه من كبائر الحسنات كما ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[١].

وقد يروى عن الصادق عليه السلام قوله: ما أحبّ الله من عصاه ثم تمثل بقوله:

تُعصي الإله وأنت تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا لعُمري في الفِعالِ بديعُ
لو كان حبُّك صادقِاً لأطعتهُ ... إنَّ المُحبَّ لمن يُحبُّ مُطيعُ[٢]

فالحب من خلفيات الإيمان، والطاعة من خلفيات الحب، مثلث لا تَفارُقَ في زواياها وحواياها إلّا فصلاً عن صادق الإيمان.

فالناس في حب الله على ضروب شتى:

١ - منهم من يؤمن به ولا يحبه نتيجةَ الإيمان.

٢ - ومنهم من يحبه كما يؤمن به ولا يطيعه.

٣ - ومنهم من يطيعه على حبه والإيمان به ولكنه على خلاف طاعة

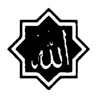
---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) في المعاني عنه عليه السلام وفي الكافي عنه عليه السلام في حديث قال: ومن سرّه أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا ألم يسمع قول الله عزّ وجلّ لنبيه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ...﴾ [آل عِمرَان: ٣١] وفيه عنه عليه السلام: لا قول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلّا بإصابة السُّنة.

رسوله ﷺ ، وهؤلاء هم شرع سواء في أن الله لا يحبهم ولا يغفر لهم سيئاتهم.

٤ - ومنهم من يطيع رسوله على حب الله والإيمان به، تبنِّياً لحياته على تلك الطاعة، وهم - على درجاتهم - ممن يحبهم الله ويغفر لهم سيئاتهم.



﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٤١) وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٢) يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (٤٤)﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿ءَادَمَ﴾ هنا وفي سائر القرآن هو الوالد الأوّل من هذا النسل الأخير، كما هو لائح في سائر القرآن دون ريب حيث جيءَ باسمه الخاص هذا (٣٥) مرة.

وترى اصطفاءُه يلمح أنه كان معه أوادم آخرون، فاصطفاه الله من بينهم رسولاً، فليس - إذاً - هو الوالد الأوّل إذ قد يكون هو من مواليدهم وهذا النسلُ الإنساني متنسل مقسماً بينهم؟ وليست قضية اصطفائه ذلك الهارف الخارف أن هناك كان أوادم آخرون لم يكن هو والدهم، حيث الاصطفاء المطلق وفي حقل الرسالة كما هنا لا يقتضي المجانسة بين جمع، بل يعني اصطفاءَه من بين سائر الخليقة ليكون حامل لواء الدعوة الربانية بين المكلفين! حيث الرسالة إلى العالمين خاصة بالإنس أصالة مهما كانت في الجن أيضاً كفروع للرسالة الإنسانية إلى قبيلهم قبل اختتام الوحي.

إذاً فلا بدّ في الاصطفاء الرسالي من اجتباء الأصفى بين عامة المُكلفين، حتى يصلُح الرسول المصطفى لحمل الرسالة إلى العالمين أجمعين.

فالله اصطفاه من بين قرينيه زوجه وإبليس وذريته الأبالسة وسائر الجن حيث ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1] ومهما كان الاصطفاء بحاجة إلى عديد، فقد يكفي له اثنان يصطفي أحدهما على الآخر، فضلاً عن آخرين - سوى زوجه - من قبيل الجن ككلّ.

وليس اصطفاءه حين خلقه حتى يقال فكيف ذلك الاصطفاء ولما يخلق

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

زوجه؟ وإنما كان بعد عصيانه وهبوطه وتوبته وتوبة الله عليه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾(١) واجتباؤه هو اصطفاؤه وهو مرحلة تالية لعصيانه فتوبة الله عليه ليتوب وتوبته إلى الله وتوبة ثانية من الله عليه قبولاً لتوبته ثم هدايته إلى ما قبل عصيانه من طهارته ثم يأتي دور اجتبائه واصطفائه(٢).

وهكذا يُجاب عن غائلة العصيان في الرسول المعصوم، إنه اصطفي رسولاً بعد توبته النصوح، الكاملة الكافلة لتركه على طول خط الحياة الرسالية، كما فصلناه في طه والبقرة، وهنا الاصطفاء الأوّل لآدم يعني الأولية الزمنية، لا في الرتبة.

ثم ﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ المصطفين ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تشمل كافة المرسلين والنبيين، فنوح - وهو أول أولي العزم - أوّل من دارت عليه رحى ولاية العزم الرسالية.

﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تعني إبراهيم وآله الإبراهيميين رسلاً ونبيين، منذ

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٢٨ في عيون الأخبار في مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أهل المِلل والمقالات وما أجاب به علي بن محمد بن الجهم في عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم حديث طويل يقول فيه الرضا عليه السلام أما قوله عزّ وجلّ في آدم ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله عزّ وجلّ، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ...﴾.
وفيه في باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء حديث طويل وفيه يقول: وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كثير استحق به دخول النار وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ...﴾ [آل عِمرَان: ٣٣].

إسماعيل إلى خاتم النبيين وعترته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين[(١)] ومنذ إسحاق ويعقوب وسائر الرسل الإسرائيليين عليهم السلام، وهُنا يختص بالذكر «آل عمران» اعتباراً بمريم العذراء الطاهرة المعصومة وابنها المسيح عليه السلام حيث المسرح هنا في سورة آل عمران سرد القصص الفصل لآل عمران.

فلا يعني عدم التصريح بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هنا تسريحاً له عن موقف الاصطفاء الخاص، كما ولم يصرح بإسحاق ويعقوب وموسى وسائر الرُّسل الإسرائيليين، وموسى هو رأس الزاوية الرسالية بينهم، وقد يأتي في نفس السورة التصريح بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إمام النبيين أجمعين، - مهما لم يكن إمامهم - في آية الميثاق.

﴿ذُرِّيَّةً﴾ انتشأ ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نشأة الروح القدسية مع نشأة الجسم ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[(٢)] [(٣)] فليست نشأة الجسم - فقط - عن جسم بالذي يؤهل الناشئ للقدسية الروحية التي هي في المنشإ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مقالات السائلين وسواهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالاتهم ومؤهلاتهم فينشئ الذرية الرسالية عن الرسل.

هذا - وإلى نظرة تفصيلية في آية الاصطفاء نقول: الاصطفاء هو أخذ صفوة الشيءِ تخليصاً له عمّا يُكدِّره، والصفوة الربانية هي العصمة لا محالة

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٧ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عِمرَان: ٣٣] قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه عن قتادة قال: ذكر الله أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ففضلهم على العالمين فكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم من آل إبراهيم عليه السلام.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) المصدر أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عليهم السلام أن علياً عليه السلام قال للحسن عليه السلام: قم فاخطب الناس، قال: إني أهابك أن أخطب وأنا أراك فتغيب عنه حيث يسمع كلامه ولا يراه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه وتكلم ثم نزل فقال علي عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٣٤].

للرسل أمن سواهم ممن يخلفهم في حمل الدعوة الرسالية المعصومة العاصمة لها عن الانزلاق والانحياق.

فقد يشمل الاصطفاء هنا آل محمد ﷺ المعصومين وهم ورثة الكتاب بعده، المصطفون في نص آخر: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٢﴾[1].

واصطفاء آدم ونوح دون آل آدم وآل نوح - وبعدهما آل إبراهيم وآل عمران - مما يلمح باختصاصه بهما دون آلهما، إذاً فلا نبي من آل آدم ونوح أم لا مصطفى منهما، وهناك شيث وهابيل وإدريس؟.

قد يعني الاصطفاء قمته في كلّ دور رسالي، فآدم نفسه هو المصطفى في الدور الأول الرسالي ككل ثم النبيون بينه وبين نوح كإدريس لم يكونوا من آله مهما كانوا من ذريته.

ولكن إدريس من آله كما محمد ﷺ من آل ابراهيم، وعدم ذكر إدريس شخصياً ولا ضمنياً في آل آدم لا يدل على خساسة شأنه وله خصاصة النبوة السامية أعلى من آدم ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾[2].

وعلّ عدم ذكره كما لم يذكر محمد ﷺ وسائر النبيين لأن المقام مقام ذكر آل عمران عرضاً عريضاً لقصة مريم وعيسى عليه السلام، ولذلك طوي عن ذكر إسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام.

كما وأن الآل لا يذكر لشخص واحد، فآل آدم ليس ليعني خصوص

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٦.

إدريس أم آدم وإدريس، ولم يأهل لذلك الاصطفاء غير إدريس من ذرية آدم عليهما السلام .

أجل - ولأن وراثة النبوة المصطفاة ليست من وراثة الدم، إنما هي وراثة العقيدة مهما حلت في وراثة الدم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ في الوراثتين وأهمهما الثانية.

ونوح هو المصطفى في الدور الأوّل من ولاية العزم، ولم يُرسل أحد من ولده الخصوص.

ثم الآل لغوياً كما يعني أخصّاء الشخص، كذلك شخصه اعتباراً بكونه عماداً لأخصائه، فـ «آل كلّ شيء شخصه» و«الخشب الذي يعمد عليه الخيمة» و«آل الجبل أطرافه».

إذاً فـ ﴿وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ﴾ هما شخص إبراهيم وعمران عمودين لخيمة الأخصاء، وقد جاء بجمع المعنى في الذكر الحكيم كآل ياسين - آل موسى - آل هارون - آل يعقوب - آل لوط وآل فرعون، عناية إلى الخيمة بعمودها، دون الخيمة بلا عمود، ولا العمود بلا خيمة.

ثم ولا يختص الآل: الأخصاء، بالأخصاء في النسب، فعلي عليه السلام هو من آل محمد وأفضلهم وليس في النسب، وسائر ولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوى الصديقة الطاهرة هم من آله بواسطتها[1] و«آل فرعون» - ولم يكن له ولد - هو من صارم الدليل على عدم اختصاص الآل بأخصاء النسل.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: فلما قضى محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبوته واستكمل أيامه أوحى الله عزّ وجلّ إليه: أن يا محمد قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة عند علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه لم أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة من العقب من ذريتك كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبيني وبين أبيك آدم وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٣٣] ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٣٤].

وهنا «آل إبراهيم» قد يشمل كافة الأنبياء وسائر المعصومين الإبراهيميين، حيث الكل كانوا من نسل إبراهيم منذ إسماعيل وإسحاق وإلى خاتم النبيين وعترته المعصومين، ولا يعني اختصاص «آل عمران» بعد «آل ابراهيم» إلّا سرداً طويلاً للعمرانيين: مريم والمسيح عليهما السلام.

ولقد اختص آل محمد عليهم السلام من بين آل إبراهيم بذكر خاص في أخلص دعائه وأخصه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ... رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾[1].

ثم اصطفاء آدم عليه السلام من براهين رسالته كما ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾[2] و﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[3] تساندان منزلته الرسالية.

وهل يشمل «آل عمران» آلين لعمرانين، عمران أبي موسى وعمران أبي مريم؟ قد لا يعني إلّا الثاني، إذ لم يأت في القرآن - ولا مرة يتيمة - ذكر من أبي موسى، ثم وبينه وبين أبي مريم (١٨٠٠) سنة، ولا تصح عناية الجنس من عمران، الخاص بهما، حيث العبارة الصالحة له «آل عمرانين» وإلّا لشمل آل كلّ عمران في العالمين.

هذا - ولا سيّما أن الآية التالية تخص آل عمران أبي مريم: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ...﴾ فلا دور - إذاً - لآل عمران أبي موسى هنا، على أنه لم يرسل أحد من ولد موسى ولا آله إلّا هارون عليه السلام.

ذلك! فلم يكن لذكر محمد وآله عليهم السلام هنا دور خاص مهما كانوا هم المدار في كلّ الأدوار، فلا موقع - إذاً - لمختلَق الأحاديث القائلة إن «آل

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

محمد» أسقطت عن الآية[١] أم أبدل عنها بـ «آل فرعون»[٢] وإنما الصحيح هو نص الآية وعلى غرارها وقرارها رواية ثالثة[٣] هي المصدّقة لموافقة القرآن.

---

(١) في المجمع وفي قراءة أهل البيت «وآل محمد على العالمين» وقالوا أيضاً: إن آل إبراهيم هم آل محمد الذين هم أهله، أقول: القالة الثانية تصدق تأويل الأولى أنها تعني التأويل، دون تحريف النقص في لفظ الآية.

وفي نور الثقلين ١ : ٣٣١ عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: ما الحجة في كتاب الله أن آل محمد هم أهل بيته؟ قال: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عِمرَان: ٣٣] وآل محمد - هكذا نزلت - ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾.

أقول: قد يعني نزول التأويل دون التنزيل.

والقمي عن الباقر عليه السلام فأسقطوا آل محمد من الكتاب.

وفي تفسير البرهان ١ : ٢٧٩ عن أيوب قال سمعني أبو عبد الله عليه السلام وأنا أقرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقال لي: وآل محمد كانت فمحوها وتركوا آل إبراهيم وآل عمران.

وفيه عن تفسير الثعلبي رفعه إلى أبي وائل قال قرأت في مصحف ابن مسعود «.. وآل محمد على العالمين».

(٢) في تفسير البرهان ١ : ٢٧٨ عن هشام بن سالم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ فقال: هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين فوضعوا اسماً مكان اسم.

(٣) المصدر في أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال قال محمد بن أشعث بن قيس الكندي للحسين عليه السلام: يا حسين بن فاطمة أية حرمة لك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليست لغيرك؟ فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ...﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤] قال: «والله إن محمداً لمن آل إبراهيم والعترة الهادية لمن آل محمد»....

وفي تفسير البرهان ١ : ٢٧٧ بسند متصل عن اابان بن الصلت قال: حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون وقد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان... قال المأمون: هل فضل العترة على سائر الأمة؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله عز وجل أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه فقال المأمون: وأين ذلك من كتاب الله؟ فقال الرضا عليه السلام في=

وقد تؤول الأولى بإسقاط التأويل، أن جماعة من المحرفين الكلم عن مواضعه أسقطوا تأويل آل إبراهيم عن آل محمد ﷺ وهم أفضل آله.

وكذلك الثانية أنهم فضلوا آل عمران على آل محمد ﷺ لأنهم المذكورون هنا دونهم.

والاصطفاء على العالمين درجات أدناها عالمي زمان المصطفى كما في آدم وأوسطها عالمي دور رسالته كما لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وأعلاها عالمي كلّ زمان كما في محمد المصطفى وآله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

ذلك - ولأن ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الطليقة تشمل كلّ الكائنات العاقلة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، فالاصطفاء المحمدي الطليق يحلق عليهم كلهم، كما أن الاصطفاء الخاص بعالمي زمن آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران يشمل مثلث الإنس والجن ومن لا نعرفهم تماماً.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾:

في ﴿عِمۡرَٰنَ﴾ معاكسة النقل بين القرآن - حيث يعنيه أبا مريم - وبين التوراة إذ تعنيه أبا موسى: عمرام بمعنى قوم الله - أبو موسى (الخروج ٦: ١٨ - ٢٠) وتبديل الميم بالواو وهو من قضايا التعريب.

= قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]، قال: يعني أن العترة داخلون في آل إبراهيم لأن رسول الله ﷺ من ولد إبراهيم وهو دعوة إبراهيم، وفيه عن الحجة عليه السلام لما يقوم الاستدلال بالآية كماهيه ومثله رواه العياشي عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام.

هذا - ومجموع الأحاديث الموافقة لنص الآية إحدى عشر حديثاً، وفي أربعة إضافة آل محمد وفي واحد تبديل آل محمد بآل إبراهيم، والأولى هي المصدقة ولو كانت أقل عدداً ويرد إلّا ما خالف الآية حيث الأصل هو القرآن المتواتر الموجود.

ولقد حمل هذا جماعة من المبشرين الكنسيين إلى تزييف عمران القرآن أنه أخطأ (١٨٠٠) سنة! وما أجهلهم إذ زعموا اختصاص ﴿عِمْرَانَ﴾ في تأريخ الإنسان بأبي موسى، فلا يحق لأبي مريم أو سواه أن يسمى عمران، لا لشيءٍ إلّا أن عمرام التوراة هو أبو موسى.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ إذ زعمت أن ما في بطنها ذكر يصح تحرره لخدمة بيت الله دون خروج عنه وعلّها وُعدت بذَكَر[١] أو علّها نذرته هكذا إن كان ذكراً لكي يرزقها الله إياه، والظاهر هو الأول لمكان الإطلاق وتؤيده الرواية.

ومما يعنيه ذلك التحرر المنذور هو التحرر عن حقوق الأُمّ المعيشية، ثم التحرر عن كلِّ عملية سوى خدمة بيت الله، مما يدل على أن للأُمّ على ولدها حقّ يجوز التنازل عنه لحق أولى بنذر وسواه.

ولأن الأب أو الجدّ هما الأولى بالولد - مهما كان للأُمّ عليه حق - فقضية التحرر المطلق هنا أنها كانت منفردة في هذه الولاية لفقد الأب والجدّ، أم كانت هي مأذونة من قبل الولي الأولى في نذرها لمطلق التحرر، أم لا يشترط في نذر الأُمِّ إذن الأب مهما اشترط عدم منعه ولكنه لا يجوز له منعها عما يحل ولا سيّما ذلك الحل الطيب لبيت الله.

فعلى أية حال أنها نذرت هكذا مما يدلّ على صحة ونفاذ هكذا نذر

---

(١) نور الثقلين ١ : ٣٣٤ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله أوحى إلى عمران إني واهب لك ذكراً سوياً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل فحدث عمران امرأته حنّة بذلك وهي أم مريم فلما حملت كان حملها عند نفسها غلام فلما وضعتها قالت: رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى ولا تكون البنت رسولاً يقول الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عِمرَان: ٣٦] فلما وهب الله لمريم عيسى كان هو الذي بشر به عمران ووعده إياه، فإذا قلنا في الرجل منا شيئاً فكان في ولده أم ولد ولده فلا تنكروا ذلك.

بحق الولد شرطَ الحفاظ على حق الولي الأولى - إن كان - وكذلك صالح الولد ولا أصلح له من خدمة الله.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ذلك النذر، تقبلاً لتحرره لك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الدعاء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصلاحيات وحاجات العباد.

أجل ﴿مُحَرَّرًا﴾ وما أدراك ما ذلك التحرر؟ إنه خروج عن رقية الناس إلى رقية إله الناس فهو - إذاً - تحرر عما سوى الله «والمحرر للمسجد لا يخرج منه أبداً»(١).

والنذر لغوياً هو الخوف كما الإنذار هو الإخافة، إذاً فهو الخوف من الله إمّا شكراً لله أن توجب على نفسك أمراً لله محبوباً لدى الله استزادة في العبودية كما فعلته امرأة عمران دونما شرط على الله، ومثلها مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾(٢) حيث لم تشترطا على الله امراً في نذرهما لله وتوافقه صحاح عدة(٣) والموثق المخالف غير موثق أو مأول(٤).

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٣٢ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً قال: والمحرر..

(٢) سورة مريم، الآية: ٢٦.

(٣) كما في الصحيح «من جعل لله عليه أن لا يفعل محرماً سماه فركبه فليعتق رقبة أو ليصم شهرين متتابعين أو ليطعم ستين مسكيناً» (التهذيب ٢: ٣٣٦) وفي صحيح الحلبي عن الصادق عليه السلام إن قلت: لله علي فكفارة يمين (الكافي ٧: ٤٥٦) وفي ثالث «ليس من شيء هو لله طاعة يجعله الرجل عليه إلّا ينبغي له أن يفي به» (التهذيب ٢: ٣٣٥) وفي رابع «وما جعلته لله تعالى فق به» (الكافي ٧: ٤٥٨). وخامس هو موثق الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عليه السلام في رجل جعل لله على نفسه عتق رقبة فأعتق أشل أو أعرج؟ قال: إذا كان ممن يُباع أجزأ عنه إلّا أن يكون سماه فعليه ما اشترط (التهذيب ٢: ٣٣٥).

(٤) وهو موثق إسحاق بن عمار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني جعلت على نفسي لله شكراً ركعتين أصليهما في السفر والحضر فأصليهما في السفر بالنهار؟ فقال: نعم، ثم قال: إني لأكره الإيجاب أن يوجب الرجل على نفسه، فقلت: إني لم أجعلهما عليّ إنما جعلت ذلك على نفسي أصليهما شكراً لله ولم أوجبهما على نفسي أفأدعهما إذا شئت؟ قال: نعم =

أم توجبه على نفسك شرط أن يستجيبك الله فيما تخاف من إقبال محظور أو إدبار محبور وأنت لا تستطيع بحولك وقوتك أن تحصل على بغيتك فيها، حيث الوصول إلى المغزى والحصول عليها قد لا يكتفى فيه بصرف الدعاء، فلا بدّ من تقريب قربان إلى الله وهو كلّ محبور لدى الله مندوباً أو مفروضاً، وهذا هو مسرح النذر وشبهه من عهد أو يمين.

ثم ولا نذر إلّا لله كما هنا وفي مريم، ونية القربة هي لزام كون النذر لله، فإذا نذر لغير الله، أم نذر لله دون نية القربة إلى الله، فلا نذر - إذاً - ولا يفرض عليك امراً.

ومما يشرط في النذر مشروطاً وغير مشروط إمكانية متعلّقه واقعياً وشرعياً، وكونه راجحاً في شرعة الله دونما حرج في تحقيقه، فغير الراجح لا يحق لله، والمُحرج ليس من دين الله فـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] فضلاً عن غير المقدور أو المحظور فإنه هزء بالله أو مهانة لله أن تقدّم له ما نهى عنه تحذيراً أو تنزيهاً، بل وما هو عوان بين الراجح والمرجوح.

= (الكافي ٧: ٤٥٥ والتهذيب ٢: ٣٣٣) أقول: علّ «إني لأكره» لأن متعلق النذر كان حرجاً، ولكن المتعلق المحرج لا يصح نذره.

وأما موثق سماعة سألته عن رجل جعل عليه إيماناً أن يمشي إلى الكعبة أو صدقة أو نذراً أو هدياً إن هو كلم أباه أو أمه أو أخاه أو زارهم أو قطع قرابة أو مأثماً يقيم عليه أو أمراً لا يصلح له فعله؟ فقال: لا يمين في معصية الله إنما اليمين الواجبة التي ينبغي لصاحبها أن يفي بها ما جعل لله عليه في الشكر إن هو عافاه الله من مرضه أو عافاه من أمر يخافه أو رد عليه ما له أو رده من سفره أو رزقه رزقاً فقال: لله علي كذا وكذا شكراً، فهذا الواجب على صاحبه وينبغي له أن يفي به (التهذيب ٢: ٣٣٥ والاستبصار ٤: ٤٦) أقول: إنه في مقام بيان بطلان هذه التعهدات في معصية الله، وأخيراً مثال فيما يصح فيه التعهد كاليمين المنوي هو كذا وكذا، وحتى أذاب كان صريحاً في بطلان النذر غير المشروط لكان معارضاً للآية والصحاح المتعددة الماضية، كما وأن «في الشكر» يعمُّ الشرط وسواه وإن مثل بالشرط أقول: والمصداق المتيقن المعلوم من «لله علي» هو النذر، مهما شمل البعض منها اليمين والعهد أيضاً.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

والنذر في فعل الراجح أو الواجب أو ترك المرجوح المحرم يعمّ المشروط وسواه، والنتيجة أصل الوجوب أو ضعفه أو أصل الحرمة أو ضِعفها، وخلفيته في تخلُّفه دنيوياً هي الكفارة وأخروياً هي العقاب إن لم يتب ويكفر.

وكافة الشروط في النذر غير المشروط هي مشروطة في المشروط، إلّا رجاحة المتوقّع، فإنما يكفيه السماح الشرعي إباحة أم دونها.

فالفارق بين المتعلَّق والمتوقَّع في الشروط إنما هو شرط الرجاحة في الأوّل دون الثاني إذ لا نذر إلّا في طاعة الله، ثم الإمكانية مشتركة بينهما، ولكن القدرة غير المُحرجة خاصة بالمتعلق دون المتوقَّع، حيث المتوقع خارج عن قدرتك مقدوراً لله غير مستحيل كونياً ولا شرعياً، ولكن المتعلق شرطه كونه ميسوراً عندك دون حرج واقعياً وشرعياً.

فتوقع المحظور من الله، كما المستحيل على الله حكمةً أم سواها، هو توقع محظور.

كما المتعلَّق غير المقدور واقعياً أو المحرج أو غير الراجح شرعياً هو محظور أو غير مشكور، حيث النذر في الأساس يتبنّى الخوف من الله كما في غير المشروط، أو الخوف مما ترجوه ولا تسطع عليه، والكلّ مشروط بعدم الحظر واقعياً ولا شرعياً، مهما اختص متعلق النذر بالراجح الميسور، والمتوقع يُكتفى فيه بعدم الحظر.

فكما لا نذر إلّا لله، كذلك لا نذر فيما ليس راجحاً في شرعة الله مهما كان المتوقع - كما في المشروط - لا يشترط فيه إلّا عدم الحظر واقعياً وشرعياً.

فإذا نذر راجحاً أو واجباً في متوقع محظور فهو محظور لا ينعقد، كما وإذا نذر مرجوحاً في متوقع محبور لم ينعقد، أو نذر فعلاً محرجاً فعله فيما

دون حرجه ينعقد وفي غيره غير منعقد، وشرط الصحة في النذر المشروط عدم تحقق شرطه قبله، فإذاً لا مورد لشرطه وكما في الصحيح[١].

والصيغة السائغة الصائغة للنذر هي «لله علي» لا سواها كـ«علي» إذ لا نذر إلّا لله، وأما أن يعاهد نفسه على أمر دون أن يعاهد الله عليه فلا نذر، سواء أكان في نذر مشروطٍ أو غير مشروطٍ[٢] ولا «علي نذر» ولا «لله علي نذر»[٣] فإن النذر ليس مورداً للنذر.

---

(١) وهو صحيح ابن مسلم عن أحدهما عليه السلام سألته عن رجل وقع على جارية له فارتفع حيضها وخاف أن تكون قد حملت فجعل لله عتق رقبة وصوماً وصدقة إن هي حاضت وقد كانت الجارية طمثت قبل يوم أو يومين وهو لا يعلم؟ قال: ليس عليه شيء (الوسائل ب ٥ من كتاب النذر ح ٢) ومثله خبر جميل بن صالح (المصدر ح ١).

(٢) كما في صحيح منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا قال الرجل عليّ المشي إلى بيت الله وهو محرم بحجة أو عليّ هذي كذا وكذا فليس بشيء حتى يقول: لله عليَّ المشي إلى بيته أو يقول: لله عليَّ أن أُحرم بحجة أو يقول: لله عليّ هذي كذا وكذا إن لم يفعل كذا وكذا (الكافي ٧: ٤٥٧ والتهذيب ٢: ٣٣٢) أقول والحديث مصرح بكلا النذرين مشروط وغير مشروط.

هذا وأما خبر إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قلت له رجل كانت عليه حجة الله سلام فأراد أن يحج فقيل له تزوج ثم حج، فقال: إن تزوجت قبل أن أحج فغلامي حرّ فتزوج قبل أن يحج فقال: أعتق غلامه، فقلت لم يرد بعتقه وجه الله، فقال: إنه لا نذر إلّا في طاعة الله والحج أحق من التزويج وأوجب عليه من التزويج قلت: فإن الحج تطوع؟ قال: وإن كان تطوعاً فهي طاعة لله عزّ وجلّ فقد أعتق غلامه (الكافي ٧: ٤٥٥ والتهذيب ٢: ٣٣٣).

أقول: ليس هذا العتق لكونه متعلقاً للنذر ولم يكن هناك نذر، إنما هو عتق مشروط وقد تحقق شرطه كان يقول: إذا جاء زيد فغلامي حرّ، فلا رباط للحديث بباب النذر.

(٣) كما في صحيح أبي الصباح الكناني سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل قال: عليّ نذر؟ قال: ليس النذر حتى يسمي لله شيئاً صياماً أو صدقة أو هدياً أو حجاً (الكافي ٧: ٤٥٥ والتهذيب ٢: ٣٣٣).

وفي خبر أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقول: عليّ نذر قال: ليس بشيء حتى يُسمي النذر ويقول: عليّ صوم لله أو يتصدق أو يهدي هدياً وإن قال الرجل أن أهدي هذا الطعام فليس هذا بشيء إنما تهدي البُدُن (المصدر).

وكما يشترط في النذر أياً كان ألّا يحلل حراماً أو يحرم واجباً، كذلك ألا يفوِّت حقاً مفروضاً كحق الزوج لزوجه وحق الوالدين للولد وحق الولد لهما، فإن لكلٍّ حقاً على الآخر ليس ليفوِّته نذر مهما كان في راجح أم واجب هو أدنى من واجب الحق الحاضر في شرعة الله، فلا نذر - إذاً - لزوجة إلّا بإذن الزوج إلّا فيما لا يفوِّت له حقاً عليها أم هي سفيهة فإذا فوّت عليه حقاً أم هي سفيهة لم ينعقد نذرها إلّا بإذنه، وينعقد فيما سواها، والصحيح المخالف مأوّل أو غير صحيح[١].

وجملة القول في النذر أن يكون متعلقه محبوراً مقدوراً دون الحرج، ومترقبه في مشروطه مسموحاً غير مستحيل على الله عقلياً أو في الحكمة.

وفي الحق إن النذر ولا سيّما المشروط منه داخل في حقل الدعاء، بل وهو أدعى الدعاء، حيث تفرض على نفسك ما يرضاه الله حتى يستجيبك الله ما تتقاضاه.

وليس النذر تشريعاً، فإنما هو سماح من الله أن تفرض على نفسك راجحاً مهما كان مفروضاً وتحرم على نفسك مرجوحاً مهما كان محرماً مرفوضاً، فهو من العناوين الثانوية من نوع ثان محدد من قبل الله موضوعاً وحكماً وشروطاً، كما العناوين الثانوية من النوع الأول مقررة من قبل الشرع كالإكراه والاضطرار اللذين هما موضوعان للسماح في قسم من المحرمات.

---

(١) وهو صحيح التهذيب ٢: ٣٢٠ «ليس للمرأة مع زوجها أمر في عتق ولا صدقة ولا تدبير ولا هبة ولا نذر في مالها إلّا بإذن زوجها إلّا في حَجٍّ أو زكاةٍ أو برّ والديها أو صلة قرابتها».
أقول: علّه يعني المرأة السفيهة حيث إن تصرفاتها المالية منوطة بإذن وليها زوجاً أو أباً أو غيرهما، وأما الحج والزكاة وبرّ الوالدين وصلة القرابة، فهي منذورة وغير منذورة ليست بحاجة إلى إذن حيث لا يضرّ فيها السفه، ولا سيّما المفروض منها.

فلا نذر في معصية الله[١] كما لا نذر في مباح فعلاً أو تركاً ولا في فعل مرجوح أو ترك مندوب، اللهم إلّا بعنوان ثان يجعلها راجحاً.

وكذلك لا نذر في تفويت حق أو إفراط أو تفريط في حق، أو إسراف أو تبذير.

وترى أن نذر الوالدين على الولد منَجَّز بحق الولد كأنه هو الذي نَذر؟ أم لا ينجّز إلّا على الناذر أن يحقق نذره في ولده وعليه القبول قضية وجوب طاعة الوالدين اللهم إلّا في أمر محرج أم مرجوح فضلاً عن المحظور، وإذا خالف الولد فهو عاصٍ ولا شيء على الوالدين حيث حققا الواجب عليهما، ثم ومخالفة الولد في النذر المحظور واجبة إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهنا نعرف مدى عمران قلب امرأة عمران، حيث تتجّه إلى ربها بكامل الإيمان بأعزّ ما تملكه تحريراً لغريرة عينها لله كما وهي محررة في طاعة الله، تحرراً عن كلّ عبودية لكل أحد، وعن كلّ اتجاه إلى أي شيء وأي أحد وأية قيمة سوى الله، فقد حرَّرتها بنذرها عن كلّ تقيّد جماعي بأية مسؤولية حتى تتخلّى لخدمة الله في بيت الله[٢].

فالتوحيد الحق في مثلث: العقيدة والنية والعملية، هو الصورة المثلى

---

(١) كما في صحيح الكتاني عن أبي عبد الله عليه السلام ليس من شيء هو طاعة لله يجعله الرجل عليه إلّا ينبغي له أن يفي به وليس من رجل جعل لله عليه شيئاً في معصيته تعالى إلّا ينبغي له أن يتركه إلى طاعة الله (التهذيب ٢: ٣٣٥ ونوادر أحمد بن عيسى ٥٨ واللفظ له).

(٢) نور الثقلين ١: ٣٣١ في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن إسماعيل الجعفي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن المغيرة يزعم أن الحائض تقضي الصلاة كما تقضي الصوم فقال: ما له لا وفقه الله إن امرأة عمران قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، والمحرر لا يخرج منه أبداً فلما وضعت مريم قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ... وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] فلما وضعتها أدخلتها المسجد فلما بلغت مبلغ النساء أخرجت من المسجد، أنّى كانت تجد أياماً تقضيها وهي عليها أن تكون الدهر في المسجد.

للتحرر المطلق، إنه يتمثل هنا في نذر التحرر لقرة العين وفلذة الكبد: الولد - ولمَّا يولد - مما يشي بعمق الإيمان وخلوص العمران لقلب امرأة عمران.

ولقد كانت تنتظر لذلك التحرر المنظور المنذور ولداً ذكراً هو المحور في نذرها، والنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلّا للذكران ليخدموا الهيكل وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن ها هي تجدها أنثى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾:

لقد تحسرت امرأة عمران على ما كان من خيبة رجائها ومعاكسة تقديرها، وتحزنت إلى ربها إذ كانت ترجو ذكراً تهبه محرراً لبيت الله وتقفه على خدمته، ولكن الوليدة أنثى والبنات لا يصلحن لذلك التحرّر الطليق، للزوم مقامهن عند أزواجهن في زواجهن، ولزوم الخروج عن بيت الله حالة الحيض والطلق على أية حال.

فهنا . . . ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ليست إخباراً ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ بل هو تحسُّر أنها لا تصلح لذلك التحرّر لأنها أنثى، فقد تناجي ربها كمعتذرة عن تحرّرها أو كئيبة لأنها أنثى، راجية أن تقبلها ربها على أنوثتها كما تقبلها، مشفقة من ألّا يُقبَل نذرها.

هنا ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ كجملة معترضة، هي ذودٌ عن ساحة الرب أن يعلّم، على ذودٍ عن ساحتها أن تعلّمه، وبيان أنها قائلة قولها متحسرة في ذلك العرض.

وترى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ هي من قولها، والعكس أحرى لأنها وضعتها أنثى فليقل «وليست الأنثى كالذكر»! أم هي من قول الله، والجملة المعترضة بحاجة إلى برهان لأنها خلاف المتعوّد من سرد الجمل.

قد تكون هي من قول الله إشعاراً في هذه الإذاعة القرآنية أن الذكر المطلوب هنا ليس كالأنثى الموهوبة، بل هي أعلى منه وأولى، إذ تحمل إضافة إلى ما تطلبته من التحرر، فإنها تُتقبل محررة في نفسها، ووالدة لعيساها وهما من آيات الله الكبرى، وليست «وليست الأنثى كالذكر» لتفيد ذلك المعنى.

ثم هي من قولها على هامش قول الله، عناية إلى غير معناها: إن الذكر ليس معذوراً كما الأنثى، حيث الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر ولا سيّما في حقل التحرُّر هكذا، لأجل ما يلحقها من الحيض والنفاس، وما يلزمها من الصيانة عن التبرُّج للناس، فإذا خالطت الرجال افتتنوا بها واستضرّوا بمكانها كما تفتتن هي بهم، حيث النساء أوهن عقوداً، وأضعف عقلية وصموداً ووساوس الشيطان إليهن أسرع، فأهواؤه إليهن أهرع.

ثم العكس يفيد نفس المعنى ولكن في الأصل رجاحات ليست فيه:

١ - ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اختصار عن قالتين مختلفتي المعنى: قول الله وقولها، وليس العكس ليعني - فيما يعني - قول الله.

٢ - حسن التعبير في وزن الكلام يقتضي تقديم الذكر على الأنثى.

٣ - حسن المعنى في تقدم الأفضل على الفضيل.

٤ - يتقدم الذكر لتقدمه في عناية النذر فيذكر - إذاً - تحسراً على فقده.

وإنها تتحسر عن فقد الذكر أنه ليس كالأنثى، فلا يُتهم في خلوة البيت كما تُتهم، وهو أقوى من الأنثى، وهو خُلوٌ من أعذار الأنثى، وهو يصلح للنبوة وما أشبهها دون الأنثى، و﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فهل من علاج أن تقوم الأنثى مقام الذكر وتفي بما يفي؟! فمّما تقوي رجاءها في تحقق بغيتها ﴿وَإِنِّي

سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: المرتفعة الغالبة - تتغلب على عراقيل الأنوثة ونقائصها وضعفها وما سواها، وترتفع عن كلّ نقائص الأنوثة والرجولة بجنب الله.

ثم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ لا هي فحسب بل ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مما يلمح صراحاً أنها ألهمت بمستقبل ذريتها، وعلّ ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ كقول الرب ألهمت إليها بعد قالَتِها نفس القول أم عنده.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

التقبل هو قبول على تكلف، وإذ لا تكلف في قبول ربنا فقد يعني هنا منتوج كلّ تكلف في القبول، وهو من ربنا يحلق على كلّ الفضائل والفواضل في القبول، فلا ردَّ فيه ولا أُفول، بل هو قُبول على مدار حياة مريم البتول سلام الله عليها.

فإنه تقبَّل في قبول نذرها أن تنوب الذكر، وتقبّل في جعلها كالذكر، ثم حُسن زيادة حسنى على قبولها أن جعلها وابنها آية للعالمين.

وهنا نستوحي من تقبلها منعها عن الزواج، أم وطهارتها عن الدماء، فلتبق كالذكور وفوقهم إذ لم تحتج لرزقها إلى خروج حيث ضمنه ربها.

هنا تقبُّلٌ رباني لمريم سلام الله عليها في مربعة الجهات هي:

١ - ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ محررة لله لخدمة بيت الله.

٢ - ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ... فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أن تكون مريم: مرتفعة - في اللغة السريانية - غالبة متغلبة على كلّ رجس ونقص ونجس في أنوثة وعبودية، وقد تعني تسميتها مريم تفألاً من أمّها علّها تربو على أقرانها وعلى الذكر الذي كانت ترجوه أمُّها تطبيقاً لنذرها، ثم لتحقيق هذا المغزى

تُعيذها بالله وذريتها من الشيطان الرجيم، تُعيذها أن ينالها نقصٌ في سبيلها كما ينال النساء في خدمة البيت، أو أن يصيبها ما تمس عفافها في خلطها بعُبَّاد البيت، أو أن يعترضها ضُعف في خدمتها، أو تلحقها تُهمة في اختلاطها بالرجال.

٣ - ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ مُعاذَةً بالله، فهو يعيذها من الشيطان الرجيم.

٤ - ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عيسى عليه السلام وهو الأصل في ذلك المسرح حيث يحتل القمة الرسالية والمرتبة الرابعة من ولاية العزم بين النبيين عليهم السلام.

فذلك قبول حسن في مربع الدعاء والاستدعاء، أحسن مما إذا كان ذكراً.

فرغم أن الذكر ليس كالأنثى في قالتها، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في قول الله، حيث فاقت كلّ ذكر في تاريخ الرسالات اللهم إلّا أولياء العزم ولا سيّما محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا...﴾ ثم ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ منذ ولادتها حتى حملها ووضعها وإلى موتها، فقد كانت تترعرع على رقابة الله الخاصة وعينه الحامية لتقبلها محررة مريم معاذةً بربها وذريتها من الشيطان الرجيم، عصمة ربانية في كلِّ أبعادها إلّا الوحي الرسالي.

ولماذا ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ بالإنبات، دون تربية حسنة؟.

علّه للإشارة إلى تحليق المراقبة الربانية لها منذ انعقاد نطفتها وتكاملها جنيناً وولادتها وإلى موتها، فإنها كلها من الإنبات ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[1]. فالسُّلالة من ماءٍ مهين هي الصفوة المختارة من المني، ثم المواد

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.

الكيماوية الكامنة في ماء الرجل والمرأة هي صفوة العناصر الكيماوية المنتزعة من الدم، الذي هو أيضاً بدوره صفوة ما نتناوله من مشرب ومأكل، وكل لاحق نابت من سابقه حتى السلالة النطفة، ثم العلقة والمضغة والعظام واللحم، كلٌّ نابت من سابقه.

وإخراجنا من الأرض نباتاً له دور عام يعمُّ سائر النسل الإنساني، وآخر خاص يخص الأصفياء المخلَصين.

فقد يعني ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ كلّ هذه المراحل، ولكي تصلح للاصطفاء على نساء العالمين وتلد المسيح عليه السلام، فقد جمع في الإنبات نباتاً حسناً إلى طهارة الوالدين وطهارتها حين بلغت، الطهارة الربانية المحلِّقة على كلّ مراحل إنباتها على طول الخط.

ومن إنباتها النبات الحسن: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾ كفالة النبات الحسن والتربية اللائقة الرسالية، فقد جعل الله باقتراعهم كفالتها لزكريا - زوج خالتها - أميناً مؤمّناً عليها، مؤمناً بشأنها، وكان رئيس الهيكل اليهودي من ذرية هارون الذين انتقلت إليهم سدانة الهيكل، فنشأت مُباركة مجدودة، يُهيئ لها الله من رزقه فيضاً متواصلاً.

أترى تلك الكفالة كانت ذات بعدين أولهما خصوص الوحي بشأن كفالته إياها، وثانيهما الاقتراع تأييداً وتأكيداً لذلك الاختصاص؟ النص ساكت عن بعدين اثنين، وعلّ «كفلها» تعني كفالته إيّاها بوحي الاقتراع، سكوتاً عما سكت عنه النص وذوداً عن ساحة القديسين اختصامهم في كفالتها بعد وحيها لزكريا.

هنا فاعل ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ هو الله وزكريا المفعول الأوّل ومريم هي الثاني، حيث الكفل متعد بنفسه، فرغم أن الولد في كفالة الأبوين عرفاً وشرعاً، ولكن مريم النابتة نباتاً حسناً بحاجة إلى كفالة عاصمة معصومة لم يكن

يحملها هناك إلّا زكريا، مهما تخرج بالقرعة الشرعية من بين القديسين المتنازعين بشأنها.

و﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ كأصل هو محل الحرب فإن عبادة الرحمن محاربة الشيطان، ولأن العبادة الخالصة بحاجة إلى الانسراح عما سوى الله، فالمحراب الحرب.

هو أيضاً من الحريب: السليب، يعني عن أشغال الدنيا، وهو المقدَّم في كلّ مسرح ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾[1] فالمحراب معنوياً هو محل الانسراح عما سوى الله لإخلاص عبادة الله بحرب الشيطان، وهو مكانياً المقصورة في مقدَّم المعبد لها باب يصعد إليه بسلّم ذي درجات قليلة، ويكون من فيه محجوباً عمن في المعبد، و﴿كُلَّمَا دَخَلَ﴾ مما يلمح بهذه الخصوصية لمحرابها، وكما يصرح به ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾[2] حيث المعبد المكشوف لا يتصور فيه التسوُّر.

والكفالة - ككلّ - هي من المواضيع الشرعية، سواءً في التربية والحفاظ بدنياً أو معنوياً أم مالياً أماهيه مما تصّح فيه الكفالة.

وأصلها من الكفل: المركب، في ركب الحياة كبعض أو ككل، وقد تكفها زكريا في مسير الحياة كفيلاً ضامناً عادلاً معصوماً في مسيره إلى مصيره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ﴾ و﴿رِزۡقًاۖ﴾ يعني، رزقاً معيشياً إلى رزق معنوي لتكون متحررة عمن يرزقها سوى الله مهما كانت للكفالة الرسالية دورها الفعال على عين الله ورعايته.

أجل ﴿رِزۡقًاۖ﴾ جليلاً لا يُعرف مصدره ولذلك نُكِّر، واحتار زكريا من

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٢١.

ذلك الرزق المكرور دونما انقطاع فـ ﴿قَالَ يَمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي زمان ومن أيٍّ والسبل المألوفة له - وأنا الوسيط الوحيد فيها بظاهر الحال - منقطعة عن قمة المحراب، حيث لا يُسمح لأحد غيري أن يدخله، فـ ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بتقطع الأسباب المتعوّدة، وكما تحرّرت عنها في ذلك التحرُّر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ نحاسبه نحن في حياتنا المتعودة، أو يحاسبه الله، مهما كان رزقه بغير حساب بميزان وحساب.

ويا لها من خنوع وخشوع أمام العطية الربانية، احتفاظاً بالسرِّ الذي بينها وبينه، والتواضع في التحدث عن ذلك الرزق السرّ، دون أية مباهاة وتنفج وتبهُّج.

هنا لا نخوض في مواصفة ذلك الرزق ونوعيته، ولكننا نعلم حسب النص أنه ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ عندية خاصة مباركة طيبة، مختلفة عن سائر الرزق المؤتلفة، فليكن من الجنة أم خلق الساعة.

فلا يرد نقد الجمعية الرسولية الأمريكية على ذلك الرزق بأن «الجنة ليست محل أكلٍ وشربٍ بل هي محل التقديس والتسبيح وكلّ تنعماتها روحية»[١].

أولاً: أن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا تخصُّ الجنّة إلّا بتأويل أن الله ساكن الجنّة فالرزق من عنده ليس إلّا من الجنّة.

ثانياً: أن الجنّة حسب القرآن والعهدين فيها تنعمات مادية إضافة إلى الروحية.

ثالثاً: لن هذه الجنة علّها جنّة آدم والتي صعد إليها المسيح وهي من جِنان الدنيا.

(١) كتاب الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية ٢: ٣٦.

ورابعاً: إن الرزق من عند الله يعني هنا من غير السُّبل المتعودة وكما «إن الله سخر الغربان لإيليا فكانت تأتيه بلحم صباحاً ومساءً» (امل ١٧: ٤ و٦).

كما و«هيأ له الكعكعة (نوع من الخبز) وكوز الماء فنبهه الملاك للأكل والشرب حتى سار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً» (امل ١٩: ٥ - ٩).

وإذا هم يستغربون رزق الطاهرة من عند الله حلالاً طيباً، فكيف يستقربون شرب المسيح جديداً من نتاج الكرمة - الخمر - في ملكوت الله (متى ٢٦: ٢٩ ومرقس ١٤: ٢٥ ولوقا ٢٢: ١٨) أو مما يأكل منه التلاميذ على مائدة المسيح في ملكوته (لوقا ٢٢: ٣٠) هذه مريم الطاهرة العذراء تجد عندها رزقاً من عند الله، وهي منقطعة عن عباد الله، ثم انظر إلى فاطمة الزهراء مولاة العذراء، حيث تجد عندها رزقاً وتتمثل لأبيها ﷺ بقول الله عن العذراء يا أبت ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] [2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٠ - أخرج أبو يعلى عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شقَّ ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ فقالت: لا والله، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: بأبي وأمي قد أتى الله بشيء قد خبأته لك فقال: هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي ﷺ فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هو من عند الله...

وفي نور الثقلين ١: ٣٣٣ عن تفسير العياشي عن سيف بن نجم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن فاطمة ضمنت لعلي عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقمِّ البيت (كنسه) وضمن لها علي عليه السلام ما كان خلف الباب نقل الحطب وأن يجيء بالطعام فقال لها يوماً: يا فاطمة هل عندك شيء؟ قالت: لا والذي عظَّم حقك ما كان عندنا منذ ثلاث إلّا شيء نقريك به قال: أفلا أخبرتني؟

=

هُنا زكريا المكفل مريم لما يرى هذه الكرامة الربانية لها، تتحرك عنده الرغبة في ذرية طيبة، حكمة عالية مرغوبة فيها لامتداد الرسالة في نسله.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨)﴾:

إنه لم تكن حتى الآن لزكريا ذرية، وطبيعة الحال في الدعاء أنها عند انقطاع الرجاء، وانقطاع الأسباب المتعودة لحصول المدعو له، فـ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ﴾ الذي ربيتني بالتربية الرسالية وهي خارقة العادة ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كخارقة أخرى.

و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ استيهاب من رحمته اللدنية الخاصة، ليست كالعادة بأسبابها العادية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فهو - إذاً - تطلُّب لخرق الأسباب المألوفة في الإيلاد.

فقد حمل زكريا ﴿هُنَالِكَ﴾ مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية، الطليقة عن المألوف، رغم ما نحسبه قانوناً لا يتخلف فنشك - إذاً - في كلّ حادث خارج عن نطاق هذا القانون المزعوم!.

فها هو زكريا الشيخ الكبير وزوجه - العاقران - اللذان لم يلدا في صِباهما، هُنالك تجيش في قلبه الرغبة في ذرية طيبة هبة من عند الله، وحق

= قالت: كان رسول الله ﷺ نهاني أن أسألك شيئاً فقال: لا تسألي ابن عمك شيئاً إن جاءك بشيء عفواً وإلّا فلا تسأليه، قال فخرج عليه السلام فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثم أقبل به وقد أمسى فلقي المقداد بن الأسود فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟ قال: الجوع، والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين عليه السلام قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ورسول الله ﷺ حيّ؟

قال: ورسول الله ﷺ حي، قال: فهو أخرجني وقد استقرضت ديناراً وسأوثرك به فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول الله ﷺ جالساً وفاطمة تصلي وبين يديها شيء مغطى فلما فرغت أحضر ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم، قال: يا فاطمة أنّى لك هذا؟

له وهو يرى بين يديه مريم العذراء الصالحة الرعناء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1] - ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[2].

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

«هنا» نادته الملائكة وفي مريم ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ...﴾[3] ولا منافاة بينهما فإن الملائكة هم وسطاء في ذلك البلاغ المبين.

والتبشير هنا يحمل مواصفات أربع ليحيى:

١ - ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هي المسيح عيسى ابن مريم، فإنه كلمة قالها من قبل[4] وكلمة دالة على الله تكوينياً حيث وُلِدَ دون أبٍ، وكلمة

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٢-٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧.

(٤) كما في الأصل العبراني (تث ٣٣: ١ - ٢) «وزئت هبّراخاه أشر برخ موشه إيش ها الوهيم إث بني يسرائيل لفني موتو (١) ويومر يهواه مسّيني باو زارح مسّعير لامو هو فيع مهر فاران وآتاه مربّبت قدش مى ميتواش دات لامو» - «وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته (١) وقال: الله من سيناء جاء تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران وورد مع آلاف المقدسين من يمينه ظهرت الشريعة النارية». =

رسولية حيث تدل على الله بربانية أعماله وفعاله وقاله، وكلمة رسالية تكلم بها المرسلَ إليهم، مربع الكلمات يحملها المسيح عليه السلام ولم يحملها كلّها سائر الخلق أجمعين، فقد ولد دون أبٍ ولادةً منقطعة النظير في تاريخ الإنسان، وآدم لم يكن وليداً حتى يكون هو الأوَّل في تلك الولادة، فإنَّما خُلِقَ من تراب.

وليس كونه كلمةً آيةً خارقة للعادة من حيث الولادة، ليفضله على سائر الرسل، إذ إنها آية أقوى من سائر الآيات المبصَرة لأن بني إسرائيل هم أغوى من سائر الأمم، ثم آية القرآن هي أقوى الآيات الرسولية والرسالية على الإطلاق لأنها تحلق على كافة المكلفين منذ بزوغها إلى يوم الدين.

٢ - ﴿وَسَيِّدًا﴾: عظيماً في الحقل الروحي علماً وتقىً، يمتاز عن كثير من رجالات العلم والتقوى، الرساليين و«سيداً» في كلّ حقول السيادة الصالحة.

فالتصديق بكلمة من الله، والسيادة اللّائقة للقيادة، والحصر عن كلّ الشهوات، كلّ هذه من الشروطات الأصيلة للنبوّة حيث تجمع القيادتين الروحية والزمنية.

٣ - ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغة الحصر، وهو الحصر عن الشهوات محرمة ومرجوحة، دون الراجحة في شرعة الله كالنكاح، خلاف ما يهرف بشأنه تبجيلاً له وتخجيلاً لكلٍّ هؤلاء الذين تزوّجوا من نبيِّين وسواهم من الصالحين، لا! وإنما ﴿وَحَصُورًا﴾ نفسه عن الشهوات واللهوات

= أقول: وفي دعاء السمات: «وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران وبطلعتك في ساعير وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين».

المرجوحات، ﴿وَحَصُورًا﴾ كلّ وجهه بكلٍّ وجوهه إلى الله، فهو حصور في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾[١] ثم حصور في ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حسراً عما سوى الله وحصراً في الله.

والحديث الخبيث المفترى على الرسول الطاهر الأمين ﷺ، المحلق للذنب على الكلِّ إلّا يحيى عليه السلام لأن ذكره مثل هدبة الثوب[٢] مضروب عرض الحائط حيث يمس من كرامة الخالق للعورات والشهوات المحلّلة، ومن كرامة الصالحين الناكحين حلاًّ!.

أجل! وقد تعني ﴿وَحَصُورًا﴾ فيه فيما تعنيه، تركه - كما المسيح عليه السلام - للزواج على شبقه، ترجيحاً لتقدم الدعوة الرسالية على تحقيق الشهوة المحلّلة، إذ لم تكن ظروفه لتسمح له بالجمع بين الزواج وتحقيق الرسالة، معاكساً لمحمد ﷺ حيث اقتضت ظروفه الرسالية زواجاً وأكثر من الأربع المسموح للأمة تحقيقاً حقيقاً لكرامة الرسالة بضمِّ عوائل كثيرة إلى خضمِّه.

إذاً ف ﴿وَحَصُورًا﴾ المحلق على كلِّ داعية إلى الله تختلف ظروفه وطقوسه في البعض من مصاديقه، فكما النكاح راجح أم واجب أحياناً، كذلك هو

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٢ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عمرو بن العاصي عن النبي ﷺ قال: ما من عبد يلقى الله إلّا ذا ذنب إلّا يحيى بن زكريا فإن الله يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٩]، قال كان ذكره مثل هدبة الثوب وأشار بأنملته.

أقول: ولا يرجى من ابن العاصي إلّا هكذا اختلاق معادي على رسول الهدى ﷺ.

واختلاق آخر حفاظاً على «حصور» له إيجاباً وعلى غيره سلباً، أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: أربعة لُعنوا في الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة رجل جعله الله ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء، وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال، والذي يضل الأعمى، ورجل حصور ولم يجعل الله حصوراً إلّا يحيى بن زكريا، أقول: ذكره حصوراً في الذكر الحكيم دليل أنه من كمالاته الممتازة فنفيه إذاً نقص وعوذاً بالله من هذه الجهالة المزدوجة!.

وفي نور الثقلين ١: ٣٣٥ عن المجمع ﴿وَحَصُورًا﴾ لا يأتي النساء وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

مرجوحٌ أو محرّمٌ أحياناً أخرى، والحصور هو الذي يتابع صالح الدعوة وفقاً لظروفها المواتية المناسبة.

٤ - ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وترى هُناك أنبياء غير صالحين حتى يوصف هنا «نبيًّا» بـ ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؟

كلّا، حيث يعني ﴿وَنَبِيًّا﴾ رفيع الدرجة، ولأن رفعة الدرجة درجات هنا يقيد بـ ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني المرسلين، حيث المرسلون درجات والنبيون منهم أرفع شأناً وأنبى مكانة ويحيى منهم، كما و﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ آباء وأمهات منذ آدم إلى زكريا.

فلقد استجيبت الدعوة الحانية، المنطلقة من القلب الطاهر الحاني، الذي علق رجاءه بسميع الدعاء، وهو يملك الإجابة كيف يشاء حيث يشاء، استجيبت في «يحيى» الذي ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1] - ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴿وَسَيِّدًا﴾ كريماً ﴿وَحَصُورًا﴾ يحصر نفسه عن الشهوات ويملك زمام نزعات من الانفلات، ﴿وَنَبِيًّا﴾ رفيع المنزلة ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الرساليين.

ذلك! ولكننا نسمعه كأنه يستغرب ما استقربه الله، استغراباً عن عقره وزوجه لا عن رحمة الله:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾:

ولكن ﴿أَنَّىٰ﴾ سؤال عن زمن تحقيق البشارة، وليس استفهام إنكار واستبعاد عنها، فلم يقل «كيف - أو - أين» وإنما «أنّى» - ولكي لا تتأخر

(١) سورة مريم، الآية: ٧.

أكثر مما تأخرت يعرض حاله ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وحال زوجه ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فأُجيب من فوره بتأكيد البشارة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد عن حساب الناس، العظيم العظيم عند الله ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ دون رادعٍ ولا مانع، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون. . . فلا ينسب إلى أي عاقل فضلاً عن نبي أن يستبعد من رحمة الله ما رجاه ودعاه ولقد كانت ﴿أَنَّىٰ﴾ في موقعها - حين يرى أن البشارة واقعة موقعها - إذ يبتهج بجدارته لها فوزاً بحظوتها، حاصلاً على مزيتها، فتطلب زمن تحققها، عالماً أنه يُورق الهشيم ويستنتج العقيم.

وهذه طبيعة الحال لمن بشّر بما يتمناه، وهي غريبة عن حاله على رجائه أن يولد له فرط السرور عند أوّل ما يهجم على سمعه ما تقاضاه، استئنافاً في المعرفة وزيادة في الاستبانة، ولا أقل من استعلام زمن الهبة المبشرة.

أجل و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[1] عرضاً لحاله البعيدة عن هذه الرحمة الغالية، بعد أن دعا ربه ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ وهو الرحمة اللدنية الخاصة، البعيدة عن المألوف تكويناً وتشريعاً، وهذه شيمة كريمة من الصالحين في دعائهم عرضاً لفقرهم وغناه، واستعراضاً لسلب أهليتهم في أنفسهم رجاء رحمة الله.

فما أقبحه تأويلاً عليلاً قيلة القائل: إن الله لما بشَّره بالولد - وكان عنده إن العاقر لا تلد - والعقيم لا تنسل - اعترضه الشيطان حين نادته الملائكة أن ما سمعه إنما هو منه لا منهم، فشك فيما بشر.

وذلك جهل عظيم من قائلة وقلّة بصيرة بمنازل الوحي، فإنهم تُجّل أقدارهم عن تلاعب الشيطان بهم، وإن تخلط النداءان عليهم.

(١) سورة مريم، الآية: ٨.

فإذا كانت الملائكة هي التي بشرته كما قال الله، وقد جرت عادته الرسالية باستماع كلامها، وألِف مهابطها، وثلج صدره بما تؤديه عن ربها، فأي عاذرة له - إذاً - في أن يعترضه الريب أو يختلجه الشك.

ولو كان مرتاباً في بشارته فكيف يُنادي ربَّه فيها ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ . . . ؟!.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾:

هنا ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ وفي مريم ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾[1] تتجاوبان في مجموع الثلاث الليالي والأنهار.

والآية المطلوبة هنا ليست آية لأصل البشارة كأنه شاكٌّ فيها، وإنما في زمنها حتى يحضِّر نفسه في حالة خاصة وهالة من عبادة راصّة لاستقبال تلك البشارة والتفصيل إلى سورة مريم عليها السلام حيث نفصل فيما فصل الله ونجمل فيما أجمله الله.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا تُشافه الملائكة مريم الطاهرة المصطفاة وحياً دون رسالة تحمل شرعة رسالية، فلم تصبح به مرسلة من الله كالرُّسل، وكما ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾[2] وحيان هما تقدمتان لوحيين رساليين موسوي وعيسوي عليهما السلام، كما والمؤمنون المستقيمون ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

(١) سورة مريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[١].

و﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ الأولى دون متعلق، قد تعني غير الثانية فإنها ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونها، إذ لا تصح «وطهرك على نساء العالمين» حتى تقبل العطف.

وهذه العناية المختلفة هي طبيعة الحال في تكرار، ولا سيّما بوسيط غير المكرر ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ فلتكن الأولى اصطفاءً غير التطهير المتوسط وغير الاصطفاء الثاني، فقد تعني اصطفاءها على ذَكَر تطلبته أمها محرراً، كما اصطفاها على كلّ ذكر لا ينجب ولداً دون أنثى وهي أنجبت دون ذكر، كما واصطفاها من ذرية الأنبياء المصطفين المرسلين[٢] وإلى سائر الميزات الأنثوية، ولكنها على قمتها بحاجة إلى طهارة قمة تذود عنها مستلزمات تحرّرها لخدمة البيت خلطاً بالرجال على أية حال، فلذلك:

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ طهارة مُطلقة تُناسب الاصطفاء سبباً ونتيجة و«طهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأُمهاتها سفاحٌ»[٢].

ومن أن تأتي سفاحاً... ومن ثم الاصطفاء الثاني: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اصطفاء يُحلِّق على كلّ صفوة سامية، ومن ذلك اختصاصها في خطاب ربها ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي...﴾[٢].

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٣٦ عن تفسير العياشي عن الحكم بن عتيبة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله في الكتاب: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ...﴾ [آل عِمرَان: ٤٥] اصطفاها مرتين وإلّا الاصطفاء إنما هو مرة واحدة؟ قال: فقال لي: يا حكم إن لهذا تأويلاً وتفسيراً فقلت له: ففسره لنا أبقاك الله فقال: يعني اصطفاه إيّاها أولاً من ذرية الأنبياء وطهّرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأمهاتها سفاحاً واصطفاها بهذا القرآن: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي...﴾ [آل عِمرَان: ٤٣].

أترى أن سعة ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي عرض المكان وطول الزمان؟ فهي - إذاً - مفضلة على الصديقة الطاهرة - وهي خير نساء العالمين من الأولين والآخرين -!.

رجالاً ونساءً كما شرحنا عند تفسيرها في آية التطهير بقول فصل، فهي خير العالمين - كأبيها وَبْعلِها وبنيها المعصومين - رجالاً ونساءً، فهي مفضَّلةٌ على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فضلاً عن مريم سلام الله عليها.

وما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إن «أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون»(١) لا يعني مساماتهن مع بعض، وإنما فضلهن على النساء، على تفاضلهن فيما بينهن.

ذلك كما وهي سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول(٢) فهي - إذاً - «أفضلهن عالَماً»(٣) في الدنيا والآخرة.

ذلك - وليس ذكر مريم سلام الله عليها مرات في الذكر الحكيم وتطهيرها واصطفاءها إلّا ذوداً عنها وابنها المسيح عليه السلام ملابساتِهما من

---

(١) الدر المنثور ٢: ٢٣ - أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل...
وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعاً آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: حسبك من نساء العالمين....

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول.

(٣) المصدر أخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأفضلهن عالماً فاطمة.

الشُّبهات التي لم يتورَّع اليهود والنصارى أن يلصقوها بهما، وإلَّا فلا دافع لذكر النساء بأسمائهن في القرآن كما لم يذكرن فيه إلّا هي.

أم أن القدر المعلوم من ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانها الحاضر، أم والغابر إلى حوّاء، وأما المستقبل فلا، فلأن الاصطفاء ماض فـ ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إذاً ماضون، فلا يعني إلّا ماضيه في الماضين دون الآتين إلى يوم الدين، فالشمول لمن يأتي بحاجة إلى دليل وليس فليس.

صحيح أن العالمين في ﴿رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] يعمُّهم كلهم ولكنه بقرينة الرب المحلق ربوبيته على كلِّهم، وأما الخلق فقضية محدوديته هي محدودية العالمين إلّا بدليل.

وأما الصديقة الطاهرة فهي حسب النص «خير نساء العالمين من الأولين والآخرين»[2].

وحتى لو دل دليل على اصطفاء مريم على كلّ نساء العالمين - ولن -

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٨.

(٢) مجمع البيان: أي على نساء عالمي زمانك لأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين وهو قول أبي جعفر عليه السلام، وفي نور الثقلين عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال: أيما امرأة صلَّت في اليوم والليلة خمس صلوات وصامت شهر رمضان وحجّت بيت الله الحرام وزكّت مالها وأطاعت زوجها ووالت علياً دخلت الجنة بشفاعة ابنتي فاطمة عليها السلام وإنها لسيدة نساء العالمين، فقيل: يا رسول الله هي سيدة عالمي زمانها؟ فقال ﷺ: ذاك مريم ابنة عمران وأما ابنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين وإنها لتقوم في محرابها فيسلِّم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين.

أقول: وهذا النص متواتر من طريق الفريقين تواتراً معنوياً أنها أفضل من نساء العالمين من الأوّلين والآخرين دونما استثناء وأنها سيدة نساء أهل الجنة، راجع ملحقات إحقاق الحق (١٠ : ٦٩ - ٩٦) وسيدة نساء هذه الأمة (١٠٣ : ١١٥) تجد مئات الأحاديث من طرق إخواننا حيث تعني أفضليتها المطلقة على نساء العالمين في الدنيا والآخرة.

فآية التطهير ترفع دور فاطمة في العصمة إلى القمة المحمدية الفائقة على كلٍّ العالمين ومكثت بالبيت تعبدُ ربَّها متحرِّرة للخدمة، مخلصة في القيام بالسدانة حتى صارت مضرب الأمثال، لأن ربها ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ . . .﴾.

تقبلها ربها محررة للبيت ولا يحق لخادمة البيت، والمنذور لتلك الخدمة، المقبولة عند ربها، لا يحق لها خدمة أخرى، لزوج وسواه، فلا تفكر - إذاً - في زواج وسواه ما استلزم الخروج عن البيت، أو خدمته داخل البيت، ولا تعرضها فكرة الخروج لأية حاجة إذ كانت مكفولة الرب في كلّ حاجياتها محررة بالبيت.

إذاً ففكرة الزواج أو اختيار خطيب لها نائية عن خَلَدها، بعيدة عن تحررها، لأنها تُنافي ونذر أمها وتقبل ربها بقبول حسن.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أنبأناك من القصص ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ ومنها الاقتراع بشأن من يكفل مريم ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ وذلك بوحي من الله إلى زكريا بشأن هذه الكفالة المختصم فيها بين القديسين ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾.

فقد كان هناك اختصام بشأن تلك الكفالة الكافلة لصالح مريم سلام الله عليها، فلأن القرعة لكلِّ أمر مشكل، أمروا بذلك الاقتراع حسماً للموقف بما يشاء الله فيه، وعلّه دون وحي خاص بكفالة زكريا رعاية لذلك الجمع القديس.

لقد كانت كفالتها فريضة بارزة لموقفها الخاص في تحررها، فمن

يكفلها إذاً بين هؤلاء المختصمين بشأنها وهم كلهم صالحون؟ لا سبيل صالحة لتلك ولأن فاطمة سلام الله عليها لم تذكر بأي سوءٍ حتى في ألسنة أعدائها فلا موجب لذكرها اللّهم إلّا في جماع الطهارة والعصمة العليا مع أبيها وبعلها وبنيها كما في آية التطهير.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

ذلك التخصص في خطابها بمثلث القنوت والسجود والركوع لربها، هو صورة لمّاعة من اصطفائها على نساء عالمي زمانها وقبلها، حيث لم تخاطب مَن قبلها كآسية وسواها بذلك الخطاب الحنون، فهو خطاب رسالي مهما لم تكن هي من الرسل، تدليلاً على القمة البالغة فيها مبلغ الرسل، فتُخاطب كما يُخاطَبون ويوحى إليها كما يوحى إليهم اللّهم إلّا وحي الرسالة.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ في مطلق الطاعة والعبادة، ثم في خاصتها التي هي عمود الدين، المذكورة بأسمى سماتها في جُموعِ المصلِّين ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

فكما السجود والركوع هما معنيان بعناية الصلاة، كذلك الإتيان بهما في جماعة لمكان ﴿مَعَ﴾ الشاملة لكليهما، وليس جمعهما إلّا في الصلاة، فقد تأتي هذه الآية في عداد آيات فرض الجماعة في فرض الصلاة، كـ ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(١) و﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾(٢) وهي سبيل المسجد مكاناً لزاماً للصلاة.

فليكن القنوت للرب، المتمثل كأفضله في الصلاة، ليكن في جماعة القانتين، كشعيرة عظيمة جاهرة ليل نهار أمام الناظرين، فإن ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ تعمّ مثلث القنوت والسجود والركوع.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

فلقد نمت مريم وترعرت وشبَّت واشتدَّ ساعدها وعُمِّر قلبها بتقواها النمام الذي كان في أصحابه بالقرعة بتعليم الله سبحانه إياه «وكان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها». واقترع ﷺ بين أهل الصفة لتخرج إلى من يبعثهم إلى غزوة ذات السلاسل واقترع ﷺ في غنائم حنين ليخرج سهم عيينة والأقرع، «واقترع علي عليه السلام في الولد الذي كان بين ثلاثة» وكذلك القرعة لتعيين الشاة الموطوءة التي دخلت بين الغنم وليست بمعلومة[١].

وحين يقترع النبيون في المشاكل وهم أصحاب الوحي فأحرى بنا أن نقترع استناناً بسنتهم كما أمضاها الله تعالى.

وفي ناصية الاقتراعات الرسالية ما اقترع رسول الله ﷺ فـ«كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه»[٢].

كما «فأقرع ﷺ بينهم والحق الولد الذي أصابته - صارت عليه القرعة»[٣].

«فأقرع بينهم فضمن الذي أصابته القرعة ثلثي الدية»[٤].

المصلحة الروحية القمة إلّا الاقتراع وهو هنا كان بأقلام الوحي حيث

---

(١) سفينة البحار ٢: ٤٢٥ عن الصادق عليه السلام وقد رواها كلها عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وقد وردت زهاء ثلاثين حديثاً في مختلف الأبواب في وسائل الشيعة كلها تقول ما معناه «القرعة لكلِّ أمر مشكل».

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٥: ٣٦٧، أخرجه بألفاظ عدة باتِّحاد المعنى عن: خ هبة ١٥ - جهاد ٦٤ - شهادات ١٥، ٣٠ - مغازي ٣٤، ٥٥ - تفسير سورة ٣٤، ٦ - نكاح ٩٧ - م ففضائل الصحابة ٨٨، توبة ٥٦، نكاح ٣٨، جه نكاح ٤٧، أحكام ٢٠، دى جهاد ٣٨، نكاح ٢٦، حم ٦، ١١٤، ١٩٧، ٢٦٩.

(٣) المصدر د طلاق ٣٢، ن نكاح ٥٠، جه أحكام ٢٠.

(٤) المصدر حم ٤، ٣٧٣، وفيه: إن قوماً اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد.

كانوا يكتبون بها، وما أنسبها بالنسبة لمن يكفل بالوحي، والدة لصاحب الوحي العظيم المسيح عليه السلام.

ولم يكن اختصام هؤلاء الكرام عدائياً كاللئام، وإنما سباقاً إلى رحمة الله وهم رفاق في الله وكما اختصم الملأ الأعلى ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] كما وأهل الجنة ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[2].

ولقد جرى في ذلك المجرى قلم زكريا في الماء على خلاف المجرى خرقاً للعادة، تبييناً أنه هو المخصوص هُنا بكرامة الكفالة على كرامتهم جميعاً فقُضي الأمر كما أراد الله.

وترى ما هي حدود القرعة حكمياً وموضوعياً في شرعة الله؟.

حين نرى أن الله تعالى يرضى هنا بالاقتراع ولم يشكل عليه حكم ولا موضوع، وإنما رعاية لجمع القديسين، فبأحرى لنا الاقتراع حين يشكِّل لنا أمر في موضوع وقد انقطعت كافة السبل والبراهين لتعيين الموضوع.

لا أقول إننا نستنبط الحكم بالقرعة، حيث الأحكام العامة مبينة في الكتاب والسُّنة، فإنما ذلك هو الموضوع المبين حكمه، المجهول مصداقه، كواجب الكفالة لمريم عليها السلام، ثم المصداق يتبيَّن بالقرعة والله عالم بالحكم والموضوع، ولكن المصلحة تقتضي تعيين الموضوع بالقرعة حسماً للاختصام، وتجنباً عن أي ترجيح بلا مرجح ظاهر.

إذاً فالاختصام - صالحاً وسواه - هو المورد الصالح للاقتراع إصلاحاً للموقف وإيلافاً للمختصمين، فأي قضية أعدل من القرعة إذا فُوِّض الأمر إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾[3] وكما استعمل موسى عليه السلام.

---

(١) سورة ص، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الطور، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤١.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا

لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا قالات ملائكية لمريم سلام الله عليها بما أوحى الله، تحمل البشارة بالمسيح عليه السلام مولداً ورسالة عالية بآيات لها، قرّاً لعينها وقراراً لقلبها، وتخفيفاً عن وطأتها بحملها ووضعها دون بعلٍ، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾.

لقد تهدَّرت الأيام وتهدلت، ففي يومٍ مَّا وهي في محرابها اضطربت نفسها فجأة وداخلتها رهبة لم تعهدها من ذي قبل إذ تظهر أمامها ملاك الرب يبشرونها بوليدٍ لها وجيهٍ في الدارين، ولا وجه لوجيه وغير وجيه من عذراء لم يمسسها بشر ولم تك بغياً!.

في سائر القرآن آيات ثلاث تُواصف المسيح ابن مريم عليه السلام بـ«كلمة» ثانيتها: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(١) وثالثتها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٢) فماذا تعني كلمة الله بحقه عليه السلام ولم يوصف أي نبي ولا خاتم النبيين بـ﴿كَلِمَةٍ﴾؟.

الكلمة لغوياً هي ما تدلُّ على معنى، شاملة للألفاظ الموضوعة على معانيها، والموضوعات الدالة على واضعيها، والأفعال الدالة على فاعليها

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

وكيانهم فيها، أماذا من دلالات في دالات وضعية أم ذاتية أم قصدية أماهيه.

لذلك سُميت ذوات محمد والمحمديين صلوات الله عليهم أجمعين أسماء هي هي الكلمات ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1] كما تقدمت في البقرة.

ذلك - إلّا أن اختصاص المسيح عليه السلام بوصف الكلمة يزيد على تلك الدلالة الأسمائية بما يخصصه بالكلمة.

فهو نتيجة كلمة ﴿كُن﴾ و﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ وإن كان كلُّ مولود يكون عند قوله تعالى: ﴿كُن﴾ فإن كلّ مولود سواه إنما يكون بـ ﴿كُن﴾ على طريق العلوق من الرجال، ووسيط اللقاح المتعود من الرجال، وليس كذلك المسيح عليه السلام فليختص بخاصة ﴿كَلِمَةٍ﴾ لخاصة ﴿كُن﴾ الخارقة في بعد ثان بحقه.

فهو الكلمة المُلقاة إلى مريم: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فالروح هو روحه وعلّ الكلمة - إذاً - هو جسمه: النطفة الرجولية الملقاة إليها دون وسيط رجل، ألقيت من المجرى التناسلي بدفعٍ عبَّر عنه هنا بالإلقاء وفي غيرها بالنفخ، وهما مشتركان في معنى الدفع.

وقد تعني كلمة المسيح - فيما عنت - كرورَ ذكره في مُنزَلات كتب السماء المتقدمة لميلاده ورسالته، فلما خلقه الله قال: هذه كلمتي المتقدمة، فقد كانت البشارة - التي هي كلمة - ابتداءَ معرفته بواقعه، والمطرقة بين يدي مورده.

وكذلك كلمته التشريعية - إضافة إلى التكوينية - الدالة عليه، الهادية إليه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

ومهما شاركت المسيحَ سائرُ الكلمات تكوينية وتشريعية، لم يكن ليشاركه في ﴿كُن﴾ الخارقة ولادة دون أب، اللهم إلّا آدم عليه السلام ولكنه - مع ذلك - لا يستحق كرامة هذه «الكلمة» لعدم ولادته هكذا وإنما خلق من تُرابٍ ولعدم جمعه سائر معاني الكلمة، إلّا في بعضها عدّة وعدّة ضئيلة.

ومهما يكن من شيء فكلمة اسمه المسيح تصدق كأصدقه على تكوينه الخارج عن المألوف، وقد ألقيت إلى مريم لقاحاً رجولياً دونما رجل!.
﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿وَجِيهًا﴾ عند الله، وعند المخصوصين بالله والمقربين إلى الله ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم أفضل الوجهاء عند الله، وهم السابقون كلّ الخلق في معرفة الله وعبادته: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

والمقرَّبون هم الذين قربهم الله إليه بما تقربوا إليه سعياً لأعلى قممه، فأتم الله تقربهم إليه بما قربهم، فعصمهم من كلّ زلة وضلة.

أجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ليس من صلب رجل وإنما بنفخ منه ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقد تعني تذكير ﴿كَلِمَةٍ﴾ هنا واقع ذكورة المسمّى، وأنها لا تعني - فقط - كلمة لفظية، بل وتكوينية هي واقع تكوينه المنقطع النظير.

وذلك من غرائب القرآن وبدايعه وعجائبه، حيث يذكّر الكلمة في الضمير الراجع إليها رجعاً إلى معناها، فلو قال «اسمها المسيح» لألبس اللفظ إذ لم يتقدم هنا ذكر المسيح عليه السلام ما يؤمن الالتباس.

ثم نراها مؤنثة الضمير فيما أمن الالتباس ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2] حيث تقدمت هناك أسماء المسيح وتعريفاته التي تؤمن الإلباس.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

أو يُقال تأنيث الضمير الراجع إلى ﴿كَلِمَةٍ﴾ مرة وتذكيره أخرى دليل الجواز للصورتين اعتباراً لمجاز التأنيث.

أو أن المعنيين معنيَّان، جمعاً لأدب اللفظ إلى أدب المعنى، وذلك من ميِّزات القرآن العظيم، أن يجمع ميزات الألفاظ إلى ميزات المعاني.

ثم ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هو أجمع اسم وأشمله له عليه السلام، وقد جاء المسيح إحدى عشرة مرة، وعيسى ابن مريم خمساً وعشرين مرة في القرآن كلّه، مما يدل على أن عيسى ابن مريم هو اسمه الأصيل، وعلّ المسيح لقب له يصفه.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

ففي المهد لما أشارت إليه ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا...﴾[1].

﴿وَكَهْلًا﴾ وهو منذ ثلاثٍ وثلاثين من سنّي عمره الشريف أو العشرين حيث ابتدأ واقع نبوته ودعوته، وهو بين مهده وكهله لم يُكلِّم الناس رسالياً، وإنما في المهد رسولياً ذوداً عن ساحته وأُمِّه وكما كان يبشِّر به بلسان يحيى عليه السلام.

فنبوَّته - وهي بعد رسالته - ابتدأت منذ كهولته، مهما كان نبيّاً ينبأ بالوحي غير الرسالي بين المرحلتين، كما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثته[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٤٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن جبرئيل نزل عليَّ بكتاب فيه خبر ملوك الأرض وخبر من بعث قبلي من الأنبياء والرسل - إلى أن قال -: لما ملك أشج بن أشجان وكان يُسمى الكيس وقد كان ملك مائتين وستاً وستين سنة ففي سنة إحدى وخمسين من ملكه بعث الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه السلام واستودعه النور والعلم والحكمة =

= وجميع علوم الأنبياء قبله وزاده الإنجيل وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله وبرسوله فأبى أكثرهم إلّا طغياناً وكفراً فلما لم يؤمنوا به دعا ربه وعزم عليه فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم يزدهم ذلك إلّا طغياناً وكفراً فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم ويرغبهم فيما عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة حتى طلبته اليهود وادعت أنها عذبته ودفنته في الأرض حيّاً وادعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه وما كان الله ليجعل لهم عليه سلطاناً وإنما شبه لهم وما قدروا على عذابه ودفنه ولا على قتله وصلبه لقوله عزّ وجلّ : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمرَان: ٥٥] فلم يقدروا على قتله وصلبه لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله ولكن رفعه الله بعد أن توفاه فلما أراد أن يرفعه أوحى إليه أن يستودع نور الله وحكمته وعلم كتابه به شمعون بن حمون الصفا خليفته على المؤمنين ففعل ذلك.

وفيه عن الرضا عليه السلام قد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين، وفيه ٢٥٧ عنه عليه السلام قال: إن الله احتج بعيسى عليه السلام وهو ابن سنتين.

وفي بحار الأنوار ١٤ : ٢٥٦ عن الكافي الحسين بن محمد عن الخيراني عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن عليه السلام بخراسان فقال له قائل: يا سيدي إن كان كون فإلى من؟ قال: إلى أبي جعفر ابني، فكأن القائل استصغر سنَّ أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى بعث عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر.

أقول: لا يدل «أصغر» هنا على أنه منذ مهده، فلعله كان منذ سبع أو ثمان قبل التسع التي كان عليها أبو جعفر عليه السلام وكما في البحار ١٤ : ٢٥٥ عن الكافي عن يزيد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام كان عيسى ابن مريم عليه السلام حين تكلم في المهد حجّة الله على أهل زمانه؟ فقال: كان يومئذ نبياً حجّة الله غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريَم: ٣٠]؟ قلت:

فكان يومئذ حجة الله على زكريا عليه السلام في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية للناس ورحمة الله من الله لمريم عليها السلام حين تكلم فعبّر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان وكان زكريا الحجة لله عزّ وجلّ على الناس بعد صمت عيسى عليه السلام بسنتين ثم مات زكريا عليه السلام فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عزّ وجلّ : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريَم: ١٢]، فلما بلغ عيسى سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة على الناس منذ خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض.

فلو أنه كان يكلِّم الناس رسالياً بينهما كما فيهما لكان صحيح العبارة عنه «ويُكلِّم الناس طول عمره - أو - منذ مهده إلى صعوده» ولكنه ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ كما يقال مرجعنا مرجع للتقليد في إيران وفي باكستان، حيث لا يعني أنه كذلك مرجع في البلاد الفاصلة بينهما فإن حق تعبيره - إذاً - في إيران إلى باكستان.

فقد كان تكليمه الناس ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ بشارة تمهيدية لرسالته كهلاً، وذوداً عن ميلاده وصمةَ الرجس، فهو يحمل خارقة حالية في أصلِ تكليمه وهو وليد سويعات، وأخرى استقبالية حيث يكلمهم رسالياً «كهلاً».

كما وأن تكليمه «كهلاً» وهو في نفسه خارقة، تحقيقاً لكلامه في المهد، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

ونرى كهلاً يحض فقط السنَّي الثلاث لرسالته الظاهرة؟ وهي ثابتة منذ بعثه إلى ابتعاث محمد ﷺ!.

إن تكليمه «كهلاً» ينقسم إلى التكليم الرسالي منذ بعثه إلى صعوده جاهراً ظاهراً، وتكليمه برسالته منذ صعوده حتى مبعث الرسول محمد ﷺ، ثم وتكلمه بغير الرسالة الفعلية حين ينزل ويصلي خلف الإمام المهدي عليه السلام، فإنه منذ الرسالة المحمدية أصبح من أمته ﷺ دون عزل عاضل قاحل، وإنما هو انعزالٌ فعليٌ بشأن الائتمام بمن هو أفضل منه، على عصمته وقداسته الرسالية السامية، حيث العصمة لا تختص بالرسول والإمام معه أو بعده، فقد حمل العصمة الثالثة بعد الأولى وهي نفسها إلّا الرسالة.

ولئن رفع المسيح عليه السلام وله ثلاث وثلاثون سنة والكهل ما اجتمع قوته وكَمُل شبابه مأخوذاً من اكتهل النبات إذا قوي، ففي غالب الظن أنه بدأ بالدعوة الرسالية منذ العشرين، إلّا إذا دلَّ دليلٌ قاطعٌ على أكثر منه، وقد يُروى عن الرسول ﷺ أن سني دعوته الرسالية بشخصه كانت ثلاثاً وثلاثين

سنة، إذاً فقد يكون صُعوده في ثلاث وخمسين من عمره الشريف، ورسالته منذ كهولته كما تلمحناها من ﴿وَكَهْلًا﴾ ويدل عليه الإنجيل[١].

وترى ما هو دور ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هنا، بعد ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ هناك؟

قد تعني ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصلوح لتلك الرسالة العظمى والنبوة العُليا، دون مطلق الصلاح الشامل لمطلق الوجهاء والمقربين.

ذلك - وكما يلتمسه سليمان النبي ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] وأفضل منه إبراهيم من قبل ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤].

هذا - وقد تعني ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيما عنت تحليق الصلاح على كلِّ كيانه، كعبارة ناطقة عن كلّ نبوة الصلاح وحلقاته بعد ما ذكر قسم منها عظيم، فهو إذاً تعميم بعد تخصيص.

---

(١) في إنجيل يوحنا ١ : ١٩ : ٢٧ : وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا، فقالوا: من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية، قوّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبي وكان المرسلون من الفريسيين فسألوه وقالوا له: ما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».
أقول: فقد كان المسيح قائماً بينهم وهم لا يعرفونه بالرسالة الفعلية وكيف يقوم بينهم وهو في المهد صبياً.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿قَالَتْ﴾ محتارة من بشارة الولادة ﴿رَبِّ﴾ الذي ربيتني تكوينياً لا أنتج ولداً إلّا بأسبابه المقررة عندك، وتشريعياً إذ طهرتني عن كلّ سوءٍ وفحشاءٍ فـ ﴿أَنَّىٰ﴾ بالإمكان عادياً ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لا حلاً ولا - عوذاً بك - حراماً: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ البعيد في حساب الخلق، العظيم الكريم في تكريم من يشاء ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بمشيئة طليقة دونما رادعٍ أو مانعٍ ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ ليكون أياً كان، فليس يحتاج إلى تقدمات هو مقرِّرها ومقدِّرها في متعوَّد التكوين ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن﴾ وهو قول الإرادة الربانية ولا مخاطب له إلّا التكوين دون الكائن به فإنه من تكوين الكائن ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ دونما نَظِرةٍ لآمرٍ آخر أو أمر آخر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾:

علّ ﴿الْكِتَابَ﴾ هنا - وهو جنسه - كلّ كتابات السماء النازلة قبله، وذلك من شروطات كلّ رسالة لاحقة أن يُعلَّم رسولها سابقتها بسابغتها، حيث الرسالات ككلّ هي سلسلة موصولة بعضها ببعض، صادرة عن مصدر واحد، واردة إلى أمة واحدة، مهما اختلفت شكليات وطقوس ظاهرية فيها.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هنا بعد الكتاب، هي تحكيم عرى الوحدة بين كتابات السماء في خُلْدِ الرسول، كما هو بأحرى تحكيم الإنجيل عن أي انفلات في لفظه أو معناه، استفساراً لبعضه ببعض، واستيحاءً فيما يحتاج إلى تفسيره من الله.

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.

وذلك بعد تحكيم فطرته وعقليته وكلِّ إدراكاته وإحساساته بالعصمة البشرية والإلهية تحكيماً عن كلِّ انفراطٍ وانحطاطٍ ليكون حكيماً في حمل رسالة السماء والدعوة الرسالية إلى الله.

ثم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ هما أهم مصاديق «الكتاب» قبل القرآن، وأتَّمها رباطاً بالرسالة العيسوية، حيث التوراة تحمل شريعة الناموس التي لم تُبدَّل في الإنجيل إلّا نذراً.

ومما يلمح له إفرادُ «التوراة والإنجيل» وحدة كلٍّ منهما، دون كثرة مختلَقة ولا سيما في الإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أتراه فقط ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون كافة المكلفين؟ وكما يروى[1] وولاية العزم في رسالة يحملها المسيح تقتضي طليق الرسالة والدعوة دون اختصاص!.

إنه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كمبدأ الدعوة ومنطلقها كما كانت لموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي بدأت رسالته في العرب ثم إلى الناس كافة.

وهذه طبيعة الحال لكلِّ داعيةٍ أن يتبنى في البداية كتلة خاصة هم أقرب إليه وأحوج إلى الدعوة أم وأحرى لحملها إلى سائر المدعوين، وقد بلغت

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٤٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ثم إن الله عز وجل أرسل عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصة فكانت نبوته ببيت المقدس.

عامة الرسالة العيسوية لحدّ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[١] وهي كالرسالة الموسوية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

ذلك! مع تصاريح عدة في آيات أن الرسولين أرسلا إلى بني إسرائيل كأم الدعوة في قراها توحيداً وتوطيداً لعُراها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾[٣].

ثم وطبيعة الحال في رسالة ناسخة لما قبلها وإن في حكمٍ واحدٍ، أن تشمل كافة المكلفين، ذوداً عن أي ترجيحٍ بلا مرجح، وتوحيداً للشرعة الحاكمة على العالمين في كلِّ دورٍ من أدوار الشرائع الخمس ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٤] إذاً فكيف بالإمكان تفرق شرعة الله في دور واحد وبإذن الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾[٥] وحاكمية أكثر من شرعة واحدة في دور واحد هي حاكمية الاختلاف القاصد وهو خلاف الرحمة.

وأما واقع اتِّباع شرائع عدة في طائل الزمن الرسالي، فليس إلّا من واقع التخلف عن شرعة الله ما لم يأذن به الله، حيث أمرنا ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾!.

﴿وَرَسُولًا... أَنِّى﴾ وذلك هو القالة الثانية بعد دعوى الرسالة ﴿أَنِّى قَدْ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

جِئْتُكُم بِئَايَةٍ﴾ ربانية على ما أدعيه من رسالة، آية قاطعة قاصعة أنني رسول من الله، فليست - إذاً - إلّا خارقة ربانية لا يستطيع عليها أحد إلّا الله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ كوسيطٍ في تحقيق تخليق الآية الرسالية و﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[1] فنسبة الخالقية إلى المسيح عليه السلام ليست إلّا بوساطة فيها والخالق هو الله، كما الوالد والد أصالة وقد يعبر عنه بالخالق وسيطاً لخلق الله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهنا أذنان تكوينيان: خلقاً كهيئة الطير وهي الهيئة الجسدانية للطير بالأجزاء الحيوانية عظماً ولحماً وعروقاً ودماً وريشاً، ثم نفخاً فيه تكويناً لروح الطير: ﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى...﴾[3] فـ ﴿بِإِذْنِى... بِإِذْنِى﴾ تحلقان على كلا الخلقين: خلق جسم الطير ثم خلق روحها.

إذاً فلا دور للمسيح هنا في ﴿أَخْلُقُ﴾ إلّا اختلاق صورة طينية من الطير، قد يفوقه فيه عمال التماثيل، وأما تحوُّل الهيئة الطينية هيئة جسدانية للطير، ثم نفخ الروح فيها فتكون طيراً، أما هما فليسا إلّا بإذن الله.

ودور المسيح هنا، المُمتاز عمن سواه، أنه يحمل آية ربانية دالة على رسالته، أن الله يأذن لما صنعه أن يكون كهيئة الطير، ويأذن بما نفخ فيها أن تكون طيراً، تدليلاً على اختصاصه بالله، وما هو هنا إلّا رسالة الله.

فلا دور للمسيح في خلق كشريك لله، أو مخوَّل من عند الله، وعوذاً بالله! فإنما يحمل آية ربانية على اختصاصه بكرامة الرسالة، دون أن يحيط

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

علماً أو قدرة بآية الله، وإلَّا لم تكن آية خاصة بالله، ليُعرف من خلالها رسالةُ الله.

وهكذا تكون كافة الآيات الرسالية لكافة رسل الله بأسرها في حصرها بالله، دون تدخُّل لهم فيها مستقلين فمستغلين، ولا مخوَّلين، ولا شركاء لله في آيات الله، فإنما هم رسل الله فيما يأتون به من آية رسولية أو رسالية، ليس لهم من الأمر شيءٌ تكويناً ولا تشريعاً، فإنما هم حملة شرعة الله بعصمة ربانية تعصمهم عن الخطإ في البلاغ بأبعاده تحملاً للوحي وإبلاغاً وتطبيقاً شخصياً وجماعياً.

ذلك! وكذلك الثلاثة الأخرى بأضرابها من آيات رسولية أو رسالية: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو المولود مطموس العين، أو أعم منه ومن الضرير بعد كونه بصيراً ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأبيض الجلد بعضاً، وهو داء معروف يصيب الجلد ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكل ذلك كما الطير في بعدية ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لا سواه: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ﴾[1] كذلك ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ﴾ بإنبائي، آيات أربع تتجاوب في كونها آية للرسالة العيسوية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هذه خطوة أولى لهذه الرسالة السامية تثبت نفسها، ومن ثم كتصديق لها وبيان لمادتها الأصيلة:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾:

فتصديق ما بين يديه من التوراة تصديق لرسالة الإنجيل فإن رسالات السماء تتجاوب في جذورها مهما اختلفت في بعض شواكلها، إلّا أن رسالة

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

الإنجيل هي، هي رسالة التوراة اللهم إلّا في تحليل بعض المحرمات الابتلائية أو العقابية: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾[1] ومن هذه الطيبات: - ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[2].

ومنها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[3].

فقد تكفي في ولاية العزم بعض الاختلاف بين أحكام الشرعتين نسخاً أو تكميلاً، توسيعاً أو تضييقاً، وشريعة الإنجيل تابعة لشريعة التوراة إلّا في تحليل البعض مما حرم في التوراة.

لذلك ترى رُسُلَ الجن يعتبرون شُرعة القرآن بعد التوراة دون ذكر للإنجيل: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ...﴾[4].

فإنما الدعوة الرسالية المسيحية تركز على التصليحات الخلقية في الجوّ اليهودي القاسي، وتخليص التوراة عما تدخَّل فيها من تحريفات وتجديفات، رفعاً لأعلام شريعة الناموس[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣٠.

(٥) نور الثقلين ١: ٣٤٤ في تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بين داود وعيسى ابن مريم أربعمائة سنة وكانت شريعة عيسى عليه السلام أنه بعث بالتوحيد والإخلاص وبما أوصى به نوح وإبراهيم وموسى وأنزل عليه الإنجيل وأخذ عليه الميثاق الذي أخذ على النبيين وشرع له في الكتاب إقام الصلاة مع الدين والأمر بالمعروف والنهي =

ذلك - وقد يُصدِّقه الإنجيل نقلاً عن المسيح عليه السلام: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات» (متى ٥: ١٧ - ١٩)[١].

فالإنجيل تكملة وإحياءٌ لروح التوراة، ولروح الدين المطموسة في قلوب بني إسرائيل.

فالتوراة هي قاعدة الإنجيل، حيث تحمل الشرعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ولم يعدل فيها الإنجيل إلّا القليل، فإنما هو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب وتليين للضمير القاسي الإسرائيلي.

ثم ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعني الآية الرسالية وعديدها ومديدها كوحيدها لأنها تتجه إلى جهة واحدة مهما توحدت أو كثرت.

فلما اكتملت الأدلة الرسولية والرسالية وتبين القصد من هذه الرسالة، إذاً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن خلافي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعو اليه:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

ذلك هو أول الأحكام العقائدية المسيحية وكما في (مرقس ١٢: ٢٩): «أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» و«أن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية وأن المسيح رسوله» (يوحنا ١٧: ٣).

= عن المنكر وتحريم الحرام وتحليل الحلال وأنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثالاً وحدوداً ليس فيها قصاص ولا أحكام حدود ولا فرض مواريث وأنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى في التوراة وهو قول الله في الذي قال عيسى ابن مريم لبني إسرائيل ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] وأمر عيسى من معه ممن اتبعه المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل.

(١) وقد يشير هنا السيد المسيح عليه السلام بمن هدّم بناية شريعة الناموس وهو بولص ومعناه الصغير.

ذلك! فالهرطقات الدخيلة الكنسية الإنجيلية في أنه «ابن الله» (متى ٣: ١٧) و«أول مواليده» (رعب ١: ٩) وأنه «هو الله والكلمة» (يوحنا ١: ١)، «الأزلي» (وعب ٩: ١٤) ومثل يهوه: «الله» (متى ٢٣: ٣٤ ولوقا ١١: ٤٩) وما أشبه، هذه الخرافات المتخلفة عن شرعة الله هي من الدخائل الشركية المتسربة المترسبة في الأناجيل! أم مؤوّلة، فقد تعني الكلمة التي هو الله كلمة القدرة الذاتية، والتي عند الله كلمة القدرة الفعلية ومن مظاهرها السيد المسيح وسائر الخليقة.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

لقد ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ بقالاته الرسالية الخمس وأهمها خامستها: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾[1] ولم يكن الكفر فقط من اليهود الناكرين لرسالته، المتهمين إياه أنه وليد السفاح، بل وممن صدقه ولكنه غالى فيه أنه ابن الله أو الله، فقد هلك فيه اثنان مُحبٌّ غال ومُبْغِضٌ قال، معركة مصيرية صاخبة لا بدّ من علاجها الصارم، ليس يقوم به وحده فليطلب أنصاراً إلى الله، فـ: ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟

﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ لا «أنصاري مع الله» خلاف ما قد يُهرف بما لا يُعرف من مداليل الكلام توجيهاً لـ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[2] في آية الوضوء لتكون «مع المرافق» تحويلاً عليلاً لدلالته المزعومة على غاية الغسل في اليدين وهي تعني غاية المغسول «اغسلوا أيديكم» الكائنة ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

أجل ﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ إذ لا معية في نصرة الله أن يستنصر المسيح

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

كتلة مع الله، شركاء ثلاثة فيما يريده الله! ولا معنى للمعية هنا فإن الله غاية في مسرح التوحيد وليس سبيلاً.

فإنما تعني ﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هنا ما تعنيه في الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ... قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾(١) أن يتناصروا في سبيل الله والحفاظ على دين الله، لا أن يشاركوا الله في النصرة إلى الله(٢).

إن نُصرة الله لا تعني إلّا نُصرة دين الله، وأما النُّصرة مع الله فقد تكون إشراكاً بالله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٣) ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾(٤).

وإنما سُميت النصارى نصارى لأنهم - في ذلك المسرح الحاسم - أصبحوا أنصار المسيح إلى الله فهم - إذاً - أنصار الله بنفس المعنى لا أنهم أنصاره مع الله!.

فـ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ هم أنصار إلى الله وفي الله، وليسوا أنصار المسيح أمن سواه مع الله، وتقدير ﴿مَعَ﴾ غير وارد في الإضافة بتاتاً، فإنما المقدر فيه بين «من - إلى - في» والأوسط هو المعني هنا كما تطلبه المسيح عليه السلام مهما صحت «في».

وكما تعني ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أنصاراً إلى الله، كذلك تعنيه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ فهل أنهم بعد أنصار مع الله، إيماناً مع الله بالله؟ فبمن يؤمن الله والمسيح والأنصار؟! فـ ﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٢) راجع تفسير آية الفرقان (٢٨: ٣١٩ - ٣٢١).
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٥.

و﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ تعبيرات ثلاثة عما تطلبه المسيح عليه السلام منهم في هذه المعركة الصاخبة.

فلقد كانت ضرورة رسولية ورسالية ذلك الاستنصار في بزوغ الدعوة حيث ابتليت بإحساس الكفر وهو ظهوره، وهذه هي قضية كلّ دعوة أنها إذا بزغت عارضته النُكران والمعارضة، فلا بد للداعية أن يستخلص من الجموع كتلة مؤمنة صامدة ليمضي معهم قدماً في دعوته، فلا تذهب هملاً وسدىً منذ بدايته، وكما فعله رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم في بيعة العقبة والرضوان، تركيزاً للطاقات وتجميعاً للقوات لاستقامة أمر الدعوة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

وتلك هي غاية الإيمان بالرسول أن يكونوا معه أنصاراً إلى الله، إيماناً بالله إسلاماً لله وإيماناً بما أنزل الله وبرسول الله، وقد يكون ذلك الإيمان الصامد إيحاءً لهم من الله إضافة إلى إيمانهم سلفاً بالله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(١) مما يدلُّ على قمة الإيمان والإسلام بالوحي، فهم - إذاً - أصبحوا رسلاً مع المسيح تحت ظلِّه، ولا تجد تنديداً بهم في الذكر الحكيم إلّا تبجيلاً وتجليلاً بمثلث الوحي والإيمان والإسلام.

وترى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ تعني شهادة الأعمال يوم يقوم الأشهاد، علّه هو مهما عنت معه سواه، فكما المسيح شاهد من الشهود يوم يقوم الأشهاد ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ هناك ومنهم السيد المسيح إذ نحن معه أنصار إلى الله.

وقد تعني - مع ما عنت - الشهادة على تبليغ الرسالة بعد ما شهدوا

(١) سورة المائدة، الآية: ١١١.

على حقيقتها، فهذه معية مثلثة بمُثلث الشهادات، بفارق أن العبارة عن الأخريين «من الشاهدين» وتختص ﴿مَعَ﴾ بالأولى.

وقد تعني رابعة هي الشهادة على التوحيد في الشاهدين ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾(١) طلباً أن يكتبهم مع أولي العلم: النبيين، في تلك الشهادة الغالية.

وخامسة هي شهود الله ببصيرة القلب وحقيقة اليقين وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وسادسة هي شهود العراقيل، وتحمُّلها في سبيل الدعوة، أماهيه من شهادات لابقة لائقة بمن هو من أنصار الله.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿وَمَكَرُوا﴾ هؤلاء الذين كفروا وأحسَّ عيسى منهم الكفر، دون الحواريين - وعوذاً بالله - إذ هم حقاً آمنوا بالله كما وصدقهم الله، فإنما الماكرون هم الكافرون من اليهود حيث اشتروه بثمنٍ بخمس دراهم معدودة وسلموه - فيما زعموه - إلى الصليب، وكما يندِّد بهم في الآية التالية ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويعظم موقف الحواريين ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ...﴾.

لقد اغتالته اليهود ليقتلوه ويصلبوه بمكرٍ مكروه ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾(٢).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٢) سورة النساء، الآيات: ١٥٧-١٥٩.

وتراهم كيف مكروا؟ وليس القتل والصلب مكراً إلّا تخفياً واغتيالاً!؟.

﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ في القدر المعلوم مما تعنيه تبيّن ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أنه ألقى صورة المسيح على ما كره فصلب بديلاً عنه ورفعه الله، فليس الرفع الجاهر مكراً، إنما هو بعد إلقاء صورة المسيح على ما كره ورفعه خفية فـ ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أن المصلوب هو المسيح بما مكروا «ما لهم به من علم الاتباع الظن...»! وأما كيف مكروا؟ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ تلمح انهم دلوا عليه حيلة وغيلة.

والمكر في أصله سعي بالفساد في خفية ومداجاة، وهو هو في الماكرين الضالين من الخلق، وهو المقابلة بعملية خافية عدلاً وجزاءً وفاقاً من الله إصلاحاً لما أفسد الماكرون.

وقد يروى أن المسيح مع تلاميذه كانوا في غُرفة مُنْعزِلِة عن بأس اليهود المتربصين به دائرة السوء فدلهم واحد منهم أو من اليهود وهو «يهودا أسخريوطي»[1] على مكانه فألقى الله شُبْهَهُ عليه فصُلِبَ بديلاً عنه، ورواية

(١) اتفقت النصارى على أن يهوذا الأسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح عليه السلام وكان رجلاً عامياً من بلدة «خريوت» في أرض يهوذا، تبع المسيح وصار من خواص أتباعه وحوارييه الاثني عشر ومن الغريب أنه كان يشبه المسيح في خلقه كما نقل (جورج سايل) الإنكليزي في ترجمته للقرآن فيما علقه على سورة آل عمران، نقل وعزى هذا القول إلى (السيرنثيين والكربوكراتيين) من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح وصرّحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبهاً تاماً.
أقول: في كون يهوذا من الحواريين وأنه كان يشبه المسيح عليه السلام نظر، حيث إن الحواريين ممدوحون في القرآن وموحى إليهم في الإيمان بالمسيح فهم رسل المسيح من قبل الله لا يتطرق إليهم أي فسوق فضلاً عن تلك الخيانة الكبرى.
ثم ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] صريحة في حدوث تلك الشبهة، فتنافي كونه شبيهه خلقاً.
فالظاهر أنه كان من اليهود الذين دخلوا بين المؤمنين غير الحواريين، فمكر مكره ومكر الله والله خير الماكرين.

الصلب المُفصَّلة عائدة إلى آية النساء، وعندها قول فصل حول تلك المحاولة الماكرة وما مكرهم الله ذوداً عن ساحة المسيح عليه السلام.

هنا ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ دون «عليهم» لئلا يُخيَّل إلينا أنه مُجرد شبهتهم في قتله أو صلبه، بل و﴿شُبِّهَ﴾ غير المسيح كالمسيح ﴿لَهُمْ﴾ هؤلاء الذين أرادوا قتله، وأما الحواريون فقد بشرهم المسيح أن الله رافعه إليه وأن «أيدي اليهود لم تمسه»: «فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه. فقال لهم يسوع: أنا معكم زماناً يسيراً بعد ثم أمضي إلى الذي أرسلني ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ٧: ٣٢ - ٣٤).

وفرية المكر على بعض حواري المسيح عليه السلام تدفعها صيانة الحواريين حسب القرآن، وأن ضمير الجمع في «مكروا» راجع إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مهما تقدَّم واحدٌ منهم لتحقيق مكرهم أن دلهم على مكانه مكراً بما اشتروه منه بثمن بخس دراهم معدودة ليحققوا مكر القتل والصلب بحقه أو وإن يهوذا كان حسب الظاهر من حوارييه منافقاً في مظهره فدل على مكانه.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ... ٱللَّهُ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ فالمكران هما متقارنان، وتوفِّيه عليه السلام ورفعه هما من تتمة مكر الله حيث ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أولاً ورفعه أخيراً فنجاه من بأسهم وبؤسهم.

وترى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ تعني توفي الموت؟ وهو حسب اللغة ومصطلح القرآن أعمّ من الموت! فهو لغوياً الأخذ وافياً، سواءً كان توفياً يحلق على الإنسان إماتة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1] حيث يأخذ

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

الأرواح والأجساد في قبضة الصيانة فلا تضلُّ عنه مهما ضلّت عمن سواه، أم إنامة: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[1] حيث تضم النوم إلى خِضَمِّ التوفي وهو أخذ الروح الإنسانية عن البدن والروح الحيوانية باقية بُقية للحياة، وهما يتشاركان في أخذ الروح الإنسانية عن البدن كاملة.

ذلك، ومن التوفي أخذ الإنسان بكلا جزئيه عن مسرح الحياة الأرضية إلى حياة سماوية دون إماتة موتاً أم نوماً وهذا هو المستفاد من جماع الآيات بحق المسيح عليه السلام، فليس التوفي هو الإماتة بعينها مهما كانت منها حيث يتوفى الموتُ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾[2] والموت لا يميت وإنما يأخذ الإنسان وافياً طليقاً كما يأخذه النوم نسبياً غير طليق، وثالث يأخذه وافياً دون إماتة ولا إنامة.

فهنا ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ تعني مسرح الأمن عن بأس الكفار ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ أمن عن لعنة الصلب المختلقة بينهم، وقد يكفي رفعه إلى سمائه تطهيراً له عن بأسه في بُعدي الصلب، قتلاً ولعناً... صحيح أن الله ليس له مكان حتى تعني ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ مكاناً لله، ولكنه قد يعني مكاناً علياً كما تعنيه في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[3] وكما تعنيه - أيضاً - آيات الرجوع إلى الله، والحياة عند الله ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[4] والرحمة لدى الله، إذاً فـ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ رفعٌ له إلى مكان الأمن ومكانة الرحمة غير الخليطة بأية زحمة وكما وصفت ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[5].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٥) سورة طه، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

ذلك، وتزيدهُ وضوحاً آية النساء: ﴿... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ... وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

فلأن أهل الكتاب حتى المسيحيين منهم لم يؤمنوا به حتى الآن فهو - إذاً - حيٌّ إلى الآن وسوف يؤمنون به زمن القائم المهدي عليه السلام لما يرونه يصلي وراءه عليه السلام، وكما «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لليهود: إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»[2].

ثم التحوّل من مسرح الحياة الأرضية لا يخرج عن خمسة تحولات: قتلاً - صلباً - موتاً - نوماً - وانتقالاً إلى حياة فوق الأرضية في جنة من الكواكب[3] قد تكون هي جنة آدم وقد رُفِعَ إليها المسيح عليه السلام.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) الدر المنثور ٢: ٣٦ قال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لليهود...

وفي نور الثقلين ١: ٥٧١ شهر بن حوشب يسأله الحجاج يا شهر! آية في كتاب الله قد أعيتني، قال: أيها الأمير أية آية هي؟ فقال قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] والله إني لأمّر باليهودي والنصراني فتضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يخمد فقلت: أصلح الله الأمير ليس على ما تأولت قال: كيف هو؟ قلت: إن عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملة يهودي ولا غيره إلّا آمن به قبل موته ويصلي خلف المهدي عليه السلام قال: ويحك أنى لك هذا ومن أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فقال: جئت والله بها من عين صافية.

(٣) البحار ١٤: ٣٣٥ - لي: بإسناده عن حبيب بن عمر قال: لما توفي أمير المؤمنين عليه السلام قام الحسن خطيباً فقال: أيها الناس في هذه الليلة رفع عيسى ابن مريم عليه السلام.

وفيه ٣٣٦ عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن عيسى وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه فاجتمعوا إليه عند المساء وهم اثنا عشر رجلاً فأدخلهم بيتاً ثم خرج عليهم من عين في زاوية البيت وهو ينفض رأسه من الماء فقال: إن الله أوحى إلي أنه رافعي إليه الساعة ومطهري من اليهود...

وفيه ٣٣٧ بسند عن جعفر عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما اجتمعت اليهود على عيسى عليه السلام ليقتلوه بزعمهم أتاه جبرئيل عليه السلام فغشاه بجناحه وطمح عيسى ببصره فإذا هو بكتاب في جناح جبرئيل: =

والأوّلان منفيان بآية النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ وكلٌّ من النوم والموت له صيغته الخاصة، فلا يعني رفعه إليه - كما هنا وفي آية النساء - إلّا رفعه عن ذلك المسرح النكد البائس، تطهيراً لساحته عن مكر الذين كفروا، وذَوْداً عن سماحته لعنة الصلب، المزعومة لدى الكنسيين البولسيين، فقد توفاه الله أخذاً وافياً سليماً عن بأسهم ثم رفعه إليه استمراراً لتوفيه.

فليس رفعه إليه تعالى - فقط - رَفْعاً معنوياً إذ كان رفيعاً في معناه ومغزاه، كما لا يعني رفعه عن الحياة، بل هو رفع عن الحياة الأرضية إلى حياة سماوية سامية عاشها أبوانا الأولان سويعات، ويعيشها السيد المسيح عليه السلام قروناً طائلة حتى ينزل إلى الأرض زمن المهدي عليه السلام . تلك هي الميزة العيسوية، ومن ثم للذين اتبعوه:

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الفوقية هنا إلى يوم القيامة قد لا تشمل نفس القيامة فهي - إذاً - فوقية تناسب الحياة الدنيا تشريعياً وتكوينياً، والأول يحلق على كافة الكرامات والاختصاصات في حقل الأحكام الشرعية، والثاني قد يعني تفوقاً بالحجة، ثم تفوقاً زمنياً إن قاموا بشروط النصرة الربانية.

= «اللهم إني أدعوك باسمك الواحد الأعزّ وأدعوك اللهم باسمك الصمد وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعال الذي ثبت أركانك كلها أن تكشف عني ما أصبحت وأمسيت فيه» فلما دعا به عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى إلى جبرئيل: ارفعه عندي ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا بني عبد المطلب سلوا ربكم بهؤلاء الكلمات فوالذي نفسي بيده ما دعا بهن عبد بإخلاص دينه إلّا اهتزّ له العرش وإلّا قال الله لملائكته: اشهدوا أني استجبت له بهن وأعطيته سؤله في عاجل دنياه وآجل آخرته ثم قال لأصحابه: سلوا بها ولا تستبطئوا الإجابة.

وفيه ٣٣٨ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رفع عيسى ابن مريم عليه السلام بمدرعة صوف من غزل مريم ومن نسج مريم ومن خياطة مريم عليها السلام فلما انتهى إلى السماء نودي: يا عيسى الق عنك زينة الدنيا.

و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ هم المؤمنون به كما آمن الحواريون، فهم - إذاً - المسيحيون الحقيقيون المتبعون للسيد المسيح عقيدياً وخلقياً وعملياً على مختلف درجاتهم، ما دامت رسالته وشرعته محكمة، ولمّا جاء رسول الهدى ﷺ فهم المسلمون منهم ومِن سواهم، حيث الإيمان بشرعة القرآن هو من قضايا الإيمان بشرعة الإنجيل، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: إنها لن تبرح عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على الناس حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ثم قرأ هذه الآية[١].

ذلك وقد تعني هذه الفوقية - بما عنت - فوقية المسيحيين الملتزمين على الكافرين بالمسيح، مهما لم يسلموا، شرط ألّا يعاندوا مَن آمن به المسيح عليه السلام وهو محمد ﷺ.

ولقد نرى تفوّق المسيحيين على اليهود قبل الإسلام وبعده حتى الآن، مهما اختلِقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زمن قريب، فإنها من عملاء الاستعمار المسيحي.

والنقطة الرئيسية في ذلك التفوق الموعود توفية أجور المؤمنين والعذاب الشديد للكافرين منذ الدنيا إلى يوم الدين كما تبيّن الآيتان التاليتان، المفرِّعتان هذه التوفية على ذلك التفوق، بما أنه من أهم درجاته وأعظم مكرماته.

فهذه فوقية روحية مضمونة للذين آمنوا وخلافها على الذين كفروا على طول خطّ الحياة في الأولى والأخرى، وقد تجاوبها الفوقية الزمنية إن قاموا بشرائط الإيمان كملاً ولم يتركوها هملاً وكما قال الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٧ - أخرج ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .

﴿أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾(١). حيث المخاطبون هم المعنيون بآيات سابقة في خطابات لتحقيق حيويّات الإيمان(٢).

وأخيراً فـ ﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣) وهي الدولة العاقبة كلّ الدول بقيادة المهدي من آل محمد عليهم السلام كما تَعِدُنا آيات وروايات متواترات.

ومن ناحية أخرى يُقرِّر ربُّنا سوم العذاب على كفرة اليهود على طول خطّ الحياة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

ويُقرِّر بالنهاية سحقاً ماحقاً لهم في تلك الدولة الكريمة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾(٥).

وقد ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٦).

ذلك، ولدرجات الإيمان مدخل عظيم في ذلك التفوق في الأولى والأخرى، فهؤلاء هم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله، كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر - بكلٍّ حقوله -

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٢) وهي ألّا يطيعوا الكافرين ويعتصموا بالله ويتقوا الله حق تقاته ويعتصموا بحبل الله جميعاً دون تفرق ويكن فيهم أمة داعية إلى الخير آمرة ناهية - أماهيه؟.
(٣) سورة يونس، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

بحقيقة الإيمان، والذين يتبعون محمداً ﷺ منذ مبعثه هم في الوقت ذاته اتبعوا مواكب الرسل ومنهم المسيح عليه السلام.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

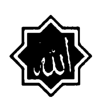
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾:

هنا الإيمان والكفر طليقان، إيماناً بالمسيح وسواه وكفراً به وسواه، وإنما الأصل هو الإيمان وعمَل الصالحات لتوفية الأجور في الأخرى، ثم الكفر لتوفية العذاب فيها.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العميق المدى الظاهرة الهدى ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الهدى ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ الباهرة من كتابات السماء ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وهو القرآن العظيم.

والآيات هنا تعمُّ الآيات الرسولية والرسالية، تكوينية وتشريعية، ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ خصوص بعد عموم يعني القرآن الكريم فإنه راية بين الآيات وهو غاية الغايات إذ تحمله خاتمة الرسالات.



فهرس الجزء الرابع

الموضوع — الصفحة

تتمة سورة البقرة

سورة آل عمران
مدنية وآياتها مائتان

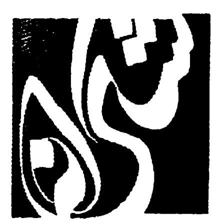
هوية الكتاب

إسم الكتاب : الفرقان في تفسير القرآن

المؤلف : الشيخ الدكتور محمد الصادقي

الطبعة : الأولى 1434 هـ - 2013 م

عدد المطبوع : 1000 نسخة



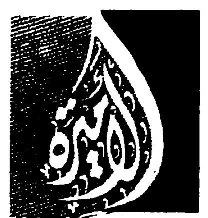
دار شكرانه للتراث الاسلامي

قم - ايران

هاتف: ٢٩٣٤٤٢٥-٠٢٥١/ تلفاكس: ٢٩٢٤٨٦٧-٠٢٥١

www.forghan.ir

email:shokraneh@forghan.ir



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف: ٠٢/٩٤١١١٦١ - ٠٢/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨

http://www.Dar-Alamira.com

e-mail:info@dar-alamira.com